المملكة المغربية
جامعة محمد الخامس
منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط
سلسلة: نصوص مترجمة رقم: 1



ج. ماطوري



منهج المعجمية

ترجمة وتقديم

عبد العلي الودغيري

منهج المعجمية

بسم الله الرحمن الرحيم

ج. ماطوري



مع مقدمة للمؤلف خاصة بالقارئ العربي

ترجمة وتقديم

عبد العلي الودغيري

الكتاب : **منهج المعجمية**
المؤلف : جورج ماطوري
المترجم عبد العلي الودغيري
منشورات : كلية الآداب بالرباط
الخطوط : محمد المعلمين

التصفيف : أنسيف الزنايدي ـ الرباط، الهاتف: 72.70.66
الطبع : مطبعة المعارف الجديدة ـ الرباط
رقم التصنيف الدولي : ISSN 1113-2590
رقم الإيداع القانوني : 1993/738
ردمك 0-05-825-9981.

تقديم

يدعو هذا الكتاب، الذي يشرفني أن أكون أول من ينقله إلى العربية، إلى مادة علمية جديدة أو منهج جديد في دراسة المعجم جاعلا من اللغة الفرنسية مجالا لتطبيقاته.

وهذه المادة العلمية الجديدة أو المعجمية الجديدة ـ باعتبار الفترة التي ظهر خلالها الكتاب وهي منتصف القرن الحالي ـ هي التي يصفها صاحبها بأنها **معجمية اجتماعية**، لأنها تدعو إلى دراسة المعجم من زاوية اجتماعية، وإلى دراسة المجتمع بأدوات لغوية معجمية. إن اللغة ظاهرة اجتماعية، واللسانيات في حد ذاتها علم اجتماعي، والأفعال والظواهر اللغوية ما هي إلا تفسير وانعكاس لأفعال المجتمع وظواهره. وإذن، فبين دراسة المفردات ودراسة المجتمع موضوع واحد وأرضية مشتركة. وهذا ما يدفع جورج ماطوري إلى القول إن المنهج الذي يدعو إليه ما هو إلا «أداة فعالة من أدوات البحث الاجتماعي» وإنَّنا «بالانطلاق من دراسة المفردات نحاول تفسير مجتمع معين»، ومن ثم أمكن أن نُعرِّف المعجمية بأنها «علم مجتمعي يستخدم الأدوات اللسانية التي هي الكلمات».

وبهذه الأفكار والآراء وجد جورج ماطوري نفسه مضطرا لمعارضة كثير من مسلمات سوسير وأقواله الذائعة المشهورة؛ من ذلك أن اللغة والمعجم على الخصوص لا يدرسان لذاتهما وفي حد ذاتهما، كما يذهب صاحب **محاضرات في علم اللغة العام**، بل يدرسان من أجل تفسير المجتمع وإضاءة جوانبه المظلمة. ومن ذلك أيضا أن التغيرات الاجتماعية التي اعتبرها سوسير خارجة عن مجال اللسانيات قد نظر إليها ماطوري نظرة معاكسة وقال : «نحن نعتبر أن هذه التغيرات بالذات هي الموضوع

الذي نبحث فيه». وإذا كان سوسير يقول باعتباطية الدليل، فإن ماطوري يقول على خلافه كذلك بـ «أن المناسبة بين الدال والمدلول ليست طبيعية ولا اعتباطية بل إنها اجتماعية».

وليس معنى هذا أن المعجمية قد تحولت على يد ماطوري إلى علم اجتماعي محض وخرجت من مجالها اللغوي خروجا تاما، بل كل ما هنالك أنه أصر على أن تستفيد المعجمية من عطاء ونتائج أخيها الأكبر وقريبها اللصيق بها وهو علم الاجتماع، كما تستفيد من كل العلوم المجاورة الأخرى كالتاريخ والاقتصاد والإناسة والدلالة والعِرَاقة وغيرها، وإن كان ذلك بدرجات متفاوتة، وتُوَجَّه إلى غايات عملية ومفيدة، كما سنرى، وأنه نظرا للموضوع المشترك بين اللغة وعلم الاجتماع، فإن على المعجمية أن تقف في منتصف الطريق بينهما وتأخذ منهما معا على قدم المساواة. وفي مقابل ذلك نجده يدافع عن استقلال الدراسة المعجمية بنفسها، ويدعو إلى أن تصبح علما قائم الذات منفصلا ومتميزا عن بقية الفروع اللغوية الأخرى التي طالما التبس بها كالنحو والصرف والدلالة والأسلوبية، مهاجما بالخصوص فكرة بلومفيلد القائلة بأن المعجم ما هو إلا ذيل للنحو.

وكما أطلق ماطوري على معجميته هذه اسم «المعجمية الاجتماعية»، أمكن له أيضا أن يسميها باسم آخر وأعني به «**معجمية الحقول**» أو «المعجمية الحقولية»، لأنها قائمة عنده على منهج التصنيف أي تصنيف المفردات إلى مجموعة حقول حسب التصورات والمفاهيم الخاصة بكل مجتمع على حدة، وفي كل مرحلة تاريخية معينة.

وفكرة الحقول هذه لم يكن ماطوري في الحقيقة أول من نادى بها أو طبقها في دراساته. فهو نفسه يعترف بأنها فكرة دعا إليها علماء ألمان أمثال إبسن وترِيِّر وغيرهما خلال العقدين الثالث والرابع من هذا القرن، وعملوا على الانتقال بالدراسة اللغوية من البحث في تاريخ الكلمة إلى البحث في مجالات استعمالها. فهو إذن من أتباع هذا الاتجاه ومن المتلقفين لهذه الفكرة وهي ما تزال في مرحلة طفولتها بعد، قبل أن تحقق تقدما ملموسا وقبل أن تُعرف في فرنسا معرفة كافية، فتبناها وطبقها في أطروحته (**المفردات والمجتمع**...) وأصبح من المدافعين عنها والمنظرين لها.

وكذلك يمكن لهذه المعجمية الماطورية أن تسمى بـ «**معجمية الكلمة**». فقد دافع المؤلف عن الكلمة باعتبارها الوحدة الدلالية الصغرى التي تُبنى عليها الدراسة المعجمية، وناهض المحاولات التي قام بها غيره من علماء اللغة لتفتيت هذه الوحدة إلى وحدات صغرى كما فعل يوتيبيه مثلا فيما بعد. إن مفهوم الكلمة رغم عدم وضوحه في رأي كثير من العلماء يبدو مفهوما سهلا في نظر صاحبنا. ثم إن الكلمة ترتبط بالفكر والتصور الخاصين بكل مجتمع، وهي التي تبرزهما وتعبر عنهما وتحللهما وتركزهما وتُعَقْلِنهما وتنقلهما وتحولهما إلى شيء جماعي. وفضلا عن هذا وذاك فالكلمة هي أساس الدراسة التي جعلها سمة أساسية من سمات منهجه. فعن طريق تصنيف الكلمات إلى مجموعات مترابطة نصل إلى إقامة هذه الدراسة. وتصنيف الكلمات يتخذ عنده شكلا هرميا : في قمته نجد الكلمات التي اقترح أن تسمى بـ «**الكلمات المفاتيح**» ـ وهذا من المفاهيم الجديدة التي أدخلها جورج ماطوري إلى الدراسة المعجمية كما يشهد بذلك المعجمي الفرنسي آلان ري[1] ـ وفي مرتبة أدنى من ذلك نجد الكلمات التي يسميها **الكلمات الشاهدة**، وفي قاعدة الهرم تقع بقية الكلمات التي تُبْنَيْنَ وترتب حسب ما لها من «قيمة» و«وزن» اجتماعيين.

وكما كان ماطوري متأثرا بالمدرسة الألمانية في مسألة الحقول، كان أيضا من الشيعة المُتَحمِّسة لمدرسة «الكلمات والأشياء» الألمانية التي اتخذت لها صحيفة علمية بهذا العنوان، وجعلت شعارها هذه العبارة الآتية : «لا يمكن الاستمرار في بحث تاريخ الكلمات بمعزل عن تاريخ الحضارة»[2]. ومن الجدير بالذكر أن نشير إلى أن كتاب ماطوري هذا كان قد صدر في باريس بعد سنتين فقط من ظهور كتاب آخر في أنجلترا يسير في الخط نفسه ويدافع عن الأفكار نفسها التي كانت تدافع عنها مدرسة «الكلمات والأشياء» أي عن الكلمة وأهميتها، وأعني به كتاب ستيفن أولمان المسمى «الكلمات واستعمالها» الذي ترجمه الدكتور كمال محمد بشر بعنوان «الكلمة ودورها في اللغة». وهذا كله يعكس العناية التي كانت تحظى بها دراسة الكلمة في هذه المرحلة بالذات.

---

(1) انظر كتابه المسمى : **المعجمية** (La lexicologie)، ط. كلانكسيك، باريس 1970، ص. 170.

(2) انظر : ستيفن أولمان في : **دور الكلمة في اللغة**، ترجمة د. كمال محمد بشر، ط. 3، 1972 ص. 194.

ومعجمية ماطوري هذه ليست معجمية الأشكال والصيغ ولكنها **معجمية المفاهيم والتصورات**. وهذا معناه أنه لم يهتم بدراسة صيغ الكلمات الصوتية والصرفية والاشتقاقية، ولم يعر كبير أهمية لما بين الكلمات من علاقات التقابل والتعارض والتطابق من هذه الناحية، بقدر ما صب اهتمامه على العلاقات القائمة على المفاهيم. فاللغة عنده نظام فكري قبل كل شيء، والفرق بين الألسنة هو كما وضحه همبولد وتبناه المؤلف «لا يأتي من الاختلاف في الأصوات والأدلة بقدرما يأتي من اختلاف في رؤية العالم».

ومعجمية ماطوري لا تدرس اللغة في ذاتها ومن أجل ذاتها، كما كان يقول سوسير، بل تدرسها باعتبارها ظاهرة إنسانية؛ وغايتها أن تدفع اللسانيات إلى استرداد وجهها الإنساني الذي فقدته، وفَكِّ عزلتها والحصار الخانق الذي ضربته على نفسها، وعدمِ الاقتصار على التفكير في مشاكلها الخاصة: «إن اللسانيات، كما يقول، تنتمي ـ ويجب ألا تنسى ذلك ـ إلى علوم الانسان». ومن هذا المنطلق واجه المؤلف بشدَّةٍ المذهب السلوكي ومنهجيته الآلية في دراسة اللغة، واعتبره غير صالح ليطبق على ظاهرة إنسانية تدخل فيها عوامل معقدة جدا. بل لقد اعتبر من مزايا كتابه أنه جاء ليقف ضد تيار هذا المذهب الذي كان سائدا في بداية الخمسينيات.

وهي أيضا معجمية ليست قائمة في نظر صاحبها على كثرة التجريد والتنظير التي لا تفيد شيئا، بل إن أهميتها تكمن عكس ذلك فيما تقدمه من رؤية خاصة قائمة «على منهج أصيل يتكيف مع الوقائع والأفعال اللغوية بشكل ملائم، ويحاول التخلص من المناهج ذات المنحى التجريدي في العلوم المجاورة». وقد سخر كثيرا من أولئك اللسانيين الذين يبالغون في الجري وراء موضة التقعيد والصَّوْرنة ذات الطبيعة النظرية البحتة والبعيدة عن كل قيمة عملية، متمنيا أن لو كان موليير حيا في هذا الزمان ليجعل من هؤلاء اللسانيين موضوعا لمسرحياته الساخرة. ومنتقدا لهذا السبب النظرية البنيوية التي يقول عنها : «إن البنيوية في المعجمية أو غيرها، ينبغي أن تكون وراءها فائدة وإلا فقدت كل مبرر لوجودها». ولكنه في الوقت ذاته يطرب لرأي وُورف ويتحمس له حين يقول : «إنه من المبالغ فيه الانكباب على تسجيل أدق تفاصيل الأصوات والاستسلام لرياضة صوتية، وكتابة أنحاء معقدة لن يقرأها من غير النحاة أحد، ولكن هدف اللسانيات الحقيقي في الواقع هو إضاءة مناطق الظل في اللغة، أي القسم الأكبر من العالم الذهني لمجتمع معين ومن ثقافته ونظرته إلى العالم».

ويمكن أيضا أن نطلق على هذه المعجمية اسم «**المعجمية المتفتحة**». فقد دعا ماطوري في كتابه هذا دعوة قوية إلى انفتاح اللسانيات بصفة عامة والمعجمية بصفة خاصة على كل العلوم المجاورة وغير المجاورة، والاستفادة من ثمرات ونتائج بحوثها ومناهجها؛ وهاجم بقوَّةٍ رأي سوسير الذي يقول : «موضوع اللسانيات الوحيد والحقيقي هو اللسان في ذاته ومن أجل ذاته»، متسائلا هل هذا الاستقلال قائم على أساس صحيح ؟ كما رد أيضا في هذا الموضوع على ف. برينو الذي ألف كتابه المسمى «الفكر واللسان» وصرح فيه بأنه تجنب الرجوع إلى علماء النفس وأعمالهم، بقوله : «وهذا الوضع يعتبر من سمات عصر يمكن القول عنه بأنه عصر ولّى. ففي الحقيقة ليست هناك حواجز ممكنة بين اللسانيات والعلوم المجاورة، كما لا وجود لحواجز بين الفيزياء والكيمياء وبين دراسة الظواهر الكهربائية ودراسة الظواهر المغناطيسية». ثم يتساءل لماذا لا تستعمل المعجمية نتائج علم الرياضيات وعلم الفيزياء مثلا ؟ فالعلم واحد كما يقول، وإنه لمن الحكمة أن تحاول بعض التصورات الحديثة وضع خلاصة تركيبية بين علوم الطبيعية وعلوم الإنسان.

وهناك ملمح آخر من ملامح هذه المعجمية ألح عليه المؤلف كثيرا في كتابه، ألا وهو اعتبارها معجمية «**تركيبية تفسيرية**» وليست معجمية تحليلية. وعلى هذا الأساس أقام الفرق الذي أقامه بين «الليكسيكولوجيا»، أي علم المعجم أو المعجمية، وبين «الليكسيكوغرافيا»، أي علم كتابة وتأليف القواميس كما أصبح يعرف الآن ويدل عليه اشتقاق الاسم[3] أو **القاموسية** كما أسميه شخصيا. وهكذا، فإن منهج العلم الأول عنده منهج تركيبي تفسيري، ومنهج الثاني منهج تحليلي. وعلى هذا الأساس أيضا انتقد علم الاجتماع الدوركايمي، رغم تأثره به؛ فرأى أنه يكتفي باقتراح نظريات مجردة وأوصاف وتصنيفات تم وضعها دون البحث عن أسباب الظواهر والأفعال. وكان من جملة ما انتقده في اللسانيات التقليدية، ولاسيما الفرنسية منها، أنها كانت تُعنى بالدراسة التمحيصية الدقيقة للجزئيات، وتغوص في غمار التفاصيل، فتنسى الكليات وتعجز عن توضيح ما هي أسس اللغة وعللها ومصادر وضعها؛ وما هي طبيعة القوى المحركة لتطورها، كما يقول ريزنيكوف. أما الدراسة المعجمية التي يدعو لها فهو يعرفها بأنها «تفسيرٌ لأفعال المجتمع»؛ ويصفها بأنها

(3) على أن موضوع الليكسيكوغرافيا (أو القاموسية) ليس واضحا بهذه الصورة عند جورج ماطوري، وهذا ما علقنا عليه في مكانه من الكتاب.

تحاول أن «تتجاوز بكل ثمن مرحلة التحليل إلى مرحلة التركيب»؛ ويقول: «إن الدراسة المعجمياتية ليس لها هنا صفة الأعمال التحليلية ولا هي عندنا بمثابة تصنيفات لا تمثل حتى في حالة كونها معقولة سوى الحالة الدنيا من العلم، بل إننا نعتبرها محاولة للتفسير. وبما أن التفسير لا يكون إلا مجملا وعاما، فإن بحوثنا هي الأخرى لن تُبنى على أساس كلمات منفردة ولكن على أساس مجموعات وأنظمة معجمية».

والذي يرسم ملامح الكلمة، في نظر جورج ماطوري، ليس هو فقط قيمتها في حال سكونها واستقرارها وثباتها داخل مجموعتها، ولكن هو أيضا أن تعبر عن حركية وديناميية. ولذلك فمن المستحيل تجريدها من عامل الزمن. إن الكلمة ــ كما يقول ــ لها ماضٍ. إنها تَتذكّر، ومن ثم كان عليه أن يرفض التقابل الذي وضعه سوسير بين التعاقبية والتزامنية، وأن يدعو إلى «**معجمية متحركة**» أي «تُدخل إلى اللسانيات الآنية مفهوم الزمن. ذلك أن دراسة الألفاظ لا يمكن أن تقوم على أساس فترة من تاريخ اللسان تكون من الناحية النظرية فترة آنية، بل عليها أن تكون محصورة بين نقطتين تحددان حقبة معينة». وعلى غرار التجاور بين الزمان والمكان الذي وقع في الفيزياء الأينشطينية، يتساءل ماطوري : ألا يمكن أن يتحقق مثل ذلك بواسطة معجمية تريد لنفسها أن تكون سكونية وتاريخية في وقت واحد ؟ ومن هذا المنطلق وجه المؤلف نقده الشديد إلى زملائه البنيويين الذين يعتقدون أن البنية «هي نوع من التصوير الفوتوغرافي الآني للواقع مجردا عن كل ماضٍ وكل آتٍ، وأن التاريخ بالنسبة إليها موضوع بين قوسين».

وأخيرا، فإن ماطوري، رغم مهاجمته للبنيويين ولكثير من آراء سوسير، لم ينف عن نفسه صفة الباحث البنيوي، ولكنه كان يحب أن يُصنّف مع البنيويين «المتفتحين» الذين يهمهم الجانب العملي والواقعي أكثر من الجانب المتعلق بالأشكال والقواعد النظرية والتجريدات، ويستفيدون من ثمرات ومناهج العلوم الأخرى ولا يتشبثون تشبث الأعمى بعصاه القديمة كما يفعل بعض «المتزمتين» الذين يصرخ في وجههم، في مقدمة الطبعة الثانية للكتاب الصادرة سنة 1973، قائلا : «البنيويون الحقيقيون هم نحن، نحن الذين نطبق بنيوية متفتحة تهتم بالنتائج أكثر من اهتمامها بمسلمات سوسيرية، عبقرية حقا، ولكن بعض الأمور المترتبة عنها أصبحت محل اعتراض أو متجاوزة».

هذه إذن هي الخطوط العريضة الكبرى في ملامح المعجمية التي بشر بها المؤلف، وخلاصة الأفكار الأساسية التي يتركب منها بنيان منهجه الذي أقام صرحه في كتابه هذا الصادر في طبعته الأولى سنة 1953. على أن سنة 1953 في الحقيقة لا تمثل التاريخ الفعلي لظهور بوادر المنهج وبداية العمل به. فقبل ذلك بسبع سنوات، أي في عام 1946 ناقش ماطوري أطروحة له بعنوان «المفردات والمجتمع...»، وقد سبقت الإشارة إليها فكانت تلك هي البداية الحقيقية لمشروع «المعجمية الاجتماعية». وبعدها مباشرة انضم أ. ج. غريماس إلى أطروحة صديقه ماطوري وبدأت مرحلة من التعاون الجاد بينهما[4]. وفي سنة 1948 ناقش غريماس أطروحته الأساسية لنيل الدكتوراه، وكان عنوانها «محاولة لوصف مفردات اللباس من خلال الصحف العصرية للموضة»، وأطروحته التكميلية، وكانت بعنوان «بعض انعكاسات الحياة الاجتماعية سنة 1830». ثم انضم إلى الرجلين باحث آخر مشهور هو السيد برنار كيمادا الذي ناقش أطروحته سنة 1949، وهي بعنوان : «العلاقات الغرامية في القصص الاجتماعية»[5]. وبين هذا وذاك، كان ماطوري يصدر حينا بعد حين، عددا من البحوث والمقالات تسير في الاتجاه نفسه ... وهكذا فإن «**منهج المعجمية**» لم يبرز للوجود إلا وقد مهدت له أعمال ودراسات وسبقته أطروحات ومقالات؛ فكان بمثابة صياغة وبلورة واستخلاص لنتائج محاولات سابقة، وتتويج لمرحلة من التجارب متقدمة.

وعلى كل حال، لقد مضى الآن على ظهور هذا الكتاب حوالي أربعين عاما، تطورت خلالها الدراسة اللسانية عموما، وحققت دراسة المعجم على الخصوص تقدما ملموسا وخطت إلى الأمام خطوات جديدة، برزت فيها مدارس أخرى ونظريات، وجدَّت مناهج لم تكن واتجاهات... فكان من الطبيعي أن توضع ـ بعد هذه السنوات الطويلة من البحث والتجديد ـ مسائل من كتاب ماطوري موضع

(4) من المشاريع العلمية المشتركة بين غريماس وماطوري، التي كان ينتظر صدورها ولم تصدر، كتاب يحمل عنوان «الفن والكلمة والمفهوم من 1699 إلى 1857» في جزئين. ذلك أن العلاقة الشخصية ساءت بين الرجلين فيما بعد، فتوقف المشروع. وقد توفي أ. ج. غريماس في شهر مارس من سنة 1992، وهو على علم بهذه الترجمة العربية التي قمت بها لكتاب صديقه القديم جورج ماطوري.

(5) توجد في ملحق الكتاب الذي بين يديك دراسة لكل من أطروحتي غريماس وكيمادا اللتين ظلتا مرقونتين في جامعة باريس ولم تنشرا على العموم لحد الآن، قام بها ماطوري نفسه. وكلتا الأطروحتين تدرسان انعكاس جوانب من حياة المجتمع الفرنسي على معجم اللغة خلال فترة معينة انطلاقا من فكرة الحقول.

الانتقاد، وتثير ما تثيره من نقاش، ويصبح بعض من آرائه ومنهجه متجاوزا أو في حاجة إلى مراجعة. ولكن هذا لا يمكن أن يغض من أصالته وقيمته العلمية الحقيقية ومكانته في تاريخ اللسانيات الحديثة، أو ينال من أهمية ذلك المشروع اللغوي الذي بُذل فيه مجهود فكري كبير؛ فكان له صدى وتأثير واضح في إبانه، أي في مرحلة لم تكن فيها معجمية واضحة بفرنسا وإنما كان هناك معجميون فقط كما يقول المؤلف نفسه، وجاء بأفكار جريئة وذكية وسابقة لأوانها، وأعاد الاعتبار إلى دراسة المعنى وأعطى الأولوية لدراسة المفاهيم، ووقف ضد التيار السلوكي في دراسة اللغة، ووجه انتقادات قوية لبعض المسلمات البنيوية. وبالجملة، لقد كان بمثابة محطة أساسية في طريق التطور الذي عرفته الدراسة المعجمية والدلالية بأوروبا عموما وفرنسا على الخصوص. شهد له بذلك الكثيرون أمثال السيد بيير غيرو (P. Guiraud) الذي يقول : «إن معجمية السيد ماطوري تمثل مرحلة من أهم مراحل التطور الأكثر جدة التي عرفها علم الدلالة البنيوي»[6]، وإنه بفضله وبفضل غريماس وبرنار كيمادا أصبحت تُعطى تلك الأهمية الكبرى لمفهوم الحقل اللغوي في فرنسا[7]، والسيد ألان ري (A. Rey) ـ وهو من أكبر المعجميين المعاصرين بفرنسا ـ الذي يقول إن جورج ماطوري هو الذي حاول، من بين باحثين قلائل، «أن يحدد مجال هذا العلم ـ علم المعجم ـ وقضاياه ومناهجه»[8]؛ والسيدين ج.ب. مارسيليزي وب. غاردان (J.B. Marcellesi et B. Gardin) اللذين يقولان إنه كان بالنسبة للمعجميين بفرنسا مصدراً لتلك الأبحاث الاجتماعية اللغوية المطبقة على المعجم ودراسة المفردات[9]. هذا فضلا عن الاهتمام الواسع الذي لقيه «**منهج المعجمية**» لدى عدد آخر كبير من اللغويين بفرنسا وخارجها، نذكر منهم، على سبيل المثال لا الحصر، بالاضافة إلى من سبق كلا

---

(6) **علم الدلالة** (La sémantique)، سلسلة (Que sais-je ?)، رقم 655، سنة 1979، ص. 81

(7) نفسه، ص. 86

(8) **المعجم : صور ونماذج** (Le lexique : images et modèles)، منشورات (Armand Colin)، باريس 1977، ص. 158. وانظر أيضا الصفحات الآتية : 33، 51، 157، 168، 204 منه، وص 167 وما بعدها من كتابه الذي سبقت الإشارة إليه في الهامش رقم (1) من هذا التقديم، وهو بعنوان «المعجمية» (La lexicologie). وانظر أخيرا المقالة التي كتبها بمجلة (Langue Française)، رقم 43 (1979) بالاشتراك مع سيمون دوليزال (Simone Delesalle) وهي بعنوان (Problèmes et conflits lexicographiques).

(9) **مدخل إلى اللسانيات الاجتماعية** : (Introd. à la sociolinguistique)، منشورات لاروس، 1974، ص. 242.

من لوي هيلمسليف[10]، وجورج مونان[11]، ولوي غيلبير[12] (L. Guilbert) وهنري ميتيران[13] (H. Mittérand) وجون لاينز[14] (Jhon Lyons)، وجاكلين بيكوش[15] ويوحنا نيكولز[16] (Johanna Nichols)، ونيكول مارسيليزي[17] (Nicole Marcellesi)، فضلا عن الأسماء الأخرى التي يشير إليها المؤلف نفسه في مقدمتي الطبعة الثانية والترجمة العربية.

ونحن إذ نُعنَى اليوم بترجمة هذا الكتاب ونقله إلى الجمهور العريض من قراء العربية، فإنما يَحدُونا في ذلك أمران : أولهما أن يتعرف المهتمون والدارسون عندنا على هذا اللون القديم ـ الجديد من البحوث المعجمية الذي دشنه ماطوري في فرنسا وسار خلفه آخرون. فهو على تقادم عهده في المحيط الثقافي الغربي الذي أنتجه، ما يزال عندنا في محيطنا ومجالاتنا الجامعية مجهولا أو شبه مجهول، أو على الأقل لا يلقى الاهتمام الذي يستحقه. وما يزال اسم ماطوري لا تكاد تعرفه إلا الفئة القليلة من الناس.

وثانيهما : أننا لا نستطيع أن نخفي ـ رغم ما جد وما سيجد في حقل المعجميات ـ إعجابنا بكثير من الأفكار والآراء التي اشتمل عليها «**منهج المعجمية**». فنحن مقتنعون كامل الاقتناع مثلا بأهمية المفردات في دراسة المجتمع وتفسير تاريخه وثقافته وحضارته، وإن لم يكن ذلك بالضرورة حسب الطريقة التي دعا

---

(10) انظر كتابه : **بحوث لسانية** (.Essais linguistiques, éd. Minuit) باريس، 1979، ص. 120.

(11) انظر كتابه : **مفاتيح علم الدلالة** (Clefs pour la sémantique)، منشورات (Seghers)، باريس 1975، ص. 40.

(12) انظر كتابه : **الإبداعية المعجمية** (La créativité lexicale)، منشورات لاروس، 1975، ص. 87

(13) انظر كتابه : **الكلمات الفرنسية** (Les mots français)، سلسلة ? Que sais-je، رقم 270، 1981، ص. 119.

(14) انظر كتابه : **عناصر الدلالة** (Eléments de sémantique)، ترجمة ج. دوران، منشورات لاروس، 1978، ص. 215.

(15) انظر كتابها : **موجز المعجمية الفرنسية** (Précis de lexicologie française)، منشورات ناطان، باريس 1977، ص. 91

(16) في Romance Philology، عدد نوفمبر 1971، ص. 241 (نقلا عن : ألان ري **المعجم : صور ونماذج**، ص 157)؛ وفيه إشارة إلى العلاقة بين أحد فروع المعجمية الأمريكية الذي أصبح يعتبر اليوم جزءا من اللسانيات الإناسية (الأنتروبولوجية) وبين التعريف الذي يعطيه ماطوري للمعجمية.

(17) انظر مقالها المشترك مع ب.ج. مارسيليزى بعنوان : **دراسات المعجم : وجهات نظر وآفاق** (Etudes de lexique : points de vue et perspectives)، المنشور بمجلة Langue française، عدد 2، 1969، ص. 106-107.

إليها صاحب الكتاب؛ ومقتنعون أيضا بأهمية المنهج التركيبي التفسيري الذي تحمس له المؤلف؛ ومومنون أكثر بضرورة الانفتاح على مختلف العلوم والاستفادة من مناهجها، وبأن لا معنى لاستمرار اللسانيات في التقوقع على ذاتها ورفض الاهتمام بغير مشاكلها، وبأن عليها أن تسترد وجهها الإنساني، وكل لسانيات لا فائدة من ورائها، أي لا تخدم لغتنا وثقافتنا ولا تفيد تقدم مجتمعنا، لا مبرر لوجودها... كل هذه الأفكار وغيرها مما اشتمل عليه الكتاب، يستحق في نظرنا التقدير والعناية، ولا نعتقد أن البحث اللساني والمعجمي خاصة قد استطاع في مرحلته الراهنة أن يتجاوزها.

هذا عن الكتاب.

أما **صاحب الكتاب**، وهو السيد جورج ماطوري **(Georges Matoré)**

* فقد ولد بضاحية باريس سنة 1908.

* واتجه في بداية الأمر إلى دراسة الرسم، ثم إلى دراسة اللغة والفلسفة والتاريخ بجامعة الصوربون؛ وخلال أدائه للخدمة العسكرية بالمغرب العربي، استغل فرصة وجوده بالدار البيضاء والجزائر، فعمل على الاستئناس بدراسة اللغة العربية ولاسيما الدارجة المغربية. وبمجرد عودته إلى باريس، تابع دراسته للعربية الفصحى والعامية بمدرسة اللغات الشرقية، مما أهله ليترشح، باقتراح من الخارجية الفرنسية، لمنصب معيد بجامعة بغداد (العراق) سنة 1938، ولكن ظروف تلك الفترة لم تسمح بأن يلتحق بمنصبه، وعُيِّن بدلا من ذلك أستاذا للغة الفرنسية، في عاصمة لتوانيا بمنطقة البلطيق التي ظلت إلى حين قريب خاضعة للاتحاد السوفياتي قبل أن ينحل مؤخرا.

* قضى في لتوانيا فترة ما بين 1938 و1943، اعتقله خلالها الجيش الأحمر عدة شهور بعد استيلائه على لتوانيا، ثم أطلق سراحه بعد دخول النازية التي ما لبثت أن اعتقلته بدورها مدة قصيرة.

* في بداية صيف 1943، والحرب العالمية الثانية على أشدها، عاد إلى بلده صحبة زوجته (ألدونا) التي تزوجها في لتوانيا. وفي 1946 حصل على الدكتوراه عن أطروحته التي كانت بعنوان «المفردات والمجتمع في عهد لوي فيليب»؛ وابتداء من هذا التاريخ إلى سنة 1974 عمل أستاذا للسانيات والحضارة الفرنسية بكلية الآداب في بيزنصون (فرنسا) ثم الصوربون بباريس.

* عمل، في موازاة ذلك، رئيسا لجمعية «الحرية من أجل البلطيق».

* أنجز عددا من الدراسات اللغوية والأدبية، نذكر منها على الخصوص :

- مقدمة الآنسة دي موبسان لغوتييه (1947)؛
- المفردات والمجتمع في عهد لوي فيليب (1951)؛
- قاموس المفردات الأساسية (1958)؛
- الفضاء الإنساني (1962)؛
- المفردات والمجتمع في القرن السادس عشر (1968)؛
- الموسيقى والبنية القصصية في «بحثا عن الزمن الضائع» (بالاشتراك (1970)؛
- تاريخ القواميس الفرنسية (1976)؛
- المفردات والمجتمع الوسيط (1985)؛
- سجوني في لتوانيا (1992)، وهو آخر كتاب صدر له لحد الآن (وهو عبارة عن ترجمة ذاتية كتبت بأسلوب أدبي ممتع، خاصة بفترة إقامته بلتوانيا ما بين 1938 و1943)؛
- هذا فضلا عن عدد آخر من المقالات العلمية المنشورة بالمجالات المتخصصة ؛
- **أما كتاب «منهج المعجمية» الذي بين يديك، فقد صدرت طبعته الأولى سنة 1953، ثم طبعته الثانية سنة 1973، وكلتاهما من منشورات ديدي (Didier) بباريس. وعنوانه الأصلي : (La Méthode en Lexicologie - Domaine français).**

هذا وقد تفضل المؤلف نفسه مشكورا، وأبى إلا أن يمهر هذه النشرة العربية بتوقيعه، ويخصها بمقدمة جديدة تنفرد بها دون الطبعتين الصادرتين بالفرنسية؛ فكان ذلك محل تقدير، ومبعث اعتزاز، ومُوجِب تنويه وإشادة.

أما بعد، فإني حاولت في إعداد هذه الترجمة، ما استطعت، أن أجمع بين سلامة الأسلوب، وصحة التعبير، ووضوح القصد والمعنى، والتزام الدقة العلمية، والصحة في النقل، والوفاء بأمانة النص، مع تعليقات موجزة هنا وهناك رأيت أنها ضرورية، ولم يكن ذلك كله هيناً ميسورا. ومع ذلك لا أدعي العصمة والكمال، ولا أتبرأ من الخطإ والزلل. وحسبي الله ونعم الوكيل.

عبد العلي الودغيري

الرباط في 17 ذي الحجة 1412هـ/19 يونيه 1992م

مَنهَجُ المُعجَمِيَّةِ

إهداء المؤلف

إلى السيد شارل برينو الأستاذ بالصوربون،
دليلا على شدة اعترافي.

«اللسان هو الذي يمنح شعبا من الشعوب مفرداته، والمفرداتُ هي اللوح الذي يحفظ بكل إخلاص معارف هذا الشعب : فمن خلال المقارنة وحدها بين مفردات أمة في مختلف الأزمنة، نستطيع أن نستخلص لأنفسنا فكرة عن مراحل تقدم هذه الأمة».

ديـدرو

(الموسوعة، ج. 5، 1755، ص. 637)

مختصرات

م.ع.ل.ع = (C.L.G.) : محاضرات في علم اللغة العام، ف. دي سوسير.
ت.ل = (H.L.) : تاريخ اللسان الفرنسي، ف. برينو.
ا.ت.ل.ع = (L.H.L.G.) : اللسانيات التاريخية واللسانيات العامة، أ. مابيه.
ل.ف. = (L.P.) : اللغة والفكر، هـ. دولاكروا.
ع.ن.ل = (Ps. L.) : علم نفس اللغة، مجموعة مؤلفين (1933).
مفردات.. = المفردات والمجتمع في عهد لوي فيليب، ج. ماطوري.

مقدمة المؤلف للترجمة العربية (1992)

بفرح كبير وبشيء من التأثر (ولماذا لا أقول ذلك ؟) أقدم هنا إلى القارىء العربي هذه الترجمة التي قام بها زميلي السيد **عبد العلي الودغيري** من جامعة الرباط لكتابي **منهج المعجمية**، وأهنئه بمبادرته.

لقد كان ينبغي لهذا الكتاب الذي نفد منذ مدة طويلة في طبعته الأولى سنة 1953، والثانية سنة 1973، أن يعاد نشره حديثا في طبعة تأخذ بعين الاعتبار الأعمال العديدة التي ظهرت في مادة علمية كانت مجهولة جهلا تاما قبل أطروحتي للدكتوراه في الآداب التي نوقشت سنة 1946 بعنوان : **المفردات والمجتمع في عهد لوي فيليب**، وتطورت بعد ذلك بشكل ملحوظ. إنني أبعد ما أكون عن الاتفاق مع كل هذه الأعمال، ولكن إذا كان بعض منها قد وصل بدراساتنا إلى طرق مسدودة، فإن بعضها الآخر قد أغناها بإسهامات مهمة. ولا ينبغي التعجب من هذه المفارقات: **فالمعجمية** التي تم التمييزُ بينها أخيرا وبين أختها أو بالأحرى قريبتها وهي **القاموسية**، وفصلها بوضوح عن **الأسلوبية** (والمعجمية مجرد أداة لها)، هي علم حديث السن جدا لا يمكنه أن يزعم خلال بضعة عقود قليلة أنه أصبح يتوفر على أدوات ومناهج ثابتة لا نقاش فيها. وأما أفكاري التي أعلنت عنها في كتابي هذا، فلا يمكن بالتأكيد أن تكون نهائية، بل ينبغي اعتبارها نقطة الانطلاق نحو أعمال أخرى قمت شخصيا بكتابة بعضها[أ] : لقد أدخلت هذه الأعمال عددا من التغييرات على منهجي الخاص، ولكن بدون المساس بالفكرة الأساس التي كان **منهج المعجمية** قد أعلنها : وهي أن دراسة المفردات لا يمكن القيام بها دون بحث المعطيات الاجتماعية

(أ) انظر الإشارة إليها في ترجمة المؤلف (م).

والسياسية والفنية والدينية (وأفكر هنا في **القرآن** بالنسبة للعرب) التي تسمح وحدها بتصنيف طبيعة هذه المفردات وتفسيرها. ومن بين أعمال تلامذتي ينبغي أن أذكر عمل هـ. ل. كريشل (H.L. Krechel) ـ وهو للأسف مكتوب بالألمانية ـ حول مفردات **ميگري** (Maigret) لسيمينون (Simenon)، وعمل فرانكا كابيلو (Franca Capello) حول مفردات شارل لوي فيليب. وبالنسبة للعصر الوسيط فإن أطروحة بورجيس (G.S. Burgess) حول مفردات القصص الغزلية الأولى (ط. دروز. 1970) تقدم منهجا وأدوات مرموقة. ومما يؤسف له أن أطروحة أ.ج. غريماس حول مفردات الموضة سنة 1830 لم يتم نشرها. على أن هناك معلومات جادة مصحوبة بنصوص لغوية حول مختلف اتجاهات الدراسات المعجمية قدمها ألان ري (A. Rey) في كتابه المسمى **المعجمية** (ط. كلانكسيك 1978).

من المفهوم أن تكاثر الأعمال المتعلقة بعلم الدلالة وبالمعجمية قد يكون وراء تراجعي عن إعادة نشر **منهج المعجمية**، فالكتاب الذي يتطلب مثل هذا بيبلوغرافيا واسعة جدا، قد يقتضي مراجعة على رأس كل خمس سنوات أو ربما مراجعة في كل حين، وهو ما لا يمكن أن ينجز إلا بعد وقت متأخر جدا، أي بعد أن يصبح علمنا هذا ـ إذا جاز لنا القول ـ علما ناضجا.

ومع ما يصاحب أي منهج رائد من عيوب ومحاسن، فإني أعتقد أن الأفكار التي أتيتُ بها في كتابي والأفعال والوقائع التي ذكرتها يمكنها أن تصلح قاعدة للأعمال التي تأتي فيما بعد. ورغم أن «**منهج المعجمية**» يعتبر كتابا بنيويا في جوهره، لأنه يعتبر أن الكلمة لا يمكن عزلها عن سياقها الاجتماعي، فإنه لا يمكن أن يخضع لبعض المفاهيم الأساسية في «**محاضرات**»سوسير، بل لقد سمح لنفسه بأن ينهض ضد بعض الثوابت الآتية في هذا الكتاب :

1 ـ لقد ظهر أكثر فأكثر أن اللسانيات، التي لها حتما مناهجها ووجهة نظرها الخاصة، ليست معزولة عن بقية العلوم الانسانية الأخرى بالشكل الذي يدعيه سوسير، لدرجة أننا نستطيع اعتبار المعجمية مادة مجاورة لعلم الاجتماع.

2 ـ أثبت كل من المعجمية وعلم الدلالة، اللذين تجاهلهما كتاب «**محاضرات في علم اللغة العام**»، حقهما في الوجود بما أثاراه وأوجداه من أعمال.

3 ـ ازدراء الدراسة التعاقبية (الديكارونية)، الذي نعلمه منذ ورتبورغ وبالدينجر، ليس له ما يبرره.

4 ـ التمييز الذي أقامه سوسير بين اللسان والكلام يتطلب المراجعة.

وليست الغاية من ملاحظتنا هذه، على الإطلاق، هي التقليل من أهمية العالم الكبير فردينان دي سوسير؛ ولكن كل ما في الأمر هو أن العلوم الانسانية (لا اللسانية فقط) حققت، منذ موت هذا الأخير سنة 1913، تقدما مهما ينبغي أن يوضع في الحسبان. ثم إن الحظوة الأكيدة التي نالها سوسير قد منعت لمدة طويلة بعض اللسانيين من تبيُّن الجوانب القابلة للنقاش في جملة من الأفكار التي أكدها الرجل. لقد وقعوا في غرام النظرية ونسوا أن اللسانيات عليها أن تحتفظ بوجهها الإنساني.

ولا أريد أن أختم هذا التقديم دون أن أتوجه إلى القارىء العربي المستفيد من ترجمة السيد عبد العلي الودغيري الذي أجدد له الشكر وأهنئه بحرارة، فأقول : إن المغرب والعالم العربي بصفة عامة ليسا غريبين عن المؤلف، فخلال مدة الخدمة العسكرية التي قضيتها بشمال إفريقيا، بدأت ـ في كل من الدار البيضاء والجزائر ـ دراسة العربية المغربية التي أتممتها في المدرسة الوطنية للغات الشرقية بباريس إلى جانب العربية الفصحى. ثم عُينت بعد ذلك معيداً في جامعة بغداد سنة 1938، ولكنني لم أتمكن من الالتحاق بمنصبي نظرا للأحداث السياسية؛ فتغير مجرى حياتي في اتجاهات أخرى، ولكنني بقيت مخلصا لذكرياتي مع أساتذتي كولان وجود فروي ديمونبين وابن حمودة، وويت، ومحتفظا بذكرى حية عن كل من الرباط وفاس ومراكش، وعن قراءات قديمة في ابن خلدون وألف ليلة وليلة لا تخلو من صعوبات.

جورج ماطوري

(مارس 1992)

مقدمة الطبعة الثانية (1973)

إنه لمن المزعج دائما أن يُصدر المؤلف حكمه على كتاب له، ولا سيما إذا كان هذا الكتاب قد صدر قبل عشرين سنة خلت، وكان ينتمي إلى علم ما يزال منذ ذلك الحين يثير اهتمام باحثين عديدين. وهذا العمل الذي سوف نقرأه يتسم، ككل الأعمال العلمية، بسمة عصر يعتقد الكثيرون بأنه عصر ولّى. ولعل قائلا سيقول : ربما كان من المستحب لـ **منهج المعجمية** أن تعاد كتابته وتراجع أفكاره التي تم إعلانها سنة 1953 وتحذف بعض تفاصيله التي كان لوجودها ما يبرره من قبل ولكنها اليوم لم تعد لها فائدة واضحة. إن أي منهج يستخدم في مجال لم يكتشف جيدا كمجال علم الدلالة، لهو بالضرورة مطبوع بطابع ظرفي ومؤقّت، وأي مؤلف منطقي مع نفسه لن يخجل من تغييره بل تعويضه إذا ما رأى أن هناك مكتشفات مؤكدة تفرض عليه ذلك.

وهذا أمر ليس مطلوبا هنا، أو على الأقل ذلك ما أعتقده شخصيا. فإذا كان هناك مجال لم يتحقق فيه ــ رغم الأعمال الكثيرة ــ أي تقدم جدي منذ مدة طويلة، فهو حقا مجال الدراسات الدلالية، وسنرى أسباب ذلك. ثم إني فضلت، بالاتفاق مع ناشري، ألا أغير شيئا في نص لا شك أنه أصبح متقادما ولكن جوهره ظل من غير أن يُنقض، وأصبح بمراعاة الفروق الزمنية بمثابة وثيقة. وإذن، سأكتفي في هذه المقدمة بعدد من التوضيحات محاولا أن أبيّن أن الطريق التي فتحها كل من كتاب **المفردات والمجتمع في عهد لوي فيليب**[1] وكتاب **منهج المعجمية**، كانت ــ مؤقتا على الأقل ــ هي الطريق الوحيدة التي وضعت نفسها وما تزال رهن إشارة معجمية مغرمة بالفعّالية.

(1) أطروحة نوقشت في 1946 ونشرت سنة 1951 ضمن مطبوعات دروز، ثم أعيد طبعها سنة 1967 ضمن منشورات سلاتكين.

كان وراء ظهور الانتقادات الموجهة إلى **دلالة الحقول** التي كان يدافع عنها بعض اللسانيين، وأنا واحد منهم، حوالي 1950، سببان أساسيان :

الأول : مرتبط بالتقدم الذي أحرزته اللسانيات البنيوية في مجالي الصوت والتركيب : فهذه المكتشفات، التي وقع تضخيم أهميتها، قد شجعت بعض اللسانيين على أن ينقلوا إلى المجال المعجمي بعض المناهج التي كانوا يعتقدون أنهم برهنوا على صحتها. وتعميم هذه المناهج على المجال المعجمي فيه مغامرة. وستأتي فرصة توضيح ذلك.

ومن جهة أخرى يجب أن نلاحظ أن دلالة الحقول التي اقترحها كل من ترِّير (Trier) وفُون ڤْرْتبورغ وأنا شخصيا، بالإضافة إلى آخرين، لم يتم ـ لأسباب ظرفية ـ استغلالها بالقدر الكافي. فإذا كانت قد استطاعت أن تبعد الدراسات القائمة على التدقيق في الصيغ والكلمات النادرة ـ وهي دراسات كانت سائدة بفرنسا إلى غاية 1945 ـ فإنها لم تنتج في بلادنا على الأقل سوى أعمال منفردة بعضها لم ينشر وبعضها الآخر لم ينلْ لظروف سيئة حظه من النشر إلا في إطار محدود.

ومع ذلك، فإن نظرية الحقول الدلالية لم تهمل رغم الحملات التي استهدفتها. فقد استمر استغلالها قائما في الخارج : في تشيكوسلوفاكيا أول الأمر حيث تم تطويرها على يدِ أوتو دوشاسيك (Otto Duchacèk)، الذي نشر، بالإضافة إلى مقالات عدة، كتابا بعنوان **الحقل التصوري للجمال في الفرنسية الحديثة**[2]، وروزينا أوسطرا (Ruzena Ostra)[3]. وقد اشتغل التركي فَرْدار[4]، مع أخطاء في المنهج، في اتجاه قريب من هذا. وأخيرا نذكر المدرسة الناشئة للمعجميين الإيطاليين ممثلة في شخص الآنسة فرانكا كابيلو (Franca Capello)[5] والآنسة ريكاتُو[6] (Riccato) اللتين انضمتا كليا

---

(2) (Praha 1960) وقد نشر أ. دوشاسيك أيضا كتابا آخر بعنوان : «**موجز علم الدلالة الفرنسي**» «Précis de sémantique française» - Universita, J. E.) (Parkiné, Brno, 1967)

(3) **الحقل التصوري للعمل في الألسنة الرومانية** (Le champs conceptuel du travail dans les langues romanes - Universita. J. E. Parkiné, Brno, 1967)

(4) **دراسة معجمية لحقل مفهومي : الحقل المفهومي للحرية في فرنسا من 1627 إلى 1642.**
(Etude lexicologique d'un champs notionnel : Le champs notionnel de la liberté en France de 1627 à 1642 — Edebiyet Fakültesi Basimevi (Istambul).

(5) (Charles Louis-Philippe, Studio critico in base alla lexicologia psichosociologica, Editoria Books Store, Torino, s.d. 1972).

(6) (المعجمية : La lexicologie). نص لم ينشر.

إلى نظرياتي. ومن جهتي قمت سنة 1965 بنشر كتاب **الفضاء الإنساني** (L'espace humain)[7] الذي يدرس بصفة موسعة نسبيا الاستعارات المُمَعْجَمَة (lexicalisées) مثل قولهم La ligne du parti (= خط الحزب) وقولهم Le volume des affaires (= حجم المعاملات) الخ... التي يتكاثر ورودها في المفردات والتي بذلت جهدي في تحديد دلالتها في المجتمع المعاصر.

ومن المناسب أيضا أن أشير إلى الفائدة التي تقدمها لدراساتنا أعمال اللسانيين الإناسيين الأمريكيين المنتمين إلى مدرسة سابير وورف الذين أكدوا وهم يرتكزون على الدراسة الدقيقة للألسنة الهندية في أمريكا، مثلهم مثل المعجميين، متانة الكلمة من الناحية النفسية. فالكلمة كما يقول سابير «لا يمكن أن تتجزأ دون أن تنتج عن ذلك بلبلة في المعنى ويبقى واحد من هذه الأجزاء بين أيدينا وهو فاقد الحياة»[8]. إنها تجزئة غير ملائمة : فالأمر لا يتعلق بمماحكة حول المسائل الصغرى، ولكنه يتعلق بـ «تأسيس مقاربة لسانية للفكر». ولقد كان وُورف واضحا جدا حين قال إن أغلب الأعمال المعاصرة في النحو والصوت مهما كانت عبقرية مؤلفيها، ليست لها سوى أهمية بسيطة؛ مادامت هذه المؤلفات ــ ولنضف ذلك ــ مجرد تجارب ومقاربات سرعان ما يتنازع الناس في قيمتها ؛ وذلك حتى لا نقول إنها مناهج قائمة خارج حقائق اللغة. ويضيف وُورْف : «يبدو أنه من المبالغ فيه الانكباب على تسجيل أدق تفاصيل الأصوات والاستسلام لرياضة صوتية وكتابة مجموعة أنحاء معقدة لن يقرأها من غير النحاة أحد، ولكن هدف اللسانيات الحقيقي في الواقع هو إضاءة مناطق الظل في اللغة، أي القسم الأكبر من العالم الذهني لمجتمع معين ومن ثقافته ونظرته إلى العالم. فمن أجل إضاءة هذا ''الشيء الثمين '' كما يسمى وجد علم التواصل»[9].

وهذا بالضبط هو العمل الذي انكب عليه لسانيو مدرسة «الكلمة والشيء» (Wörter und Sachen) وأولئك الذين انكبوا من بين المتخصصين في الجغرافيا اللغوية (فرنسيين وسويسريين وإيطاليين... الخ) بعد جِيلْيُرون (Gilliéron) على دراسة المشاكل التي تطرحها الكلمة في اللهجات المحلية. فمن الواضح أنه لا يمكننا وضع تاريخ للكلمات دون تاريخ للأشياء. ونحن لا نعني بـ «الأشياء» في مجتمع فلاحي

(7) Paris; La Colombe - Fayard. éd. 1963

(8) **اللغة** (Le langage, éd. Franç. p. 27)

(9) **اللسانيات والإناسة** (Whorf : Linguistique et anthropologie, p. 35).

الأمور الملموسة فقط، ولكن أيضا المفاهيم المتعلقة بالذهنية وشروط العيش وغيرها من الأمور التي لا يمكن بدونها تفسير وجود الأشياء المألوفة بكثرة (مثل : منشار، محراث،... الخ).

وبالإضافة إلى الأعمال التي أتيت على ذكرها، وهي كلها تهم من قريب أو بعيد التفكير المعجمي، يجدر بي أن أشير أيضا إلى الأهمية التي تكتسبها الدراسات المفرداتية في نظر عدد من العلماء العاملين في المجالات الخارجة عن اللسانيات. وبشيء من العفوية، سأشير إلى مؤرخين من أمثال لوسيان فيبر (Lucien Febvre) الذي كان بعد مارك بلوخ (Marc Bloch) يلح على الفائدة المتوخاة من وراء الأعمال المعجمية القادرة وحدها في نظره على إعطاء الأبحاث التاريخية الدقيقة أهمية وقيمة، وإلى متخصصين في نظرية المعرفة أمثال باشلار الذي أهديتُ له كتاب **الفضاء الإنساني**، وأخيرا إلى بعض علماء النفس. وإذا كانت أغلب مقالاتي التي نشرتها منذ بضع سنوات حول المفردات لم تظهر في مجلات لسانية ولكن في **مجلة علم النفس** (= Journal de psychologie) فإن لذلك دلالته الخاصة. والدليل الآخر على الجدة التي ما تزال عليها نظريات **منهج المعجمية** في نظر العقليات غير المتحيزة، هو التعاطف الذي يبديه قسم من النقد الجديد (على الأقل ذلك النقد الذي يمارس قراءة النصوص قراءة متبصرة جدا) تجاه دلالة الحقول والكلمات المفاتيح.

وأخيرا، ليس من العبث أن أشير إلى فئة من المؤلفات الحديثة التي سلطت، بعيدا عن المعجمية بمعناها الدقيق، بعض الأضوء على الكلمة وتاريخ النظريات التي مارسها مؤلفو القواميس منذ القدم. فقد قدمت أعمال كل من ر.ل. فاجنر (R.L. Wagner)[10]، وبرنار كيمادا (B. Quemada)[11] وأعمالي شخصيا[12] بجانب الفائدة التاريخية المرتبطة بنوع من المؤلفات التي لم تدرس جيدا، إسهاما مفيدا في دراسة الكلمة المفردة، ودراسة قضايا التعريف وقضايا الأمثلة واجتماعية القواميس كذلك. ثم إن نشر **دفاتر معجمية** (Cahiers de lexicologie) وعدد آخر من المؤلفات والمقالات التي كتبها معجميون مطلعون أمثال ب. إمبز (P. Imbs) وآلان ري

---

(10) **المفردات الفرنسية** (Les vocabulaires français. Paris, Didier 1970)

(11) **قواميس الفرنسية الحديثة** (Les dictionnaires du français moderne, Paris, Didier. éd. 1967)

(12) **تاريخ القواميس الفرنسية** (Histoire des dictionnaires français, Paris, Larousse; éd. 1968)

(H. Rey)[13]... إلخ، قد أسهم بجانب القواميس المختلفة الأحجام مثل **روبير الصغير** (Petit Robert) وطبعات **لاروس** (Larousse) الجديدة، **وكنز اللسان الفرنسي** (Trésor de la langue française)[14] في إثارة انتباه الجمهور إلى النتائج التي تم التوصل إليها في مادة علمية لصيقة بمادتنا.

* * *

إلى جانب هذه المعلومات المختصرة جدا حول الوضعية الحالية للدراسات المعجمية، قد يكون من المناسب أن نضيف بعض الإيضاحات المنهجية.

وأول هذه الإيضاحات يتعلق بوضعية البنيويين أنفسهم. فخلافا لما يعتقده كثير من الأشخاص أو يتظاهرون باعتقاده، نجد أن في مفهوم البنية الذي انتشر في العلوم الإنسانية منذ عشرين سنة، كثيرا من الالتباس المزعج. وكما تبيَّن من أعمال الأسبوع العشرين لـ «المركز الدولي للتركيب»[15] (Centre international de synthèse) فإن هناك من التصورات الخاصة بالبنية عددا لا يقل عن عدد ما يوجد من العلوم التي يشيع فيها استعمال هذا المصطلح. وحتى عند اللسانيين الذين تعودوا بحكم المهنة أن يزنوا معاني كلماتهم، نجد في تعريف البنية اختلافات مهمة. فهل ينبغي اعتبار البنية اللسانية هي (كما قال تلامذة سوسير المتزمتون) بنية منغلقة على نفسها أم ينبغي أن ننظر إليها على أنها نقطة التقاء «الوضعية» اللسانية الاجتماعية النفسية كما أزعم شخصيا ؟ وهل ينبغي أن ننفي كون البنية التي يشبهونها بنوع من التصوير الفوتوغرافي الآني للواقع مجردة من كل ماض وكل آت، وأن التاريخ بالنسبة إليها «موضوع بين قوسين»، أم ينبغي حتى في حالة الوقوف عند حدود الدراسة التزامنية للأفعال اللسانية قبول أنه بحكم ارتباط هذه الأفعال بالماضي يكون مناسبا إقامة جسور بين التعاقبية والتزامنية؟ وهذا ما فعلتُه ـ كما سنرى ـ مفترضا وجود «أجيال» معجمية تقابل تحولات الفكر المنتظمة نسبيا، وظروف الحياة، وغيرها، في

(13) لنلاحظ الأهمية الخاصة لمجموعة النصوص المشروحة التي أصدرها (ألان ري) بعنوان «**المعجمية**» (La lexicologie) ط. (Paris. Klincksieck, éd. 1970)

(14) ظهر من هذا الكتاب الضخم الذي سوف يدرس المعجم الفرنسي من 1789 إلى أيامنا هذه سفران وسيشتمل على 14 سفرا، وهو يصدر عن المركز الوطني للبحث العلمي، وتقوم مكتبة كلانكسيك (Klincksieck) بتوزيعه.

(15) «**مفهوم البنية وبنية المعرفة**» Notion de structure et structure de la connaissance ; Paris, Albin Michel, éd. 1957

مجتمع معين[16]. ولم ينج المختصون في نظرية المعرفة أنفسهم من أمثال بياجيه، من معاناة صعوبة واضحة في اقتراح تعريف للبنية مشتمل على تعميم مريح للنفس : فبعض خصائص البنية لا يمكنها بالفعل أن تنطبق على علم نفس الطفل حيث لا يمكن لمفهوم الوراثة (أو إذا أحببنا مفهوم التعاقبية) أن يتم إبعاده.

تحتل المعجمية وضعية خاصة ولكن ليست شاذة بالقياس إلى المفهوم القوي للبنية الذي يحاول اللسانيون البنيويون أن يفرضوه. إننا بالفعل نجد أنفسنا في كل العلوم التواصلية وخاصة في علم اللغة وبالأخص في المعجمية أمام مشكل مزدوج : مشكل الشكل ومشكل المعنى. ولعل المثال الذي كان ينشده البنيويون الأوائل، كبلومفيلد، هو الاستغناء عن المعنى إلى درجة أن بلومفيلد كان ينحي جانبا كلمات : (نفس ـ تصور ـ وعي...) وغيرها من الكلمات التي يعتقد أنها غير علمية. وقد أجهد اللسانيون أنفسهم إخلاصا منهم لمذهب سلوكي يمكن لكل واحد من تلقاء ذاته أن يعتبره متجاوزا أو مضحكا، في تشبيه اللغة بلعبة آلية من نوع : (حافز ـ استجابة) (ح ـ ج) المعروف جدا عند المتخصصين في نفسية الفأر. ولكن ذلك لا يصلح لأن يطبق على ظاهرة إنسانية تتدخل فيها عوامل معقدة جدا. إن المذهب السلوكي لواطسن (Watson) ومنافسيه، وحتى المذهب السلوكي الجديد الذي ظل كثير من البنيويين متعلقين به ضمنيا قد أصبحا في انهيار منذ السنوات التي أعقبت الحرب العالمية الثانية[17]. إن النظرية الجشطالطية والتحليل النفسي قد ألحا بالفعل على المجالات التي لم يكن السلوكيون يهتمون بها : وهي الفكرة، والغريزة، والدوافع المعقدة... إلخ. وأما روائز الفهم المستعملة أحيانا في اللسانيات التطبيقية التي يجيب الطالب عنها بنعم أو لا، فهي لا تقوم إلا بتطبيق نظريات مستخلصة من تصرف الحيوان على الإنسان من غير حق. وكل محاولة للاهتمام بالفعل اللساني في إطار السلوكية قد باء بالفشل. فالرجوع إلى هذا الفعل لا يمكن أن يبرر إلا في حالات

(16) نلتقي هنا مع رأي جاكبسون الذي يذهب إلى أنه «ينبغي لكي يكون تاريخ اللغة في الحقيقة شاملا جامعا، أن ينظر إليه نظرة بنية كبرى تمّ تشييدها على مسلسل من العمليات الوصفية التزامنية المتتابعة». **بحوث في اللسانيات العامة** : .Essais de ling. gén، ص 212.

(17) بعد لاشلي (Lashely) الذي كان من قبل قد انتقد سنة 1948 الاستعمال اللساني للسلوكية، بيّن تشومسكي في «**اللغة والفكر**» (ص 25) عدم كفاية النظرية السلوكية والحاجة إلى إقامة نظام للقدرة اللسانية «مختلف نوعيا عن كل ما يمكن أن يوصف بمصطلحات المنهج التصنيفي في اللسانيات البنيوية وعن مفاهيم علم نفس (الحافز والجواب) أو المفاهيم التي وقع تناولها في النظريات الرياضية للتواصل أو في نظرية الآلات المتحركة البسيطة».

عادية جدا من نوع : «كيف حالكم ؟ ـ جيد، شكرا» التي لا تنتمي في الحقيقة إلى مجال التواصل. إن لعاب كلب بافلوف و«الاستجابة» التي يقدّمها فأر لمنبه أو حافز يفرضه أحد المجربين، ليس بينهما وبين ظاهرة من الظواهر اللسانية أي جامع. وهذه الوضعية في تضخمها تذكّر بتلك التي سادت في نهاية القرن التاسع عشر تحت اسم «العضوانية» (Organicisme). وهي بطريقة غير واعية بلا شك تزكي مشروع اللاأنسنة (déshumanisation) الذي يشهده عالمنا منذ بضع عشرات السنين. فكما أن المجتمعات لا يمكن أن تحددها قوانين الاقتصاد العمياء، كذلك الألسنة لا يمكن مقارنتها بآلية الأوضاع المتعارضة أو المتكاملة. فاللسان، كما استشعر ذلك همبولد وبيَّنه مفكرون ونحاة مختلفون جدا أمثال كاسيرر وسايير وماييه وفرديناد برينو، هو قبل كل شيء نظام فكري. وربما ذهب بعض اللسانيين الواقعين بشكل قوي تحت تأثير الموضة والميل السقيم إلى التعقيد أكثر من وقوعهم تحت تأثير ضرورات الواقع المعيش، إلى مقارنة الألسنة الحية ببعض مسائل المنطق الرياضي التي لا يمكن أن نجد لها حلولا إلا باستعمال الحواسيب[18]، وبذلك يتحول دور الفرد إلى مجرد ضاغط على زر. لا شك في أن هناك حالات من الشذوذ والحشو وتعدد المعاني تشوب النظريات التي تقترح علينا، ولا شك في أنه يلاحظ وجود ثغرات مفتوحة في النظام يستحيل سدها. لا يهم ! فالشواذ مهما كثرت تؤكد القاعدة، وهلاك مستعمرات خير من هلاك مبدإ[أ]! لو كان موليير حيا في أيامنا هذه لجعل من بعض اللسانيين موضوعا لمسرحياته.

على اللسانيات إذن كما يقول ماريو فاندروسكا، في عبارة جيدة، أن تسترد «وجهها الإنساني». إن كل شخص بإمكانه أن يلاحظ أن هناك قضايا عديدة في علومنا اللسانية ما تزال في حاجة إلى جواب. ومما يؤسف له أن يكون هنالك رجال للتربية يريدون في سذاجة (ممزوجة بسوء نية أحيانا) إصلاح الدراسات الخاصة باللغة الفرنسية على أساس «الاكتشافات» اللسانية البنيوية. فأية إصلاحات ؟ وأية لسانيات ؟ وأية بنية ؟ ليس أمامنا إلا عائق الاختيار. صحيح أنه لو كانت لنا الرغبة التي عبر عنها بوضوح بعض المعتوهين في «إحراق المدرسة»، لكان الاختيار سهلا.

*

(18) من الواضح أنني لا أتهم الحواسيب مطلقا، ولكن الخطأ هو في سوء استعمال هذه الحواسيب.

(أ) عبارة مشهورة لروسبيير قالها في سياق الحديث عن تحرير العبيد. (انظر قاموس بوتي روبير) (المترجم).

إن الصعوبات التي يلاقيها البنيويون الحقيقيون ـ في الصوت وخاصة في التركيب ـ الذين تنبيء خلافاتهم الكثيرة عن الشكوك الواقعين فيها (كم من نظريات قد تم رَتْقها أو إهمالها بسرعة في النحو التوزيعي والتوليدي !) تظهر بشكل لا يمكن التغلب عليه في مجال المفردات. وإذا كان هنالك بعض المنظرين في اللسانيات لا يريدون الحديث عن المعجم(19) أو لا يذكرونه إلا بإشارات مبهمة، فهو واقع يدل على الفشل الذي وصل إليه أولئك الذين يتناولون بأكثر ما يمكن من الوضوح أو الشجاعة مشكلة الدلالة. فهذا جورج مونان رغم تفاؤله الطيب، نجده ينهي كتابه الأخير المسمى **مفاتيح علم الدلالة** بالاعتراف بـ «أن لا أحد يبدو أنه عرف كيف يتوصل إلى التنظيم الحقيقي لطبيعة الأمور الدلالية»، وهو ما لم يمنع مؤلفنا من أن يؤكد أن علم الدلالة على أهبة أن يولد(20) ولا أحد يعرف كيف سيكون ذلك، كما أن المرء لا يكف عن الإعجاب بعناد أولئك الباحثين الذين يصرون رغم ما تكذبه التجربة على المضي في طريق مسدود. سيكون علينا أن نسلم بحقيقة أن المفردات لا يمكن بنيتها إلا بمعايير من خارج اللسانيات. وليست الأعمال الجيدة التي باءت بالفشل ولا المؤلفات، التي تكتسي فيها الرطانة العلمية المزعومة لباس المسلمات البديهية أو لباس الأحكام الخاطئة بقادرة على إخفاء هذه الحقيقة. وسواء أردنا أم لم نرد، فإن مفاتيح علم الدلالة هي ذات طبيعة اجتماعية ونفسية. إن وضعية البنيويين الذين يريدون بكل ثمن ربط المفردات بالتركيب تشبه وضعية الأطباء الذين قد يرفضون كل استقلال للتحليل النفسي، أو وضعية علماء النفس الذين قد ينازعون في شرعية الأبحاث الخاصة بعلم النفس الاجتماعي.

على أنه من المناسب الإشارة هنا إلى أعمال اللسانيين والمنطقيين الذي أجهدوا أنفسهم خلال السنوات الأخيرة في تحديد مفهوم «المعنى». فإذا كانوا قد نجحوا في الاهتمام جزئيا ببعض الظواهر الدلالية التي لها انعكاس على التركيب، فإن دراستهم ظلت مع ذلك واقفة عند مرحلة أولية ؛ ومن السابق لأوانه الادعاء بأن المشكل في

---

(19) نكتفي بمثال واحد وهو أن كتاب جاكبسون المسمى «**بحوث في اللسانيات العامة**» (Essais de linguistique générale) لايحتوي على أي فصل خاص بالمفردات.

(20) يؤكد تشومسكي في قليل من التفاؤل أن «دراسة الدلالة التي هي ضرورية بكل تأكيد لبحث بنية اللغة بشكل تام، لم تتقدم منذ العصر الوسيط» (**اللغة والفكر**، باريس، ط. 1968).

مجموعه سوف يحل بشكل يناسب المحاولات التي قاموا بها(21). أما الأعمال التي تم إنجازها في عدد من الفنون العلمية غير اللسانية، فهي وإن تطرقت باستمرار ـ كعلم التوجيه وكالتحليل النفسي ـ إلى القضايا التواصلية، فيمكن أن يقال عنها إنها أسهمت في وضع الأسئلة المتعلقة بالمفردات أكثر من إسهامها في توضيحها وحلها(22). ثم إن التقنيات القائمة على استعمال الحواسيب قد أظهرت هي بدورها الحاجة المستعجلة إلى نظام دلالي قوي، لا من أجل غايات نظرية فقط ولكن أيضا من أجل عدد من التطبيقات العملية؛ وإلا فكيف يمكن أن نغذي ذاكرة حاسوب موجود في مستشفى أو في مكتبة أو في مختبر يتم فيه تحضير قاموس لغوي ؟ إن تطوير الحواسيب ـ التي تعمل انطلاقا من معطيات دلالية أعدت بطريقة تجريبية ـ يجعل من الإعداد العلمي التام للمتن اللغوي، القائم على مفهوم الحقل كما يقترحه الدلاليون الذين أشرت إليهم سابقا، أمرا ضروريا(23).

ومنهج المعجمية كتاب سابق لأوانه من بعض النواحي : فقد ظهر في وقت كان يبدو فيه المذهب السلوكي وقد حقق انتصارا في العلوم الاجتماعية للبلاد الأنجلوسكسونية، وكانت اللسانيات الفرنسية ما تزال مرتبطة بوجهة النظر التاريخية

(21) منذ الجدل الذي قام في العصر الوسيط بين الواقعيين وأصحاب المذهب الاسمي، ومشكل المعنى يريق كثيرا من المداد. وكما يقول جون لاينز في (**اللسانيات العامة**، ط. لاروس، ص 309) : «هناك المعنى والدلالة، والمعنى العاطفي والإدراكي، والمعنى الإنجازي والوصفي، والمعنى والمرجع، والدلالة بالتعيين والدلالة بالتضمن، والأدلة والعلامات، والتوسع والمفهوم، والتضمين والتضمن.. إلخ».

(22) من المناسب أن نسجل بشكل خاص المعلومات الثمينة التي تقدمها لنا نظريات التواصل. فاللسان مثله مثل علامات الطريق ومثل الحركات أو مظاهر الموضة، يعمل وكأنه نسق دلالي أي بمثابة نظام رمزي يبعثه مرسل معين ويفك رموزه مستقبل معين. إن الرسالة إذن تفسر بشكل جيد أو بشكل غير جيد. إذ يمكن بالفعل أن يتدخل تشويش أو تشويه في حالة ما إذا كان هناك مخاطب لا يعرف جيدا لغة الرسالة (حالة أجنبي أو شخص ذي ثقافة بسيطة..).

(23) إن مشكل المعنى مرتبط بمشكلة التعريف. فمن المعلوم أن بعض مؤلفي القواميس قد يرغبون في حذف التعريف القاموسي والاستغناء عنه بالأمثلة بصفة خاصة. مع التذكير بأن للتعريف ثلاثة أنواع : التعريف العقلي الذي يقدم قدر المستطاع خلاصة المعاني المختلفة، والتعريف السياقي الناتج عن البحث في السياق وهو يكمل الأول لأن الكلمة في لسان من الألسنة لا تكون أبدا معزولة (إلا في مواد القاموس) ولأن معناها يكون دائما حصيلة لوضع معين. ثم التعريف الإشاري الذي يقوم على تعريف الشيء بالإشارة إليه (وهو الإجراء الذي تتخذه القواميس المصورة). وينبغي أن يضاف إلى هذه الثلاثة الأشياءُ المساعدة على التعريف من خارج اللغة : كالحركة، والتنغيم... وهلم جرا. وكما نرى فإن التعريف لا يكون تاما أبدا. وحتى داخل نظام لغوي معين يكون دائما في حاجة إلى أن يفسر، ولكن الانتماء إلى حقل دلالي محدد (فالكلمة توجد بشكل ما «مؤطرة» بكلمات أخرى تحدد معانيها بشكل صارم) يبعد عمليا كل خطإ ممكن.

والمقارنة، وكان كتاب سوسير مجهولا في التعليم الرسمي. فكان ظهور الكتاب بمثابة وقفة ضد التيار. وفعلا، لقد نادى خلافا للمذهب السلوكي بأسبقية المعنى واقترح في الوقت نفسه بنية تزامنية للمفردات غريبة عن التصورات اللسانية السائدة إذ ذاك. ولقد قام كتاب **منهج المعجمية** على أسس منهجية لم تكن قد تأكدت بعد (فالمؤلف لم يكن قد اكتشف إلا مؤخرا عمل تريير (Trier) وكتاب **قضايا اللسانيات ومناهجها** لـ (فُون فَرْتبورغ)، فكان لذلك يعتبر نفسه كتابا لتقعيد المعطيات التي يقدمها الواقع اللساني الملموس أكثر من كونه كتابا ناتجا عن التأملات التجريدية: إذ كان بالفعل يتوفر على مادة معجمية مهمة زودته بها الأطروحة التي تم إعدادها بعنوان **المفردات والمجتمع في عهد لوي فيليب**؛ فهذا الكتاب الأخير، الذي استوحى الآراء الاجتماعية لماييه وتبنى أيضا التصورات الجشطالطية وموقف سوسير من التزامنية، كان يشتمل مسبقا على بذور الأفكار التي تم التعبير عنها في الكتاب الذي سنقرأه. **ومنهج المعجمية**، على نقيض العديد من الدراسات اللسانية المعاصرة التي تنطلق مما هو سابق للتجربة لتجهد نفسها بعد ذلك في إثباته وتبريره، يعتبر نفسه ـ ولنكرر ذلك ـ بمثابة نوع من الترميز الذي يصطبغ بصبغة إجرائية. وهذا الأمر، رغم ما فيه من عيوب، له ميزة خاصة وهي أنه قابل للتطبيق بشكل فعال في كل ناحية من نواحي المعجم وليس محدودا بمجال «يحظى بامتياز خاص» تبدو فيه بعض الآراء التجريدية المتعبة للذهن حول المفردات وقد بدأت خطواتها الأولى (وهي بداية لا تعد شيئا كبيرا في نظري) في البحث والتمحيص. إن اللسانيات البنيوية ـ وهي علم يتصدر الموضة ـ قد أصبحت علما مملا، وخاصة علم الدلالة. ولا حد لوصف الانزعاج الممزوج بالغضب الذي يتملك القارىء لأعمال يتم فيها بحث وضعية التَّيس والعَنْزَة (= le bouc et la chèvre)[ب] ووضعية أخ الزوجة (= le beau-frère) وأخت الزوج (= la belle-sœur)[ج] بجدية تامة في قوائم من «الخصائص المميزة»

(ب) كلمة (chèvre) الفرنسية تطلق على (العَنَز) ذكرا كان أم أنثى، أو على الأنثى منه خاصة في مقابل (التيس)، أو على الأنثى الكبيرة مقابل (عُنَيْزة Chevreau) (المترجم).

(ج) تطلق كلمة (beau-frère) في الفرنسية على زوج الأخت أو أخ الزوجة أو أخ الزوج. وتطلق كلمة (belle-sœur) على زوجة الأخ أو أخت الزوج أو أخت الزوجة (م).

تمثلها التقسيمات (les plottings) والجمل الحاضنة (matrices) التي تعمل على استعادة بنية المعنى في كل وحدة دالة[24].

وينبغي القول بأن أصحاب هذه البحوث، وهم يتركونها ـ مع شيء قد لا يخلو من ندم ـ ويتخلون فيما يبدو شيئا فشيئا عن التصورات السلوكية لبلومفيلد ومدرسته متفهمين بأنه من الحمق وضع المعنى بين قوسين، يطالبون بوضع مجموعة بنيات متسلسلة تسمح لهم إذا ما تخلصوا من تأثير المثال الذي يقدمه كل من الصوت والتركيب وتخلصوا كذلك من تصور مفهوم البنية المفرط في التصلب، بالرجوع إلى الحقول المفهومية التي كان رفضها في غيبة عن أي منهج فعال سواه، من قبيل الخطإ.

إن كل ما جاءت به أعمَال الدلالة البنيوية هو بالأساس عبارة عن مجموعة من مفردات جديدة يَتلمَّظُ بها كل مؤلف وهو ينكر كل الإنكار ما عند جاره من مصطلحات جديدة. وهذه المصطلحات يمكن أن تكون خادعة لأنها بمظهرها التقني تبدو وكأنها تضمن للعلم الذي تنتمي إليه وضعية علمية قوية[25]، ولكن الخدعة لا

---

(24) لقد بلغ الأمر إلى درجة أن النقاش قد احتد حول «لا مقبولية» بعض الجمل مثل : (Jhon boit du saucisson = جون يشرب السُّجُق)، متسائلين عما إذا كانت هذه اللامقبولية قائمة على معايير دلالية !
أما التحليل إلى الوحدات الدلالية (l'analyse componentielle) فإن اللسانيين الذين أشرنا إليهم يبرزونه عن طريق جداول لا تظهر فائدتها بشكل واضح. وهذا مثال ذلك :
1) (homme - femme - enfant = رجل ـ امراة ـ طفل)
2) (taureau - vache - veau = ثور ـ بقرة ـ عجل)
3) (coq - poule - poulet = ديك ـ دجاجة ـ فرخ دجاجة)
4) (canard - cane - caneton = بط ـ بطة ـ فرخ بط)
... ... إلخ
وسنلاحظ دون أن نمتنع عن الضحك بأن لا وجود في اللائحة لكل من (bœuf = بقرة، ثور) و(chapon = مسمّن : وهو ديك صغير مخصي يُرَبَّى للأكل). فلماذا ؟ بكل بساطة لأن وجود هذين اللفظين يفسد النظام الذي وضعه من قبل لساني يفضل أن يفكر بطريقة تجريدية عوض أن يلاحظ الواقع اللغوي، بكل بساطة.

(25) وكما يقول جاكبسون فـ «إن المصطلحات الجديدة غالبا ما تكون مرضا طفوليا لعلم جديد»، ويختم جاكبسون قائلا إنه من الممكن دائما «حتى حين معالجة قضايا جديدة تمام الجدة، الاستغناء عن الألفاظ الجديدة». (بحوث في اللسانيات العامة. ص 31). فعلى أنصار اللسانيات المجهرية (Microlinguistique) وما وراء اللغة أن يتأملوا جيدا هذه الفكرة.

تطول بالنسبة لأولئك الذين يوثرون استعمال النظارات على استعمال كامات النظر، ولغة مايبه وسارتر على ألفاظ جماعة (طيل كيل) (Tel Quel)[د].

وهاك مثالا جيدا على هذا الاستعمال الاحتيالي للمصطلح تقدمه لنا التسميات العلمية الزائفة الدالة على ذلك الشيء الذي ما يزال رجل الشارع وكذلك اللسانيون الذين لم تضطرب عقولهم بعد، يسمونه **الكلمة**.

فمن المسلم به أن مفهوم الكلمة ليس واضحا. وسيلاحظ قراء **منهج المعجمية** أنه موضوع في هذا الكتاب موضع تحفظات جادة، ولكنه مع ذلك مفهوم سهل. ولم تكن هنالك برأيي حاجة إلى تقسيم الوحدة المعجمية التي تقوم عليها القواميس إلى مصطلحات : الوحدات الدلالية المفردة (Sémes) والوحدات الدلالية المركبة (Séménes) والوحدات الدالة على الماهية (Sémantèmes) و(الخصائص المميزة) و(أشكال المحتوى) و(الخصائص الملائمة) وغيرها[26] من المصطلحات التي تختلف باختلاف المؤلفين.

فالكلمة من غير أن يتم استبعادها، تتكاثر وتتوالد تحت قناع هذه التسميات الجديدة. فهي تركب في جملة فتسمى المونيم (monème) أو المورفيم (Morphème) بحسب المدارس. ويقع التمييز أيضا بين الوحدة المعجمية (Lexème) والوحدة النحوية (grammème) : فيدل الأول أساسا على المعنى الذي يلتصق بالجذر المعجمي للكلمة (مثل : amour = حب ـ aimer = أحب...) ويدل الثاني بخاصة على المورفيمات النحوية (مثل (ons) الدال على جماعة المتكلمين كقولنا Partirons = سنخرج ـ aimons = نحب... الخ). لقد قام علماء الدلالة بتدقيق هذه الأمور وألصقوا بهذه اللافتات الشكلية دلالات تعيد من السلم الخلفي إدخال الثنائية القديمة في البلاغة

(26) في مصطلح بوتييه (B. Pottier) تدل (الوحدات الدلالية المفردة) (Sèmes) على الخصائص الدلالية المميزة للوحدة المعجمية (Lexème)، ومجموع الوحدات الدلالية المفردة يسمى (الوحدة الدلالية المركبة Sémèmes). والوحدة المعجمية الشاملة (archilexème) هي المجموع الفرعي للوحدات الدلالية المركبة. والأصناف الدلالية العامة جدا التي توحي بها بعض الأعمال التوزيعية تسمى (الوحدات الدالة على الصنف classèmes). وهناك مؤلفون آخرون يميزون أيضا بين الوحدات الدلالية النووية (Sèmes nucléaires) التي تعبر عن نواة محتوى الوحدة المعجمية (Lexème) وبين الوحدات الدلالية السياقية (Sèmes contextuels) التي يمكن أن نعتبرها بمثابة وحدات دالة على الصنف (classèmes)

(د) مجلة ثقافية فرنسية مشهورة.

المبتذلة أي ثنائية الشكل والعمق. وهكذا فإن (السيميم : Sémème)) على المستوى الدلالي هو المقابل لـ (المورفيم) على المستوى الصرفي.

إن هذا التحليل «السيمي» (يمكن أن نسميه تسمية أخرى) يبدو وكأنه يترجم الشعور بالغيرة ــ إن لم نقل بالكبت ــ الذي نشأ عند كثير من علماء الدلالة تجاه علماء الصوتيات، فتراهم يبذلون قصارى جهدهم لنقل مناهجهم. ولكن التحليل إلى الخصائص المميزة الذي استعمله الصوتيون بنجاح لأنهم كانوا يشتغلون انطلاقا من متن محدد ومغلق، يظهر أنه غير مجد وغير عملي في الدراسة المعجمية ذات المعطيات غير المحددة والمعقدة (اختلافات مستويات اللسان، تأثير الأفعال الأسلوبية... الخ) التي تتطلب تحليلا أكثر دقة من التحليل المطبق في الصوتيات مثلا. فلا يمكن أن نطبق مبادىء الحسابيات البسيطة على حساب الاحتمالات. إن مسلك الكلمة ليس هو مسلك الفونيم : فإذا كانت الكلمة تشبه الفونيم في عملها مع قيمة تمييزية، فإن هذه القيمة مرتبطة ارتباطا تاما بمحتوى دلالي ليست له إلا علاقة بعيدة جدا بالظواهر الإصغائية. ولقد أخطأت اللسانيات الحديثة حين اعتبرت أن اللسان بحكم مظهره الشمولي كان عليه أن يصطنع منهجا واحدا به تتم دراسة كل الجوانب.

وهناك خطأ آخر عند بعض البنيويين ناتج عن خلط غير مقبول منذ سوسير بين اللسان والكلام. وهكذا نجد أن مصطلح **مفردات** يحيلنا على قائمة (تقدم لنا القواميس عنها كلاما فقيرا جدا، وترتب ترتيبا ألفبائيا) تنتمي إلى مجال اللسان، بينما نجد أن دراسة المعجم عند عدد من اللسانيين المعاصرين المنتمين للمدرسة البنيوية، تقوم على أساس السياق أي على أساس التأليف بين الكلمات المدروسة على مستوى الجملة. وهو موقف لا يمكن الدفاع عنه لأنه حين يلجأ إلى حل الكلمات إلى عدد من المعاني اللامتناهية يحرم نفسه عمليا من كل وسيلة لدراستها[27]. فهل يمكن أن

(27) حول فائدة التعريفات، اقرأ ج. ماطوري : «**تاريخ القواميس الفرنسية**»، ص. 227-399. إن الفائدة النظرية الظاهرة للسان، لا تقتضي أن هذا الأخير قد تمت دراسته بشكل منظم. ففي لسان معروف جدا مثل الفرنسية نجد أن الصيغ الأدبية هي وحدها التي كانت موضوع دراسات مهمة، أما المؤلفات المخصصة للغة الشائعة واللغة العامية والأرغات، فهي قليلة وبصفة عامة غير كافية. كما أننا نجهل عدد الكلمات التي يمتلكها الأمي ونصف المتعلم والطالب الجامعي، وكذلك فإن القواميس التي تسيطر عليها اللغة الأدبية لا تخصص عمليا أي حيز للغة المتكلمة وتلك وضعية غريبة إذا علمنا أن رواد ما يسمى بـ«البيداغوجية الحديثة» للفرنسية يبنون موقفهم على أساس تفوق اللغة الشفوية.

تكون الكلمة أجنبية عن الكلام ؟ بالتأكيد، لا. فأنا نفسي خصصت في **منهج المعجمية** حيزا كبيرا جدا للخاصية الاجتماعية للمفردات. واليوم أعتقد أن تحديد البنية التسلسلية لمفردات كاتب، له ما يبرره تماما (فقد أصبحت المعجمية إذن مساعدة للأسلوبية)، ولكن من الواضح أن هذه البنية لا يمكن إقامتها بمقتضى الإحصائيات القائمة على نسبة التردد (وهو عمل ليس علميا كما كنت قد لاحظت ذلك منذ 1953 إلا من حيث المظهر)، كما لا يمكن أن تتحقق انطلاقا من ظاهرة الجملة.

* *

هل هذا يعني أن معجمية الحقول لا يمكن تعديلها أو تطويرها وربما خلخلتها بما قد تم التوصل إليه من اكتشافات متأخرة عن مرحلة ميلادها ؟ إن كل نظرية وكل منهج يوافقان حين ظهورهما ـــ مثل بقية أفعال الإنسان كلها ـ الوضع الذي يكون عليه العلم أي الوضع الذي يكون عليه المجتمع. وذلك ما ينطبق أيضا على علمنا هذا الذي لم يتجاوز بكل تأكيد مرحلة شبابه بعد. ثم إن العلاج ينبغي ألا يقتل المريض (إذا جاز اعتبار الشباب مرضا)، وكذلك ينبغي البحث عن معالجة ملائمة، في شكل «مقويات» مثلا.

وهذا هو الموقف الذي اتخذه إميل كوزيران (E. Coserin) الذي يرى أن نظرية الحقول المفهومية ينبغي أن تكتمل بالمذهب الوظيفي للتقابلات اللسانية الذي يستأثر باهتمام الصوت والنحو البنيويين. ولسنا ندرك جيدا ما هذه الفائدة التي يمكن الحصول عليها من وراء تدعيم الدراسات المعجمية بعلمين لا علاقة لهما بالمعجمية رغم انتمائهما أيضا إلى اللسانيات؟ إن مؤلفنا هذا الذي يمتاز غالبا بتحليله المرموق يظل مع ذلك متشككا في النتائج التي سوف يُتوصل إليها، فيقول : إن قياس الحقول المعجمية المعقدة على أنواع التقابلات الصوتية مسألة صعبة. ولكن ما هي الحقول المعجمية التي تخلو من التعقيد ؟ هل هي ألفاظ الألوان ؟ هل في الأسماء الدالة على نظام القرابة ؟ نعم. بشرط أن تعزل هذه الكلمات عن النظام الذي يفسرها أي أن تحرم من كل معنى. وإذا كان هناك عدد كبير من ألفاظ الألوان ذات الأصل الجرماني قد عوض في اللغات الغالية ـ الرومانية الكلمات اللاتينية المقابلة لها، فذلك لأن الجرمانيين قد فرضوا خلال القرنين الرابع والخامس نظرة جديدة للعالم ظهرت آثارها أيضا في حقول أخرى بعيدة ظاهريا عن عالم اللون. فليس الأمر أمر

تقريب البنفسجي إلى الأزرق ومقابلته بالأصفر، ولكنه أمر يتعلق بتوضيح لماذا يكون هذا اللون عند كاتب مثل بروست[28] لونا مشؤوما ولماذا يعتبر في بعض الأوساط لونا خاصا بنصيف الحداد(هـ)؟.

هناك لسانيون آخرون أكثر نزوعا إلى التشاؤم أيضا. فهلمسليف مثله مثل بلومفيلد[29] يعتقد أن الوصف البنيوي للمفردات أمر غير ممكن، ويختم بالقول إن «المعجمية تظل خانة فارغة في نظامية علمنا [اللسانيات]، وبأنها بالضرورة ليست سوى تأليف قاموسي أو مجرد سرد لعدد غير ثابت وغير مؤكد من الكميات المحددة بشكل سيء، يُسند إليها خليط مبهم من الاستعمالات المختلفة والاعتباطية في الظاهر»[30]. لكن أليس الحل الأفضل إذن هو في الرجوع إلى معجمية الحقول حتى ولو بدا من الصعب تطويرها في الظروف الراهنة ؟ ذلك هو ما يعتقده هلمسليف الذي تمنى وجود علم دلالة لا يكتفي بوصف العناصر التي يبرزها التحليل ولكن يستعين بتصنيفات واسعة وذات طبيعة تفسيرية : فدلالة الكلمة تظل ــ كما يقول ــ موضوعا أساسيا في علم الدلالة (...) وهكذا إذا نحن رتبنا مستويات الدلائل على هذا النحو مع اعتبار المستويات الدلالية، توصلنا إلى «معجمية» شبيهة مبدئيا بتلك التي اقترحها جورج ماطوري أي «علم اجتماعي يستخدم المواد اللغوية التي هي

(28) ج. ماطوري : «**حول مفردات الألوان**»، في : حوليات جامعة باريس 1953.

(29) بلومفيد نفسه يلاحظ أن المعجم على عكس النحو هو مجال للشذوذ، الشيء الذي لم يمنعه من أن يزعم بأنه «في الحقيقة ذيل ملحق بالنحو، ولائحة بالشواذ الأساسية». وما يؤسف له هنا هو قوة الحكم المسبق عند الأشخاص رغم كونهم من المرموقين. إن القارىء الخالي الذهن سيلاحظ وهو يقرأ مؤلفات بعض اللسانيين أن هؤلاء «يحقدون» على النظام المعجمي حقدا تاما لكونه لا يتكيف مع نظرياتهم، وينبغي أن نرى في هذا أيضا تشبثا عنيدا ببعض أفكار سوسير القابلة للنقاش. فقد أذاع هذا الأخير الرأي الذي يقول إن «الفعل المعجمي من حيث الوظيفة يمكن أن يلتبس بالفعل التركيبي» (محاضرات في علم اللغة العام. ط 5 الفصل 7)، ويعطي مثالا على ذلك التركيب الآتي وهو : (en considération de = باعتبار أن..) الذي هو أساسا تركيب معجمي، لأن كلمة (considération) تستعمل فيه بمعناها الخاص كما يقول. وهذا رأي خطأ لأن «الفعل المعجمي» تحديدا لا يمكن أن يدرس الا خارج التركيب. وفي رأيي أن عبارة (en considération de) ليست (كلمة) بمعناها التام، فلا تنتمي إلى المجال المعجمي. بينما (considération) وحدها يمكن أن تظهر في بعض العصور ضمن الحقل المفهومي لـ (الأدب) .(La politesse).

(30) «**نحو دلالة بنيوية**». نقلا عن (ألان ري) في «**المعجمية**»، ص. 76.

(هـ) وهو الحداد الذي يكون أخف من الحداد الأكبر ويأتي بعده، أو هو حداد غير المقربين جدا من المتوفى. والألوان الدالة عليه هي : الأسود، الأبيض، الرمادي، البنفسجي، الخبازي. (م).

الكلمة»[31]. و«بإيجاد الكلمات المفاتيح الخاصة بالمجتمع في فترة معينة، وباستخراج الشبكة الوظيفية الخاصة بالكلمات الثانوية المتعلقة بهذا المجتمع وسلمية التسلسل الذي يحدد هذه الشبكة، يصبح علم الدلالة الذي وقع تصوره على هذا النحو نتيجة ملازمة للتاريخ والإناسة الاجتماعية بصفة عامة وأبرز شيء فيهما»[32]. إن الأمر لا يتعلق بلوائح توضع بكيفية مستقلة ليقابل فيها بين (الكلب) و(الكلبة) و(الجرو)، ولكنه يتعلق ـ كما يوضح هلمسليف ـ بملاحظة أن الكلب هو ـ حسب المجتمعات ـ حيوان مفيد، ومخلص، ومحتقر... وهلم جرا. هذا مع القيام ـ ولنضف ذلك ـ برسم الكلب في مجموعة من «الحقول» مثل : كلب الصيد، وكلب المنزل، وكلب الممنوعات... الخ. ومفهوم أننا لو تبنينا الفرق الذي أقامه هلمسليف[33] بين «الرتب المغلقة» المشتملة على الكلمات ـ الأدوات (Les mots-outils) والزوائد واللواحق... الخ و«الرتب المفتوحة» المشتملة أساسا على الأسماء والأفعال والصفات، لكان ذلك من أجل وضع الصنف الأول خارج الدراسة المعجمية وحصر دراستنا في الفئة الثانية.

ولنكرر القول بأن المعجمية هي علم مستقل، وبأن من يريد إدماجها بأي وجه ودون اعتبار خاصيتها، في مجموع الظواهر اللسانية (الصوت والنحو باعتبارهما مفضلين) لهو كمن يريد تقليد التلميذ البيطري الذي قد يدرس فَسْلَجة الحصان بالاقتصار على المعلومات التي يزوده بها كتاب في تعليم ركوب الخيل أو على وَصَفات تقطيع اللحم التي يقدمها جزار الخيول إلى المتعلمين عنده. إن الذي يؤكد السمة المتميزة للمعجمية هو خاصية التحرك القوي للمفردات في مقابل السكونية النسبية للتركيب والصوت. فإذا كان الشيخ الطاعن في السن الذي ولد قبل نهاية القرن التاسع عشر لا يجد ما يختلف فيه مع النظام الصوتي للفرنسية المعاصرة، فإنه يمكن بسهولة اكتشاف التأخر والتردد اللذين يجدهما في تبني الألفاظ المستحدثة (التقنيات، كلمات الموضة... الخ) التي لا يجد الشباب في التعامل معها أية صعوبة. وإذا تأملنا هذه الكمية الهائلة من الكلمات (من كلمة téléphone = هاتف، إلى كلمة: hippy = خُنْفُس) التي دخلت منذ 1900 إلى مفردات الفرنسية المتوسطة.

---

(31) نفسه. والنص الذي ينقله هلمسليف عني مأخوذ من «**منهج المعجمية**».

(32) نفسه.

(33) نفسه.

وتأملنا أيضا التغيرات التي أصابت هذه الكلمات (T.S.F)(و) التي حلت محلها كلمة Radio = مذياع... الخ) لن نملك إلا أن نتفق مع جابر غ (Jaberg)[34] حين يعترض على رأي سوسير الذي يقول إن «موضوع اللسانيات الحقيقي والوحيد هو اللسان في ذاته ومن أجل ذاته». إن اللسانيات (وليس علم الدلالة وحده بل أيضا النحو والصوت) ترتكز جيدا على دراسة الصيغ، ولكن هذه الصيغ لها دلالة. وسيكون من باب الاختصار لموضوعها في جانب واحد أن لا ننطلق في شرح هذه الصيغ من الروح التي تكونها متجاهلين مستويات اللسان ومراتب السن[35]... الخ. والجرينبرغ (Greenberg) الحق أيضا حين يؤكد أن «اللساني لا يمكنه أن يضع المعاني إلا بمراعاة الجوانب غير اللغوية للثقافة»[36]. إن البنيويين المتزمتين يرفضون بعناد قبول هذا الرأي الذي يوجهه العقل والتجربة، ويستمرون (بشكل أقل مما كانوا عليه من قبل) في إلصاق نعت «الذهنيين» (mentalistes) الذي يدل على معنى قدحي في نظرهم، بأولئك الذين يمتنعون عن اعتبار اللغة مجموعة من حالات التقارب والتعارض المؤلفة بشكل آلي، من نوع : (ثور ــ بقرة ــ عجل) أو (أخ الزوجة ــ أخت الزوج) التي يقدمها لنا بعض اللسانيين المصابين بداء العمى مع متغيرات عديدة، على أنها مفتاح الدراسات الدلالية. وهذا الاتهام بـ «الذهنية» يشرفنا ولا يزعجنا : فهو تحية غير مقصودة إلى أولئك الذين يعتبرون قبل كل شيء أن اللغة هي ظاهرة تواصلية، ويعملون جاهدين على أن تنفتح دراسة الدلائل على دراسة المفهوم. نحن نمتنع عن اعتبار علم الدلالة **في جوهره علما لغويا** اللهم في حالة ما إذا اعتبر مجال عمله هو مجال علم السيمياء الذي مازال رغم المحاولات المهمة لم يتحدد بعد بكيفية تامة... إن اللغة (والمفردات بشكل أدق) بالنسبة لمعجمية الحقول، لا تعبر عن الفكر فقط ولكنها هي العامل الأساسي في تكوينه. لقد عابوا على المعجمية أنها تنطلق من التصور أي من عنصر غير لساني، وزعموا أنها كانت دراسة ميتافيزيقية وغير علمية. وقبل كل شيء ينبغي أن نتفق على تعريف التصور. إنه من المقبول جدا أن نعتقد مثل

(34) «**المظاهر الجغرافية للغة**» (Aspects géographiques du langage)، ص. 27.
(35) تصنيف الأفعال المعجمية انطلاقا من فكرة «الجيل» يسمح بوضع هذه العوامل في الاعتبار.
(36) نقلا عن : ألان ري، في «**المعجمية**»، ص. 176.

(و) اختصار لعبارة (Télégraphie sans fil) التي كانت تطلق في بداية القرن التاسع عشر على المذياع وجهاز الاستقبال. (م).

ويسبرجر (Weisberger) بأن التصور ينتمي إلى مجال اللسان[37]، بل سأضيف أنه أكثر من ذلك يقوم فيها بدور أساسي. على أنه لم يعد هناك مجال ـ باستثناء بعض الأعمال الألمانية التي أصبحت اليوم متجاوزة ـ لاعتبار التصور أمرا تجريديا، بل ينبغي أن نرى فيه مظهرا ملموسا لتجربة تم تسجيلها في محضر وتجسيدها في كلمة. وحين قمت في ملحق بـ **منهجية المعجمية** بدراسة تصور (الفن) في 1765 والفترة الرومنطيقية، أو عندما درستُ في مكان آخر تصور الفضاء[38] في العالم المعاصر، لم يكن الأمر يتعلق باقتراح فكرة وهمية، ولكنه كان يتعلق بإقامة المعنى الذي تؤديه في حقبة معينة ومكان معين فكرة تجريبية حية يعتبر وجودها نفسه وظيفة للكلمة التي تدل عليها. فلنحاول إذن تحليل مفهومي **الفن والفضاء** باستعمال الأشكال التقعيدية الصبيانية التي اقترحها البنيويون المتصلبون[39]. فإذا كان هناك من يتوفر على حسن نية مثل هيلمسليف ولاينز ومونان، فسيلاحظ أن كثيرا من الدراسات المعجمياتية هي عبارة عن أعمال ناجحة. فلماذا لا نتابعها إذن، مع احتمال ـ ولنكرر ذلك ـ تطويرها ؟

البنيويون الحقيقيون هم نحن. نحن الذين نطبق بنيوية «متفتحة» تهتم بالنتائج أكثر من اهتمامها بمسلمات سوسيرية عبقرية حقا ولكن بعض الأمور المترتبة عنها قد أصبحت محل اعتراض أو متجاوزة. إن الصعوبات التي يجدها مفهوم البنية في كثير من العلوم تبين أن التحديد الصارم الذي اقترحه بعض المتخصصين في نظرية المعرفة لهذا المفهوم ليس تحديدا عمليا. فالأمر لا يقتضي إذن توحيد خط الدراسات حول إدراك ذهني مسبق، ولكن تغيير هذا الإدراك تبعا للحقائق اللسانية والذهنية معا التي تواجهنا. والخلاصة هي أن هناك بنيات مزدوجة (وربما كل البنيات كذلك) وأن الحقل الواحد يمكن أن يكون في الوقت ذاته **لسانيا ومفهوميا**. والبنيوية، سواء في المعجمية أم في غيرها، ينبغي أن تكون وراءها فائدة وإلا فقدت كل مبرر لوجودها.

---

(37) لا أحد يعترض على وجود الجملة. وتبرير وجود التصور ليس من الناحية اللغوية أقل إمكانية منه. إن علاقة التصور بالكلمة كعلاقة الجملة بالوحدات المكونة لها، مع فرق في كون عناصر الجملة ترتب ترتيبا خطيا وعناصر التصور تنتظم في شكل كوكبة مجتمعة. فالتصور يستقطب حوله الوجوه المحتملة لتأليف الكلمات التي يقوم الاختلاف فيها برسم وضعية الحقل.

(38) «l'espace humain» = (**الفضاء الإنساني**).

(39) كل الجهود التي بذلت لتفسير المفردات عن طريق الترادف والاشتراك اللفظي والتنافر غير قادرة على إجراء تصنيف جاد. وأما الصيغ ذات المظهر الرياضي التي يصطنعونها فلا تقنع أحدا سوى السذج من الناس.

إن الكلمة هي عبارة عن شكل تماما. ذلك أننا لا نعرف من العالم إلا الأشكال، ولكن هذه الأشكال هي المظاهر المحسوسة لروح تتجسد بدورها في شكل معين، وتلك هي حالة الكلمات المفاتيح التي يعتقد المعجميون أنهم يكشفون عن وجودها في المفردات. إن الفكر الأوروبي حوالي 1765 يبدو محكوما نوعا ما بمفهوم معين وهو «الفيلسوف»، ولكن هذا المفهوم قد اكتسب خاصيته من كلمة تجسدت هي نفسها خلال عصر **الأنوار** في أشخاص من لحم ودم. فليس هنا ميتافيزيقا ولا مذهب نفسي. لقد بدأ الفكر عند بعض البنيويين وكأنه ظاهرة مَرضية، وليس كذلك بالنسبة إلينا.

إن البنيوية التي تقوم على هذه المفاهيم الحية، ينبغي ـ كما سنقترح ذلك فيما بعد ـ أن تحدد الهيئة التي تكون عليها البنية التسلسلية. ففي القمة هناك **الكلمة ـ المفتاح**، وفي منطقة سفلى هناك **الكلمات الشاهدة** التي يقتضي الأمر بلا شك تحديد طبيعتها جيدا، وأسفل من ذلك أيضا هناك كتلة الكلمات التي ليس من خصائصها الشيوع بالتأكيد، ولكن يمكن أن تُبنْيَنَ تبعا لمعايير قائمة على ما أسميه بـ «الوزن الاجتماعي» (وليس كثرة الاستعمال أو الورود) للكلمات المدروسة. وهذا الإدراك الذهني لتسلسل العناصر الغريب عن النظام (والبعيد من هذه الناحية عن البنية) الذي يقترحه مؤلفو المتقابلات من نوع: (ديك ـ دجاجة ـ كتكوت) يبين أن البنيوية اللسانية التي تدعي أنها علم طليعي، توجد بشكل غير متبصر على هامش المسالك التي شرع العلمُ الحديثُ أبوابها. وكما يقول أرثور كاستلر، فإن «تسلسل العلاقات ابتداء من البنية الخاصة بمركبات الكاربون إلى توازن الأنواع، لربما ستكون هي الفكرة المهيمنة في المستقبل»[40]. إنه لمن الغريب أن نلاحظ أن بعض العاملين في العلوم اللسانية الذين ليس على أفواههم إلا كلمة «بنية»، قد وصلوا إلى تفتيت الأفعال اللغوية ونفي وجود أي تعلق وأي تسلسل، معتبرين أن المعطى المعجمي هو إما عبارة عن تراكم أو مجموع ضخم يُنظر إليه نظرة شمولية ولا يمكن أن يدرس إلا عن طريق دلالة عامة، وإما عبارة عن ذرات من **الأفعال** يتم إخضاعها، لفحص مجهري دقيق وعديم الفائدة. إن الحقيقة في هذا وذاك توجد بين طرفي نقيض: إنها خلاصة تركيبية.

* * *

(40) «**الحصان في القاطرة**» (Le cheval dans la locomotive, Paris, Calmann-Lévey, éd. 1971).

فما الذي ينبغي عمله بشكل ملموس؟ أعتقد ـ دون أن أكون قط سجين الأفكار التي عبرتُ عنها منذ عشرين سنة ـ أن الخطوة المقترحة في **منهج المعجمية** ما تزال بصفة مجملة خطوة صالحة، ولن تتغير إلا بدراسات يتم إنجازها انطلاقا من أفعال ووقائع، وليس بمحاولة إثبات آراء مُسْبقة حتى ولو كانت هذه الآراء قد استمدت ضمانتها من شخصيات بارزة. ومع ذلك سأقوم ـ مستسمحا ـ بتقديم عدد من التوضيحات حول الأفكار أو الأفعال التي تم تناولها بشكل مختصر نسبيا في الطبعة الأولى.

إن مفهوم **الحقل**، وهو مفهوم أساسي في المعجمية، يستحق، في انتظار دراسة أكثر شمولية مما أحاول القيام به، أن توضح ها هنا بعض جوانبه.

إن أحد الأصول التي ترجع إليها فكرة **الحقل** ينبغي البحث عنها في عمل سوسير. فنحن نعلم أن هذا الأخير قام بدراسة العلاقات النظمية والعلاقات الترابطية. والعلاقات الأولى لا تقبل الشك، إذ من المعلوم أن المركب (Syntagme) يتألف من وحدات متتابعة ومترابطة نحويا، مثل الحياة الإنسانية. فالعلاقات النظمية ترتبط بالسياق إذن. أما العلاقات الترابطية فهي على عكس ذلك تظهر بشكل ملتبس وغامض: إنها قائمة عند سوسير على فئتين متعارضتين: الأولى تقوم على ملاحظة وجود مجموعات تربط الكلمة بكلمات أخرى قريبة منها صرفيا، مثل (renseignement = إخبار، إرشاد) التي يمكن تقريبها من (renseigner = استخبر) ومن (rengainer = أعاد إلى الغمد) ومن (justement = تماما) باعتبار الجذر المعجمي أو السابقة واللاحقة. أما الثانية المتصلة بكيفية غريبة بالأولى التي لا تربطها بها أية قرابة، فهي قائمة على قرابة المدلولات: إذ يتعلق الأمر بمجموعات كوكبية ذات شكل مفهومي (وهي نفسها التي تهم المعجمية). وهكذا فإن سوسير يربط (enseignement = تعليم) و(éducation = تربية) و(apprentissage = تعلّم) إلخ... ربطا ذكيا ولكنه غير تام لأنه محصور عمليا في بعض المترادفات.

إذا حاولنا تحديد مختلف مستويات العلائق التي تقوم حول **الكلمة المعجمية**، فسيكون علينا التمييز أولا بين **الترابطات المتوقَّعة** الموجودة في كل لسان: تقاربات صرفية محدودة العدد تنشأ حول المضمون الدلالي للجذر (مثل: chant, chanter, chanteur = غناء، غنى، مغنٍّ..)، أو حول الفكرة التي يعبر عنها الجذر (مثل:

chant, musique, voix = غناء، موسيقى، صوت..). وهذه العلاقات تحدد بواسطة الكناية والمجاز.. إلخ. وبعض هذه التقاربات تكون مستقلة عن التاريخ وعن الوسط الاجتماعي الثقافي (في كل المجتمعات يكون الغناء صنفا موسيقيا ويتم بثه عن طريق الصوت)، ولكن أغلب هذه الترابطات تكون لها صلة بمجتمع معين : ولذلك تجدنا في العالم الغربي نضع في صف الكلمات التي تستقطبها كلمة (غناء): الأوبرا، واللحن، وسلم الأنغام... إلخ، بينما نجد مقابلات هذه الكلمات مجهولة وغير قابلة للترجمة في هذا المجتمع أو ذاك من المجتمعات القديمة بإفريقيا أو أُوقْيانْيا حيث نجد الغناء يظهر أساسا في شكل ممارسة طقوسية مرتبطة بالسحر، وطقوس المُسَارَّة(ز)... إلخ. والحد الفاصل بين الفئتين مع ذلك من الصعب وضعه. ولهذا (وقد بيَّنتُه في **منهج المعجمية**) لا يمكن اقتراح بنية معجمية إلا وهي مرتبطة بحقبة أو وسط ملموسين. وحتى بعض المجموعات التي تبدو ثابتة في الظاهر مثل الألوان أو ألفاظ القرابة، تخضع بعد سنوات إلى تغيرات مهمة في تصور أفراد المجتمع اللغوي: ذلك أن اللون لا يتغير ولكن الوعي به يتغير تحت تأثير جماليات الموضة.. إلخ).

هناك فئة ثانية تعطينا تقاربات لا يمكن توقعها في الجملة ولكن الدراسة الجادة لوضعية معجمية معينة تمكن من تبينها. لنعد إلى الجدول الذي يمثل الحقل المفهومي للفن والفنان حوالي 1827ــ1834 (انظر ص 184) لنرى هل كان أحد يستطيع أن يعرف قبل وجود دراسة تمهيدية أن كلمات مثل (galbe, orientalisme, grotesque = انحناءة متناسقة، استشراق، مثير للضحك) تظهر في البنية التي وقع تمثيلها ؟ ومن ذا الذي يستطيع أن يحدس أن كلمة (gilet = صُدْرة) لها دور مهم في الاهتمامات الملبسية للدَّانديين وفناني العصر ؟

وهناك فئة ثالثة من التأليفات، وهي تنتمي بصفة عامة إلى مجال الكلام وليس إلى مجال اللسان. ويُعزى وجودها إلى الترابطات التي تتكون في مستويات مختلفة من نفسية الفرد (وإذا حصل لها انسجام مع بعض الاتجاهات في الوسط الاجتماعي، أصبحت «أسلوبا عصريا»). ولعل في الأدب شواهد عديدة على هذه التقاربات، وسنقتصر على ذكر مثالين منها : ففي **السقوط** (la chute) لألبير كامو نجد أن

(ز) طقوس المُسَارَّة أو الدخول أو الانخراط : كانت تقام بمناسبة دخول الشبان الجدد في مجتمع الرجال أو إطلاع عضو جديد على بعض أسرار الديانات القديمة (المترجم).

موضوعات (الماء) و(الأفقية) (l'horizontalité) و(القضية أو الدعوى : Procès)، المعبر عنها بواسطة مفردات خاصة جدا، تأخذ أحيانا صيغة استحواذية، مترابطة بشكل دائم. ونجد مرة ثانية لعبة علاقاتٍ أخرى قريبة من ذلك في (**بحثا عن الزمن الضائع**) (recherche du temps perdu) حيث تُنسج علاقات عدة بين الكلمات ـ المواضيع التي لم يكن هناك ما يدل على إمكانية التقارب بينها. وهكذا فإن كلمات (mer, regard, rideau = بحر، نظرة، ستار)(41) تشكل موضوع ترابطات يصعب التنبؤ بما إذا كانت (أي هذه الترابطات) واعية به أم أنها تنتمي (وهو الاحتمال الأكثر توقعا) إلى مناطق عميقة من النفس.

وثانية هذه الملاحظات لها صلة بالعلاقات التي تعقد بين المعجم والمجتمع، ففي الكتاب الذي سوف نقرأه، قمتُ عن حق بنقد التقسيمات التي قام بها فون فرتبورغ في المعجم وجعل أساسها تاريخ الوقائع (وهو الذي يؤرخ لفترات الحكم والثورات... إلخ). ومن المستحسن أن نضيف أن التقطيعات التي تم إجراؤها تبعا للتاريخ الاقتصادي والاجتماعي لا تطمح إلى أن تكون خالية من النقد. فعلى العكس مما يُدَّعى أحيانا، ليس من المسلم به أن بنية المعجم هي انعكاس للحياة الاقتصادية. فقد مُنيت اللسانيات الماركسية (على الأقل تلك التي تنسجم واقعيا مع المبادىء التي تدعو إليها) بالفشل(42). إنني أبعد ما أكون عن استصغار أهمية الظواهر المرتبطة بالعمل أو بالمال، ولكن من المسلم به أن الدراسة المفرداتية ينبغي أن تُبنى بصفة خاصة على حقائق المعجم وليس على وجود واقعة من الوقائع كواقعة (الكُومُون : la Commune)(ح). إنه من الخطر الدائم أن نستعمل معايير غير لسانية من أجل وضع تأريخات تنحصر فيما بينها دراسة معجمية معينة.

لم أثر في الطبعة الأولى من هذا الكتاب إمكانية وضع بنية عامة لمعجم لسان من الألسنة، ذلك أنه بالإضافة إلى أن هذه البنية قد تكون مستحيلة الإنجاز بفعل

---

(41) ج. ماطوري وإ. ميكز I. Mecz : «**الموسيقى والبنية الروائية في (بحثا عن الزمن الضائع)**» باريس. كلينكسيك. ط. 1973، ص. 325.

(42) السبب الحقيقي في هذا الفشل راجع إلى كون البنيوية الماركسية عليها أن تختار بين تصور البنية الذي يستلزم تحديدا بحكم كونه تزامنيا، وبين المادية التاريخية التي تعطي للتاريخ دورا جوهريا.

(ح) بلدية باريس التي أصبحت حكومة ثورية خلال ثورة 1789، وفي سنة 1871 أصبحت تطلق على الحكومة الثورية في باريس (م).

التراكم الضخم للمواد والوثائق، فإنها قد لا تأتي بأية فائدة. إنه من الصعوبة أن نفهم ما هي العناصر التي قد تستفيدها الدراسة العلمية المفرداتية من تلك العلاقات الموجودة بين (الثور) و(البقرة) (التي تفيد المُزارع والبيطري) وتلك الموجودة بين (الكرسي) و(المقعد) (التي تفيد النجار العادي والنجار المتخصص في الأثاث)؟ اللهم إذا كانت البقرة بطبيعة الحال مقدسة كما في ديانة مصر القديمة، أو وجدنا أنفسنا في مواجهة المشكل الجذاب لتسلسل المقاعد المعروف في القرن السابع عشر الذي جعل سان سيمون في **مذكراته** وهافارد في **قاموس الأثاث** يؤرخان له، واللهم كذلك إذا ظهر أن بعض الألفاظ (مثل: cigarette = سيجارة، وmagazin = مخزن، اللذين ولدا أو بَرَزا حوالي 1830) تعتبر كلمات شاهدة مميزة لمرحلة جديدة من الحضارة. فليس مستحيلا بالتأكيد ـ على الأقل من الناحية النظرية ـ وضع بنية لمعجم لسان معين مع الاقتصار على عدد معقول من الكلمات. ولكن مثل هذا التقعيد بالإضافة إلى كونه ـ ولنكرر ذلك ـ عديم المعنى، قد يشتمل على كثير من التكرار. فـ (مقعد) (tabouret) القرن السابع عشر قد ينتمي بالفعل إلى حقول عدة : حقل **السمات المدنية**، وحقل **الأثاث** (في البنية الصغرى للمقاعد)، وحقل مفهوم **الراحة** الذي كان ضمنيا في زمن موليير أو سان سيمون (كانت المتحذلقات أنفسهن يتحدثن عن «الأشياء التي تجعل الحديث مريحا» commodités de la conversation = أي الأرائك). ودون أن نتحدث عن حالة مصر أو الهند، فإن البقرة لا تهم فقط صاحب المراعي والبيطري ولكنها تهم أيضا الشاعر الرَّعوي ورسام الطبيعية... الخ. فمن العبث أن نسعى لإعطاء الكلمة مكانة ثابتة في بنية المعجم، لأن كل كلمة في لسان من الألسنة تنتمي إلى عدد من السجلات اللغوية (registres) التي ينعزل بعضها عن بعض أو تتداخل فيما بينها وتحتل مكانة مختلفة في الأنظمة التسلسلية المستقلة أو المتكاملة، وذلك بحسب الحالات. وهذا يصدق على الكلمة التي تكثر معانيها بشكل مزعج كفعل (faire = عمل)، كما يصدق على الكلمات الخالية في الظاهر من الغموض كالنعت (bleu = أزرق) أو الاسم (livre = كتاب، رطل، ليرة). ومن المحتمل أن لا يكون هنالك علم دلالة عام لأنه لا وجود للكليات ولكن هناك فقط بنيات وسيطة تعمل في شكل كليات صغرى متسلسلة نسبيا، وهي عبارة عن أنظمة مفتوحة. إن تجانس المفردات فرضية سهلة ولكنها خاطئة. فالمعجم ليس فقط غير منسجم في الجوهر، ولكنه أساسا غير متجانس في الظواهر

الصوتية والنحوية التي يحاولون عبثا تشبيهه بها. وكما يقول وُرْف فإن دلالة كلمة مثل (كلب) دلالة «متمططة»، وهو ما يستلزم أن (كلب) تنتمي إلى حقول عدة. ونفس الشيء يقال بالأحرى عن كلمات تجريدية ذات معنى مبهم مثل كلمة (حرية) و(حقيقة) و(ديمقراطية).. إلخ.

هناك ملاحظة أخيرة تتصل بعلاقات الكلمة بالفكر أقدم بشأنها خلال الصفحات الآتية من الكتاب رأيا يستحق التوضيح : فأنا أعتقد مثل سابير وكثيرين غيره من اللسانيين، أن الكلمة بصفة عامة متقدمة على الفكر. «كيف أستطيع أن أعرف الشيء الذي أفكر فيه قبل أن أقوله ؟». هكذا صرخ آليس في بلاد العجائب[43] ومع ذلك فإن أعمال أومبردان (Ombredanne) وتأكيدات بعض العلماء أمثال إنشطين، تدل فيما يبدو على أن الظاهرة معقدة : فهناك فكر يمكن أن يتحقق من خلال بعض الصور البصرية أو السمعية أو الحركة الجسمانية[44]. يبقى أنه حتى في هذه الحالة المحتملة تقوم الكلمة بدور المثير والمنبه. فإذا نحن قبلنا التمييز بين الوظائف النفسية التي اقترحها عالم التحليل النفسي (س.ج. جونج) وهي : الإحساس، والشعور، والفكر، والحدس، يمكننا أن نزعم ـ باستثناء حالة الحدس فيما يبدو ـ بأن الحياة النفسية هي ظاهرة لغوية في جزء منها. فهل يمكن الاعتقاد بأن تصور الألوان عند مجموعة ثقافية لا تميز بين الأزرق والأخضر أو تصور مجموعة أخرى قد تعطي للون متوسط بين الأصفر والبرتقالي اسما خاصا، ليس لهما علاقة بعقلية هاتين المجموعتين ؟ وهل يمكن الاعتقاد ـ كما بيَّن ذلك ستاندال[45] ـ بأن التلفظ بكلمة (حب) المجردة في حضارتنا الغربية عن قيمتها المعروفة، لا يبلور الشعور الموجود تجاه الشخص المحبوب ؟ لقد أثبت واطسن أن الفكر الصامت نفسه ذو طبيعة لغوية، مع العلم طبعا كما يقول وُرْف بأن «ليس الذي يجعل الكلمات قادرة فيما بعد على إنتاج معنى هو كونها تُنطق بشكل فردي، ولكن ذلك راجع إلى العلاقات الموجودة فيما بينها».

ومن المستحسن أيضا أن نذكر هنا صنفا من الفروق كان بعضها معروفا منذ عشرين سنة ولكنه لم يجد مكانه في **منهج المعجمية**، وسنرى لماذا. إننا بفضل

(43) نقلا عن كستلر، مرجع مذكور، ص. 72.
(44) انظر أيضا : كتاب ج. بياجيه **«اللغة والفكر عند الطفل»**
(45) انظر ص. 92 من هذا الكتاب.

الاكتشافات التي تحققت على يد بعض الإناسيين أمثال مالينوفسكي وبعض اللسانيين أمثال مارتي وبوهلر (Bühler) وجاكبسون وغيرهم، أصبحنا نعرف الآن عدد الوظائف اللغوية وطبيعتها، أي البنيات المختلفة المتعايشة داخل اللسان الواحد وعند الفرد المتكلم الواحد(46). إن النظام الرمزي العام (le code global) للسان ــ كما يقول جاكبسون ــ «هو عبارة عن نسق من الأنظمة الرمزية الصغرى المستعملة في التواصل المشترك. وكل لسان يشتمل على عدد كبير من الأنساق المتزامنة، وكل واحد منها يختص بوظيفة مختلفة»(47). وهكذا فهناك وظيفة معرفية أو مرجعية هدفها إقامة رسالة بين «مُرْسِل» (يمكن تشبيهه بباعث أو مُرمِّز encodeur) و«مرسل إليه» (مرمَّز إليه décodeur أو متلقي الرسالة)، ووظيفة انفعالية (أسلوب التعجب مثلا)، ووظيفة طلبية (الأمر، النداء)، ووظيفة انتباهية لا غاية لها إلا ضمان نوع من الاتصال (آلو، أليس كذلك ؟... إلخ)، ووظيفة تأكدية بها يتأكد المتخاطبان مما إذا كانا يستعملان نظاما رمزيا واحدا (أريدكم أن تحددوا، ماذا يعني هذا ؟... إلخ). فهذا التمييز بين الوظائف القابل للمناقشة بكل تأكيد، يسمح مع ذلك بتقديم عناصر جديدة إلى دراسة الأفعال الأسلوبية، وهو لا يتداخل فوق ذلك بأي شكل مع الدراسة المعجمية التي تقوم ــ ولنكرر ذلك ــ على اجتماعية اللغة. ولذلك لا يمكنها أن تهتم بالظواهر التي ترجع إلى مجال الكلام وحده.

* * *

إذا كان على علم الدلالة أن يهمل ذلك المشروع الضخم وغير المجدي وهو مشروع البنية العامة للمعجم، فمن المؤكد أن في انتظاره مهمات أخرى لا تقل تشجيعا عن ذلك ويمكن تحقيقها بشكل أفضل. وأعتقد أن الدراسات اللسانية التي ستتم مستقبلا على مستوى الأشكال والصيغ وكذلك على مستوى التصورات، سوف لن تؤدي فقط إلى الكشف عن **كيف** يحصل الفهم ولكن ستكشف أيضا عن **لماذا**

---

(46) لا يتعلق الأمر هنا مطلقا بما يعرف بـ «مستويات اللغة» (أكاديمية، شائعة، شعبية، أرغة...) التي تقابل بعض الفئات الاجتماعية للغة وتهم المعجمية كما سنرى. على أني أورد اليوم تصحيحا للتصنيف المقترح في (ص 141) وهو أن اللغة البذيئة (grossier) توضع في مكان خارج الأصناف المقترحة، فهي يمكن أن توجد مع الأرغة ومع الشعبية والشائعة وحتى مع الكلام الأكاديمي أحيانا (حالة المثقف الذي يستعمل في سياق مختلف تماما كلمة يستلزمها الأمر من مفردات الغائط أو غيرها) وكذلك مع اللغة الأدبية. وفي عمل ل. ف. سيلين أمثلة عديدة لهذه الالتباسات المقصودة.

(47) «**بحوث في اللسانيات العامة**» (Essais de linguistique générale)، ص. 213.

يتم. والمعجمية لها من هذا المنظور دور كبير تقوم به. فبفضلها (وهذا ما استشعره بعض المؤرخين) يمكن رسم الخطوط العريضة لـ«رؤية العالم» (= Weltanschauung) الخاصة بحقبة أو مجموعة معينة. وسوف لا يتعلق الأمر بمقابلة حيوان بأنثاه وصغاره، ولكن بالإتيان بعناصر غير قابلة للمناقشة يمكن بواسطتها إعادة تأليف تاريخ حضارة معينة. إن اللسانيات لا ينبغي أن تقتصر مثلها مثل بقية العلوم، على تفسير مشاكلها الخاصة، فهي تنتمي، وعلينا ألا ننسى ذلك، إلى علوم الإنسان[48].

(48) لم أشر في هذه المقدمة إلى الفوائد التي يمكن للقواميس الحديثة أن تجنيها من الدراسات المعجمية المبنية على الحقول المفهومية. وقد تم في شيكاغو إنجاز قاموس بأوراق مخرومة، على يد مؤلفه إلاماك (Elamac)، وهو مزود بتسجيل مغناطيسي. إنه قاموس ناطق إذن. على أنه من الممكن كذلك وضع قاموس على الجذاذات مزود بجهاز إلكتروني بحيث يقوم بعرض اللفظ المطلوب على الشاشة ـ بفضل قارئة للأفلام ـ مصحوبا بتعريفه وأمثلته. كما يمكنه أن يعكس على الشاشة كل الكلمات المنتمية للحقل الدلالي لتلك الكلمة في الوقت ذاته. ويمكن أيضا للمستعمل أن يحصل على السياق المفهومي للكلمة، ويستفيد من المقابلات التي تعجز القواميس الموجودة عن القيام بها ولو كانت من القواميس المرتبة حسب الموضوعات.

مقدمة الطبعة الأولى (1953)

هذا الكتاب الصغير الذي أقدمه هنا، له غاية مزدوجة: فهو موجه إلى فئتين من الناس : فئة المعجميين الذين يَقترح عليهم منهجا يسمح بدراسة **أفعال** (faits) **المفردات**؛ وفئة الطلبة الذين يقدم لهم قائمة النتائج المتوصَّل إليها من قبلُ في مجال دراسات المعجمية الفرنسية، ويوضح الخطوات الفكرية التي أدت إلى النتائج المشار إليها[1].

وربما كان ما يحدوني من هاجس نحو التفسير، هو الذي قادني إلى تبني مخطط يسلط الضوء على خطوات هذا التفكير نفسها[2]، فآثرت سلوك نظام في التأليف مستوحى من الضرورات المنهجية والتعليمية.

والقسم الأول من هذا الكتاب مخصص لموضوع العلم نفسه الذي ندرسه. ويبدأ بعرض مبادىء **المعجمية** (La lexicologie)، أي ببحث علاقات اللفظ بالمفهوم، وهي علاقات معقدة وذات طبيعة غير مفهومة جيدا لحد الآن. وبعد عرض مختلف النظريات المطروحة منذ القدم حول هذه القضية، أُورد النتائج التي توصل إليها علماء النفس المعاصرون، مع استكمالها بملاحظاتي الشخصية حول العلاقات الموجودة بين النفسي والاجتماعي عند نشأة الكلمة وعند انتشارها. والفصل الذي بعده يحاول أن يحدد موضوع دراساتنا نفسه. فالدراسات الخاصة بالمفردات

(1) يقول غ. باشلار في : (Form. esprit. scient. p : 234) : «إن تعليم النتائج لا يكون أبدا تعليما علميا، وإذا لم نقم بتفسير خط الإنتاج الفكري الذي قاد إلى النتيجة، فعلينا أن نتأكد من أن التلميذ سوف يؤلف النتيجة بصوره المألوفة عنده. إن عليه أن يفهم جيدا، ولا يمكن أن يحفظ شيئا إلا بالفهم. والتلميذ يفهم بطريقته الخاصة حين لا تُقدم له تفسيرات وأسباب، ويضيف إلى النتيجة تفسيرات خاصة. فمن المناسب أن يوضع حد لتوالد الأمور الذاتية عن طريق التمحيص المستمر للمسائل الموضوعية».

(2) انظر في هذا الموضوع : E. Meyerson : De l'explication dans les sciences, p. 624

أصبحت بانفصالها التام عن علم الصرف والأسلوبية تُعَرَّف حسب التصور الجديد بأنها تفسير **لأفعال** المجتمع(أ).

والقسم الثاني مخصص للمنهج الذي يقتضيه كل من موضوع المعجمية ووجهة نظرها الخاصين. فإلى عهد قريب، لم تكن مشكلات المنهجية على الاطلاق تثير انتباه المتخصصين في دراسة المفردات. وقد بدا لي بشكل واضح، خلال إعدادي لأطروحة دكتوراه حول **المفردات والمجتمع في عهد لوي فيليب** ضرورة إدخال شيء آخر غير الحدْوس والآراء الذاتية إلى هذا الميدان. فكثير من فصول هذه الأطروحة كانت تلح على ضرورة اتخاذ منهج عقلاني. إلا أني لم أحاول معالجة المنهج الذي أقدمه الآن إلا بعد مناقشة أطروحتي في مايو 1946، وذلك خلال اشتغالي بأعمال أخرى. وهنا يجدر بي أن أتذكر اسم صديقي غريماس (A. G. Greimas) الذي كان أول من انضم إلى الأطروحة الاجتماعية التي ناديتُ بها، وهو الذي لم أنقطع عن التعاون معه منذ سنة 1947. لقد كان لعملنا المشترك الذي تجلى في عدد من المقالات المنشورة سابقا، وفي كتاب ضخم يوجد الآن قيد التحرير(ب) أن ساعَدَ على إدخال تدقيقات وتصحيحات قيّمة على الأفكار التي كانت لديَّ من قبلُ.

(أ) الأفعال الاجتماعية (les faits sociaux) أو (أفعال المجتمع) من مصطلحات علم الاجتماع؛ وتطلق ـ حسب ما هو شائع بين الاجتماعيين ـ للدلالة تقريبا على كل الظواهر التي تجري داخل المجتمع. ولكن دوركايم أضاف بعض القيود فاشترط في هذه الأفعال ـ لكي تستحق أن تنعت بـ «الاجتماعية» ـ أن تكون مفروضة على الشخص من الخارج على وجه الالزام، وليست نابعة من محض تصرفه الذاتي (ومثل لذلك بالنظام اللغوي والنظام النقدي)، وأن تكون عامة وشاملة لجميع أفراد المجتمع وليست خاصة بفرد أو أفراد قلائل. وبذلك أعاد صياغة التعريف ليصبح عنده على النحو التالي : «يكون فعلا اجتماعيا كل طريقة عمل ثابتة أو غير ثابتة يمكنها أن تمارس على الفرد إكراها خارجيا، أو بعبارة أخرى : هي كل طريقة عمل تشمل المجتمع كله ولها وجود خاص ومستقل عن مظاهرها الفردية». انظر دوركايم : (Durkheim : Les règles de la méthode sociologique, PUF, 1977, p. 3-4... etc.) وبما أن المؤلف يعتبر أن التغيرات الاجتماعية هي أساس التغيرات اللغوية والدافع إليها، وأن الظواهر اللغوية ما هي سوى انعكاس للظواهر الاجتماعية، فإنه استعار من مجال علم الاجتماع مصطلح «أفعال»، ليعبر به عما يسميه «أفعال المفردات» (les faits de lexique) و«أفعال المعجم» (les faits de vocabulaire) و«الأفعال اللغوية» (les faits de langage)، وهو يدل بذلك على كل الظواهر الخاصة بالمفردات اللغوية والألفاظ المعجمية، أي كل ما تعرفه اللغة من تغير وتطور، وكل ما يقع لها ويلاحظ حولها في الفترة المدروسة (المترجم).

(ب) يشير المؤلف إلى الكتاب الذي كان مقررا صدوره بالاشتراك مع غريماس تحت عنوان (Art, le mot et la notion, de 1699 à 1857)؛ ولكن هذا الكتاب لم يصدر كما أكد لي المؤلف نفسه في رسالة خاصة (م).

إن الدراسات المعجمياتية (Lexicologiques) ليس لها هنا صفة الأعمال التحليلية، ولا هي عندنا بمثابة تصنيفات لا تمثل حتى في حالة كونها معقولة سوى الحالة الدنيا من العلم، بل إننا نعتبرها بمثابة محاولة للتفسير. وبما أن التفسير لا يكون إلا مجملا وعاما، فإن بحوثنا هي الأخرى لن تُبْنى على أساس كلمات منفردة ولكن على أساس مجموعات وأنظمة معجمية. وبحوثنا بانطلاقها من الواقع اللغوي لا تقوم بتفسير مجتمع غامض، مجتمع في عالم التجريد، ولكن بتفسير أوضاع وحالات (cas) (في الألمانية Zustände) المجتمع. إن المعجمية عند أولئك الذين يمارسونها، يمكن لها بهذا أن تسهم ـ انطلاقا من دراسة الألفاظ ـ في توضيح سيرورة التحولات الاجتماعية.

قد يأخذون علي أنّي جعلتُ دراستي محصورة في نطاق الأفعال الخاصة بمفردات الفرنسية الحديثة؛ والسبب أنه كان من الصعب في الحالة الراهنة لمعرفتنا، توسيع الدراسة حتى تشمل الفرنسية القديمة. وكما لاحظ ماييه (Meillet) متأسفا، فإننا لحد الآن لم ندرس سوى الألسنة التي لا نتكلمها بشكل طبيعي، وذلك من أجل الوصول إلى معرفة كيفية استعمالها. في حين أن إنجاز دراسة معجمية لا تقف عند الملاحظة ولكن تطمح إلى التفسير، يفترض ألا يكون هنالك أي مشكل في فهم الألفاظ، ويفترض أيضا أن نتوفر مسبقا على مجاميع نصوص مهيأة بشكل جيد، وعلى أعمال جدية حول التاريخ والحياة الاقتصادية والقانون والعادات... إلخ. هذا ما توصل إلى فهمه بعض اللسانيين الفرنسيين الذين بعد أن درسوا عددا كبيرا من اللُّغَيَّات عادوا في مرحلة متأخرة إلى الاهتمام الخاص بلسانهم الأصلي. إن العيوب المنهجية لأطروحتيْ هوليمان (Hollyman) وسكونز[3] (Scoones) جاءت من كون تحليلهما ينطلق من كلمات تنتمي لألسنةٍ مفهومةٍ بشكل سيء جدا (اللاتينية المحرفة، والفرنسية القديمة جدا). ولقد أردت تجنب هذه العقبة.

(3) هوليمان (Hollyman) : **تطور المفردات الفيودالية بفرنسا في ظهر العصر الوسيط** (Le développement du vocabulaire féodale en France pendant le haut moyen âge) وهي أطروحة دكتوراة جامعة باريس، 1950، مرقونة.
ـ سكونز (Scoones) : **أسماء بعض الضباط الفيوداليين، من البدايات إلى نهاية القرن الثاني عشر** ((Les noms de quelques officiers féodaux des origines jusqu'à la fin du XIIème siècle) وهي أطروحة لدكتوراة جامعة باريس، 1950، نص مرقون.

إن المنهج الذي سنجد مبادئه هنا لا يطرح نفسه إطلاقا على أنه منهج دوغماتي. ولا شك في أن كل منهج ينبغي أن يؤسس على معلومات عديدة ومحددة، في حين أن معلوماتنا في المعجمية تدل على وجود ثغرات مهمة. ولكن، من ناحية أخرى، كيف يمكن ـ من غير منهج ـ استخدام المادة التي نستطيع تجميعها ؟ لقد بدا لي أنه من الضروري تجاوزُ مرحلة التحليلات المفصلة التي كانت لمدة طويلة تتصف بها دراستنا، واقتراحُ تصنيف تفسيري للأفعال المعجمية بمنهج كاف.

سوف يناقشون الأساس الذي أقيم عليه هذا المنهج؛ وسوف أُجيب بأن ليس المهم هو حقيقة النظرية، بل المهم فعاليتها وجدواها. لقد كان هنري بْوَانكاري (Henri Poincaré) يقول عن النظرية الحركية للغازات : إن الأمر لا يتعلق بمعرفة ما إذا كانت صادقة ـ وهو الشيء الذي «لا معنى له»[4]، كما كان يقول ـ ولكن بالسؤال عما إذا كانت مثمرة. وأنا أطلب أن أُحاكَم بمقتضى معيار الجدوى هذا.

وإن لديَّ لرغبة عارمة في التعبير عن عرفاني بالجميل لأولئك الذين ساعدوني في عملي : للسيد غاستون باشلار الذي كان تعاطفه معي أكبر مشجع لي، ولزملائي وأصدقائي بكلية الآداب في بيزانصون، وهم السادة : أغرو، ودوكاسيه، وشينيفيل، ومارتان، وفاريل، وللسيد أنجلوز مدير جامعة (صير: Serre). وأشكر بصفة خاصة أ.ج. غريماس، و ب. كيمادا اللذين قرآ مخطوطة الكتاب وقدما إليَّ اقتراحات قيِّمة. وكذلك لويس بونيرو زميلي وصديقي في المدرسة العليا للأساتذة بسان كلو، الذي ما كان لهذا العمل أن ينشر لولا إلحاحه الشديد.

(4) نقلا عن : هـ. صير (H. Serr) : **تركيب المعارف** : (Synth. des conn.) p. 369

الفصل الأول

مدخل

المعجمية (La lexicologie)، التي يطلق عليها أحيانا اسم **القاموسية**(1) (La lexicographie)، هي علم ليس معروفا بشكل جيد. وهناك من يتصور بصفة عامة أن موضوعها الوحيد هو صناعة القواميس التي هي جملة أعمال لا تُناقش فائدتُها، ولكن ينظر إليها بشيء من الازدراء. والواقع أن وضع القواميس لا يمثل إلا جانبا واحدا (وليس هو المهم) من دراسات المعجمية.

وعلمٌ مثل هذا غير معروف بالقدر الكافي، لا يمكن أن تكون نحوه ميول؛ لذلك قد يسهل أن نعد على أطراف الأصابع مجمل الأعمال الفرنسية المتعلقة بالمفردات التي ظهرت خلال السنوات العشرين الماضية. وهي أعمال في أغلبها متوسطة القيمة(2)، واستعملت مناهج متباينة ومتجاوزة وعاجزة عن إدخال تصنيفات منطقية، وعن تمهيد الطريق للوصول إلى وضع نتائج وخلاصات، أضف إلى أنها غير معروفة إلا قليلا خارج دائرة محدودة من اللسانيين الذين يحكمون عليها عموما حكما قاسيا. ويمكننا القول بأنه إلى عهد قريب لم يكن يوجد في فرنسا شيء من المعجمية، ولكن كان هنالك معجميون فقط.

---

(1) سنحاول فيما بعد (ص 160) أن نميز بين الليكسيكوغرافيا (= القاموسية) وبين الليكسيكولوجيا (= المعجمية) اللتين يخلط بينهما كثير من المؤلفين أمثال السيد ماروزو في كتابه **المصطلحات اللسانية** (Lexique de la terminologie linguistique).

(2) قمنا بالتعاون مع أ. ج. غريماس بدراسة نقدية لبعض هذه الأعمال في مقال بعنوان : **منهج المعجمية، حول بعض الأطروحات الحديثة** La méthode en lexicologie, à propos de quelques thèses récentes. Romanische, 1948

والانتقادات التي يمكن أن نوجهها لأغلب المؤلفات المتعلقة بالمفردات مما ظهر قبل الحرب الأخيرة هي كما يلي :

أ ــ موضوع العلم نفسه ليس محددا بوضوح :

إن المعجمية بصفة عامة تلتبس بالعلوم المجاورة لها :

1 ــ بالأسلوبية : فلم يقع دائما التمييز بين **المفردات**، وهي الشيء المشترك بين كل «المستعملين» الموجودين في حقبة واحدة ومنطقة واحدة، وبين **الأسلوب** الذي هو استعمال لسان معين من شخص واحد لغاية جمالية(3). وهذا الالتباس قائم على أساس خطإ شائع جدا وهو أن أعمال الكتّاب قد تقوم بدور بارز في تطوير اللسان(4). والواقع أن الكتّاب ليس لهم إلا دور استعمال معجم عصرهم وبيئتهم. ويكاد يكون مستحيلا أن نحدد دائما ما إذا كانت هذه الكلمة أو تلك من اختراع هذا الكاتب أو ذاك. ولقد اشتهر غوتييه (Th. Gautier) في زمانه بأنه مخترع كلمات لا يُبارَى. ولكننا حين ندرس معجمه عن قرب، نلاحظ أن أغلبية الألفاظ الجديدة المنسوبة إليه سابقة له، ومعذرة إذا نحن استشهدنا ببعض كلامنا وقلنا : «هل يكون كاتب جون ــ فرانس (Jeunes-France) هو مخترع تلك الألفاظ الجديدة مثل : (Clappement, Famosité, Matérialisation)؟ ألا يحتمل أن يكون مخترع أمثال هذه الكلمات هو مجرد صحافي مغمور في جريدة الفيغارو أو هو فيلوطي أونيدي (Philothé O'Neddy) أو بطرس بوريل (Pétrus Borel)؟ إن ت. غوتييه قد استخرج من قراءاته ــ وليس من مخيلته ــ العناصر الأكثر جدة ودلالة في مفرداته. ومثل هذا يمكن أن نقوله عن أغلبية الألفاظ المحدثة التي نصادفها عند المؤلفين. وحتى حين يكون الكاتب في طليعة القوى الثورية للغة، فإنه لا يغامر بنفسه إلا مدفوعا من جمهور الكتاب ومستعملي اللغة في عصره. وحين زعم فيكتور هيجو أنه «وضع طاقية حمراء على القواميس القديمة» فقد كان يبالغ بكل تأكيد في إظهار أهمية دوره : إذ في سنة 1830 قامت حركة لا تقاوم لإغناء المعجم وتحرره، ولم تستطع عبقرية هيجو أن تأتي إلا بعدد معين من الألفاظ الجديدة(5) وقد بيّنا في مكان آخر أنه حين

---

(3) ج. ماروزو (J. Marouzau) : **مختصر الأسلوبية الفرنسية** Précis de stylistique française, p. 2

(4) ج. ماطوري وأ. ج. غريماس : **منهج المعجمية، حول بعض الأطروحات** ...، ص. 411

(5) نفسه، 412.

يقوم أحد الكتاب بإحداث تجديد في مجال المفردات بطريقة منظمة، فإن معاصريه لا يسيرون في ركابه. وتلك هي حالة س. ميرسيه (S. Mercier)[6] والرمزيين، وحالة هويسمان (Huysmans)[7] أيضا. إن هناك أفكارا خاطئة كثيرة تشيع حول المفردات الكلاسيكية : فكثيرا ما يعتقد أن ماليرب (Malherbe) وفوجلاس (Vaugelas) وبوهورز (P. Bouhours)... إلخ قد سنوا كلمات بشكل مجرد. والحقيقة أن المنظّرين لم يقوموا بغير الترجمة والتنظيم والنشر لأفكار وأحاسيس فئة اجتماعية معينة.

هذا الخلط بين المعجمية والأسلوبية جر بعض الباحثين إلى دراسة المفردات ــ في ذاتها ولأجل ذاتها ــ التي يستعملها كاتبٌ معين، دون الانتباه إلى أن تحقيق مثل هذا العمل قد يتطلب وجود دراسات تمهيدية وتامة حول مفردات العصر. على أنه من المحتمل أن تقدم الدراسات الأسلوبية بدورها مادة جد قيمة للمعجمية الاجتماعية التي ندعو لها. فقد تعمل على توجيه مادتنا العلمية القريبة من علم اجتماع موضوعي وتفسيري ومرتكز على ما هو جمعي، نحو معجمية قد تجتهد لإعادة إدماج الإنساني في المجتمعي مثلما فعل علم الاجتماع النفسي لِمُوص (Mauss) فتصبح قائمة على الفهم لا على التفسير[8].

2 ــ **بالصرف والنحو**: فهناك كثير من الإمكانيات المقترحة لتصنيف الكلمات وترتيبها :

أ ــ والإمكانية الأكثر سهولة هي الأخذ بالتصنيف الألفبائي، وهو التصنيف المعمول به في القواميس. وقد تبناه عدد من علماء المعجميات، إلا أنه في الحقيقة كان دائما محل انتقاد، وكان فوجلاس سنة 1647 قد عابه بأن قال : «هذا التصنيف الألفبائي لا ينتج في حد ذاته شيئا سوى أنه يساعد على العثور على المواد في وقت وجيز، لذلك كان يعتبر الأخير بين باقي أنواع التصنيف لأنه لا يسهم في فهم المواد التي يقع تناولها»[9]. ومن الواضح بالفعل أن هذا النظام التصنيفي بحكم

---

(6) انظر كتابه : (**التوليد** : Néologie) (1801) وكذلك دراسات للعادات والأخلاق مثل : **لوحة باريس** (Tableau de Paris 1781-1790)

(7) م. غروسو (M. Grossot) : **الجملة والمفردات عند ج. ك. هويسمان** : **La phrase et le vocabulaire de J. K. Huysmans**, Paris, Droz, 1937

(8) انظر مقالة السيد دوفرن (Dufrenne) بعنوان : **نظرة في الاناسة الثقافية** المنشورة في : Les cahiers int. de sociologie. vol. 12-1952 وهي تحيل على مقال مهم للسيد دافي

(9) **ملاحظات حول اللسان الفرنسي** : Remarques sur la langue française, p. 11

أنه غير تفسيري، لا يمكن أن يعتبر علميا، لذلك وجدنا بعض علماء المعجميات(10) يعلنون أن القواميس نفسها قد يكون عليها مستقبلا أن تُبنى على أساس تصنيف مغاير.

ب ـ يمكن أيضا تصنيف الكلمات حسب بنيتها الشكلية أي حسب الجذور والسوابق واللواحق. وعلى هذا النحو تم في بعض المؤلفات تصنيف مفردات كُتّاب القرن التاسع عشر، وذلك بتقسيم الأفعال [الفرنسية] إلى أفعال تنتهي بـ (er) أو (eter) أو (iser) وتقسيم الأسماء إلى ما ينتهي بـ (age) أو (aille)... إلخ. والتصنيف حسب الجذور يمكن أن يتم بطرق عدة :

1 ـ فإذا انطلقنا من زاوية نظر اشتقاقية صرف، فسنعمل على الجمع بين كلمات من نوع: (espace) و(spatial) و(espacement) إلخ، أي على الخلط بين الكلمات المتوارثة والكلمات العالمة(أ) وبين الكلمات النادرة والكلمات العادية جدا.

2 ـ يمكن أن نصحح هذا التصنيف بأن نقتصر على التقريب بين الكلمات المترابطة في ذهن الشخص المتكلم غير المثقف. إن وجود عائلات للألفاظ لا يعد من قبيل الأوهام. وقد استطاع جيليرون (Gilliéron) وروك (Roques) أن يُبيِّنا تأثير الكلمة التي ترأس العائلة على بقية الكلمات الأخرى المنتمية للعائلة نفسها، ووضّحا كيف أن اختِفاء فعل (choir) مثلا قد أدى إلى اختفاء (échoir)، وصار يهدد وجود (déchoir)(ب) الذي أصبح تصريفه ناقصا(11).

وتصنيف الكلمات حسب صيغها وأشكالها يمكن أن تكون له فائدته، ولكنه لا يمكن أن يكون مقبولا عند الدارس المعجمي الذي يريد تفسير أوضاع المجتمع وحالاته.

---

(10) انظر : فون ورتبورغ (Von Wartburg) : **قضايا ومناهج** (Problèmes et méthodes, p. 158) وانظر: Duraffour, Dictionnaires, in : mél. Roques, p. 190

(11) **دراسات في الجغرافية اللغوية** .Etudes de géog. linguist., p. 85-107

(أ) يقصد بالكلمات المتوارثة الكلمات القديمة التي أصبح استعمالها عاما ومشتركا بين أصحاب اللسان، ويقصد بالكلمات العالمة تلك الألفاظ الاصطلاحية التي تختص بعلم من العلوم، لأن مجال استعمالها محدود ومحصور في المجال العلمي (المترجم).

(ب) معنى (choir) : سقط، ووقع. و(échoir) : وقع، حدث، حان.. و(déchoir) : انحط، هبط، زاغ، تناقص (المترجم).

ج ـ أما التصنيف النحوي الذي تخيلوه للسان الإغريقي (ذلك التصنيف الذي لا يتلاءم مع هذا اللسان جيدا والذي يقسم الخطاب إلى أقسام عشرة) فقد أدانه اللسانيون المحدثون ورأوا أنه لا يمكن أن ينطبق على سائر الألسنة. وبالفعل إذا نحن نحّينا كلمات التعجب (مثل: -Pstt...!- Pff...!- Brr...!) التي تحتل مكانة متميزة حتى من الناحية الصوتية نفسها، ونحّينا الوحدات الصرفية (المورفيمات) كالحروف والروابط، وكذلك الأداة التي هي في الغالب اسم اشارة قديم، والضمير الشخصي الذي لا تستعمله قط كثير من الألبسنة... إلخ فماذا يبقى؟ يبقى النعتُ الذي لا يتميز في كثير من الأحوال عن الاسم. ويبقى الاسم والفعل اللذان لا يبدو للوهلة الأولى أن بينهما علاقة، ولكن في بعض الألسنة (السامية ـ الفنلاندية ـ الهونغارية ـ الصينية) توجد بينهما أوجه شبه كثيرة[12].

إن الدراسات المفرداتية لا يمكن أن تكون مؤسسة على مثل هذه التصنيفات، والذين تبنوها من الباحثين لم يروا أن المعجمية تتميز بشكل واضح عن علم الصرف. فعلم الصرف يدرس «مظهر» الكلمات، والمعجمية تهتم بمحتواها الدلالي على الخصوص.

3 ـ **وتلتبس بالمنطق وعلم النفس** : إن بلغاء العصور القديمة والعصر الوسيط، باستعمالهم لمبادىء المنطق الأرسطي قد قاموا بتصنيف الألفاظ المحدثة انطلاقا من الأوجه البلاغية (الاستعارة، التمثيل، الحقيقة العرفية... إلخ) أي التغيرات التي تحصل لمعاني الكلمات، وذلك بالانتقال من المجرد إلى المحسوس، ومن السبب إلى المسبِّب... إلخ. وقد بيَّن دارميستيتر (Darmesteter) في كتابه : **حياة الألفاظ** (vie des mots) (1866) هذا الإطار التجريدي مع تبسيطه. وكما قال بحق السيد فندريس، فقد «كان عيب كتاب دارميستيتر هذا هو أنه حاول أن يقنع الناس بأن هناك نوعا من المنطق الداخلي هو الذي يفسر مشكلة التغيرات الدلالية للألفاظ. ولم يكن يبدو على المؤلف أنه بحث في ما هو أبعد من التجريدات المدرسية للحقائق العرفية أو المجازات المرسلة، ولذلك لم يدرك الحقائق الملموسة للفظ»[13].

(12) م. بريال (M. Bréal) : **دراسات دلالية** (Essais de sémantique)، ط. 3، ص. 279 وانظر أيضا : مابيه : **اللسانيات التاريخية واللسانيات العامة**، ج. 1، ص. 234.

(13) انظر : (Le langage, p. 229) ونجد أيضا الخطاطة «المنطقية» لدارميستيتر وكذلك أفكاره العضوانية (اللغة مشبهة بجسم بيولوجي) في الكتاب الصغير للسيد شوين (Schoene) المسمى : حياة وموت الألفاظ (Vie et mort des mots)

أما التصنيف النفساني الذي لا يوجد بينه وبين سابقه إلا فرق ضئيل جدا، والذي يقوم على مبدإ «تجميع الأفكار»، فهو يعمل على «الربط بين المتقاربات في المكان أو الزمان وبين الأحداث والمفاهيم والأشياء المرتبطة بعلاقات ذهنية (السببية، الأصل... إلخ) فيقع تمييز المُحْتوِي الذي يُطلق ويراد به المُحْتَوَى (مثل: شَرِبَ كأساً) والعكس، أو الكل الذي يراد به الجزء (عَلَم)(ج)...إلخ». والواقع كما يقول السيد هوليمان (الفصل 3): «إن إطار التصنيفات المنطقية والنفسانية بكامله جاءنا من عصر سابق لميلاد علم النفس»، والتصنيفات التي أدخلها بعض اللسانيين المعاصرين أمثال السيد ج. إسنو (G. Esnault)، كالكيفية، والوضع، والكميَّة... إلخ، ليست سوى محاولة لإعادة الشباب إلى التصنيفات المنطقية القديمة.

4 ـ **بعلم الدلالة** : على المعجمية أن تتميز عن علم الدلالة[14] (Sémantique) الذي بحكم دراسته للقيم [= المعاني] المتعاقبة للكلمات المفردة، يعتبر مادة علمية تنتمي إلى اللسانيات التاريخية، بينما المعجمية ـ وهي كما سنرى مادة علمية اجتماعية ـ تدرس مجموعات الكلمات منظورا إليها إحصائيا من زاوية المفهوم.

ب ـ المنهج غير محدد

من الواضح أنه لا يمكن تحديد منهج معين إلا بعد تحديد موضوع العلم في حد ذاته. ولما كان هذا التحديد غير موجود لم يتم اقتراح أي منهج.

لهذا السبب ظلت المعجمية مدة طويلة متوقفة عند مستوى تقرير الأمر الواقع، مع أن تقرير الأمر الواقع لا يمكن أن يكون له مبرر إلا إذا اكتمل بالبحث في الأسباب والعلل، وهو الشيء الذي ظل مجهولا عند كثير من الباحثين الذين قامت معلوماتهم على تحليل ناقص للأفعال التي اعتبرت غير ذات أهمية وغير قابلة لأن

---

(14) كلمة (Sémantique) كان قد اخترعها يوم 3 [illegible] بريال (Michel Bréal) (مجلة العالمين : Rcvue des deux mondes) وهي تعوض كلمة (Sémiologie) التي لم تعد تستعمل قط. وبعض المؤلفين وخاصة هوليمان وسكونز نسبوا لكلمة (Sémantique) المعنى الذي نعطيه نحن لكلمة (Lexicologie). ونعتقد أن استعمال كلمة (Sémantique) على هذا النحو يؤدي إلى الخلط الذي فيه ما فيه من الخطورة.

(ج) المقصود أن كلمة (عَلَم) عندما يطلقها شخص يريد بها عَلَم بلاده لا جنس العَلَم (المترجم)

تتحول إلى خلاصة تركيبية. وقد يبدو من قراءة بعض المؤلفات أن المفردات لا تخضع للحتمية، وأن أي إجراء يتخذ لدراسة مادة معقدة لهو إجراء معقول، في حين أن الأفعال المعجمية إذا كان لها مظهر يوحي بعدم التحديد فليس ذلك سوى مظهر فقط. إنه لا مجال للحظ والمصادفة هنا، ولكن ثمة ـ كما في جميع العلوم الإنسانية ـ تشابكٌ بين الأسباب المتعددة.

ج ـ المعجمية وعلم الاجتماع

هنالك منذ مدة، لسانيُّون فرنسيون وأجانب كانوا يحاولون مقاربة بعض التصورات التي ينقصها كثير من العقلانية، وبفضل المدرسة الاجتماعية استطاعت الدراسات اللسانية، وبالخصوص في مجال المفردات، أن تحقق تقدما كبيرا.

ويُعتبر ميشال بريال أول من سجل في كتابه المسمى **بحث في الدلالة** (Essai de Sémantique) أهمية العامل الاجتماعي في التطورات الدلالية. وقد تأثر ماييه بالتصور الاجتماعي لدوركايم[15] وبأفكار بريال في تصنيف أسباب هذه التغيرات إلى ثلاثة أنواع[16]:

1 ـ **الأسباب اللغوية الخالصة** : وهي التي تأتي بصفة خاصة من السياق داخل الجملة : فـ (om) التي أصلها في اللاتينية (Homo) تتخّذ في الفرنسية القديمة جدا قيمة الضمير المبهم : (on). وهذه الأسباب لم يولها ماييه سوى أهمية ثانوية.

2 ـ **كون الأشياء المعبر عنها بالألفاظ يتغير معناها** : وهكذا نجد أن القيمة الاجتماعية لكل من (Père) و(Mère) اللذين استمر التعبير عنهما بكلمات هندوأوربية، قد تطورت. فـ (Père) و(Mère) يعنيان اليوم على الخصوص الأبوّة والأمومة الماديتين : أي أنهما يمكن أن ينطبقا على بعض الحيوانات. ونحن نعلم أن مدرسة الكلمات

---

(15) «إن أي لسان من الألسنة يوجد مستقلا عن جميع الأفراد الذين يتكلمونه. وبالرغم من أنه قد لا تكون له أية حقيقة خارج مجموع هؤلاء الأفراد، فإنه مع ذلك وبحكم شموليته، يكون خارجيا عن كل واحد منهم... والسمات التي تجعل منه أمرا خارجيا عن الفرد ومفروضاً عليه ــ وهي التي حدد بها دوركايم الفعل الاجتماعي ــ تظهر إذن واضحة في اللغة تمام الوضوح» (انظر : **اللسانيات التاريخية واللسانيات العامة** : L.H.L.G، ص. 230).

(16) يمكن قراءة الفصل الذي خصصه هوليمان لهذه المسألة في كتابه : **تطور المفردات الفيودالية** : (Développement du vocabulaire féodal, ch. 4)

والأشياء (Wörter und Sachen) الألمانية قد درست هذا النوع من التغيرات دراسة خاصة، واهتمت كثيرا بالأشياء المادية وأهملت العوامل الاجتماعية حقا، وهذا ما عابه ماييه عليها.

3 ـ **عملية تقسيم الأشخاص إلى طبقات متمايزة** : وهي في ـ نظر ماييه ـ تعد أهم سبب من أسباب التحولات اللغوية؛ ولم تكن هذه الأهمية لتفوت بْريَّال الذي كتب يقول : «بقدر ما يزداد ربحُ حضارةٍ معينة غنىً وتنوعاً، تتوزع الانشغالات والأفعال التي تتألف منها حياة المجتمع بين مختلف المجموعات الإنسانية. فلا الحالة النفسية، ولا نوع النشاط يتشابهان عند كل من الشاعر والجندي والرجل السياسي والفلاح الذين وإن ورثوا لساناً واحداً، فإن الكلمات تتلوَّن في استعمالهم بفرق واضح متميز يلتصق بها وينتهي بأن يصبح جزءا لا يتجزأ منها... كلّ علم أو فن أو حرفة، حين يضع مصطلحه، يَسِم كلماتِ اللسان المشترك بسماته الخاصة» (مرجع مذكور، ص. 285).

ولقد أتى ف. برينو بأفكار مشابهة خلال الفقرة القصيرة التي خصصها للتصنيف الدلالي بكتابه المسمى **الفكر واللغة** (La pensée et la langue) (ص 79)، إذ ميز بين الكلمات العامة والكلمات الخاصة، («مثلا بين jardin, Parc, Verger...، إلخ.)(د) وبين الكلمات التي تدل على شيء واحد ولكن تستعمل في أوساط اجتماعية مختلفة (مثل: Salaire, appointement, émoluments, traitement, honoraires, paye, solde, prêt, indemnité...)(هـ). أو في مناطق متنوعة (مثل:

(د) تطلق كلمة (jardin) في الفرنسية على كل أرض مسيَّجة في العادة وتغرس بالنباتات المفيدة، أو المستعملة للمتعة أو بكل أنواع الأشجار. وكانت كلمة (Parc) تطلق منذ القرن السابع عشر الميلادي على الأرض الواسعة المشجَّرة والمسيَّجة، وتكون في العادة تابعةً لقصر أو منزل كبير، كما تُطلق على الأرض المشجَّرة والمسيَّجة التي تحفظ فيها القنائص من أجل الصيد. وأما كلمة (Verger) فيراد بها خاصةً الأرض المغروسة بأشجار الفاكهة (المترجم. عن قاموس : بوتي روبير : P.R).

(هـ) كل هذه الألفاظ تدل على شيء واحد كما قال المؤلف، وهو الأجر أو المكافأة اللذان يُعْطَيَان مقابل عمل أو جهد، مع فروق بينها دقيقة : فكلمة (Salaire) تُطلق على الأجر الذي يعطيه المشغِّل (فرداً كان أم مؤسسة) لشخص بصفة منتظمة. وتطلق كلمة (appointement) على الأجر المحدد شهريا أو سنويا والمرتبط بمكان أو عمل منتظم (خاصة بالنسبة للمستخدمين). وكلمة (émolument) على الامتياز أو الدخل العائد على شخص بصفة منتظمة، وما يحصل عليه الوارث أو المُوصَى له من مالٍ والزوجة من نفقة، أو المأمور القضائي مقابل عمل... وكلمة (traitement) على الأجر الذي يُعْطَى لموظف (كل 12 يوما أو شهريا)، والربح العائد من عمل منتظم. وكلمة (Honoraires) على ما يُمنح لأشخاص يمارسون مهنة حرة مقابل خدماتهم. وكلمة (Paye) على راتب الجنود والعمال خاصة. و(Solde) على أجر =

Gloriette التي تقال في الشرق وestaminet التي تقال في الشمال)(و) أو في عصور مختلفة. ومن أجل أن يوضح ف. برينو تشابك الجوانب العديدة للمفهوم الواحد مثل مفهوم المَزْج والخلط، كتب يقول : «بينما تفصل الكيمياء بين (mélange) و(combinaison) نجد الألسنة التقنية تفصل بين (alliage) و(amalgame) وتستعمل الصيدلة (Mixtion) والاقتصاد السياسي (La fusion) والحملات الانتخابية (Panachage) وفي اللسان الدارج نقول : (une mixture). فإذا تدخلت فكرة الفوضى في هذا المَزْج قلنا : (un fouillis) و(un pêle-mêle)، ولا يخلو الأمر من صور الخيال حين نقول : (une bouillabaisse, une salade, une macédoine, un salmigondis, un arlequin, un pandémonium...)»(ز).

إن أغلبية اللغويين الغربيين ينتمون اليوم ـ على الأقل من الناحية المبدئية ـ للمدرسة الاجتماعية، وكانت المدرستان الألمانية والسويسرية تنتجان ـ تأثرا بأعمال سوسير الذي كان ينادي بالتمييز بين التزامنية والتعاقبية من جهة، وبمدرسة الكلمات والأشياء من جهة أخرى ـ أعمالا قيمة نذكر منها على الخصوص المؤلفات النظرية لكل من ترير (Trier) وڤون ڤَرْتبورغ (Von Wartburg) التي قدمت لدراساتنا مساعدات قيمة، مع العلم أن أساتذة من أمثال ماريو روك (Mario Roques) وشارل برينو (Ch. Bruneau) وأنطوان دورافور (A. Duraffour) قد بيَّنوا، سواء خلال تدريسهم أم في مؤلفاتهم، أهمية المعجمية. وعلينا أخيرا أن نشير إلى أن فريقا من الباحثين الشباب الذين اجتمعوا حول السيد شارل برينو قد انكب منذ سنة 1942 على إنجاز دراسات منتظمة حول مفردات القرن التاسع عشر. وهذه الأعمال إذا نظرنا إليها من حيث الأصالة وجدنا أنها تكوِّن توجها جديدا في دراسة المفردات؛

= العسكريين، ومن باب التوسع على أجر بعض الموظفين المدنيين. و(Prêt) على ما تمنحه الدولة من أجل العيش، وأجرة جندي أو ضابط صف. و(indemnité) على ما يعطى لشخص تعويضا له عن ضرر أو خسارة، أو مقابل بعض الأتعاب (المترجم).

(و) فسر قاموس (P. Robert) الكلمة الأولى بالغُرفة الصغيرة أو الجناح الصغير في قصر أو حديقة، وبقفص العصافير يكون له شكل المقصورة، وشرح الثانية (estaminet) بالمقهى الشعبي الصغير (خاصة في الشمال) (المترجم).

(ز) ترجمة المعاني الأصلية لهذه الكلمات على التوالي هي : حساء السمك ـ سلاطة ـ مقدونية (طعام مكون من خليط من الخضر) ـ مخلوطة (طعام من بقايا اللحم) ـ رَقْعاء (ثوب مختلف الألوان كأنه مرقَّع) ـ العاصمة المتخيلة للنار (وتطلق مجازا على المكان الذي يكثر فيه الفساد والفوضى، والمكان الكثير الضوضاء) (المترجم).

وهي مفيدة، إلا أنها ينبغي أن تُسْتَكْمَلَ بمؤلفات ذات طابع منهجي وتعليمي في الوقت نفسه : مؤلّفات تعمل على تعميم ونشر بعض النتائج المتوصل إليها[17] وفي الوقت ذاته على وضع الخطوط العامة لمنهج قادر على أن يجنّب المعجميين في المستقبل أخطاء سابقيهم.

وهذه هي الغاية التي نسعى إليها في هذا الكتاب.

(17) علينا أن نذكر هنا كتاب مختصر علم الدلالة الفرنسي (Précis de sémantique française) لصاحبه س. أولمان (S. Ullmann) طبعة 1952 (Berne. Francke) الذي لم نعلم به إلا وكتابنا هذا تحت الطبع.

الفصل الثاني

موضوع المعجمية

اللفظ ومحتواه التصوري

1 ـ أصول الرمزية اللغوية

إن الفكر التصوري (La pensée conceptuelle)، حسب علماء النفس، مرتبط بوجود واستعمال نظام من الأدلة، أي بمنظومة رمزية (symbolisme)[1].

وأصول هذه المنظومة الرمزية نعثر عليها في مراحل الفكر البدائية جدا. فعملية الإحساس هي في حد ذاتها دليل، ولكنه دليل لا يفصح عن نفسه، ويحتاج إلى أن يُعبَّر عنه بالفكر[2]. وأما الرمز الحقيقي فلم ينشأ إلا في مرحلة جد متطورة وهي مرحلة النشاط المنعكس (activité réflexe). إن دراسة الانعكاسات المشروطة

---

(1) يفرق علماء النفس بين الرمز (le symbole) والدليل (le signe): ففي حين يكون الدليل اعتباطيا، نجد الرمز يعبر عن علاقة غير اصطلاحية. فألوان الراية دليل، والحركة التي يقوم بها شخص محاكيا وضع الصليب رمز. والرمز بطبيعة الحال يمكن أن يدل على أشياء عديدة في وقت واحد، ويمكن أن يكون واضحا أو غامضا. ونموذج الرمز الغامض هو الرمز البوديليري الذي يعبر عن علاقة شبه قوية، ولكنه ذاتي. (أنظر : Dumas : Nouv. Traité de psych, T. 4, p. 272).

(2) حول تبادل المواقع (Transposition) في الإحساس (من نوع : couleur chaude, son aigre إلخ...) الذي له طابع رمزي، إقرأ : (G. Dumas) مرجع مذكور ج 4، ص. 272

ملاحظة المترجم : المعنى الحرفي لقولهم في الفرنسية son aigre هو: صوت حازر شديد الحموضة؛ والمقصود: صوت حاد ـ فاستعمل لفظ خاص بحاسة الذوق لحاسة السمع. والمعنى الحرفي لقولهم (couleur chaude) هو : (لون حام أو ساخن)؛ والمقصود: لون مثير ـ فاستعمل لفظ خاص بحاسة اللمس (حام ـ ساخن) لحاسة البصر. وهذا هو تبادل المواقع في الاحساس المقصود هنا في كلام المؤلف (م).

(réflexes conditionnés)[3] تفيدنا بأنه في بعض الحالات يمكن لمنبّه أن يصبح رمزا لمنبّه آخر يحل محله. ونفس خصائص الدليل (signe) أو العلامة (signal) نجدها في الغريزة التي يمكن اعتبارها بمثابة شكل أو صورة للذاكرة : ذاكرة التجربة الفردية، كما نجدها أيضا في العادة (l'habitude)... إلخ. والانفعالات نفسها يعبر عنها بالحركات التي هي أدلة[4].

على أنه ينبغي أن نلاحظ وجود هوة بين العلامة (signal) في عالم الحيوان والدليل الموضوع في عالم الانسان تعبيرا عن غرض معين، وذلك ما نراه عند الشعوب المتخلفة نفسيا. فعند هذه الشعوب نجد لغة الحركات تصاحب لغة التكلم[5]. ولعل لغة الحركات تكوّن مع الصراخ ذكرى «لغة الفعل» التي ربما كانت أسبق من اللغة بمعناها الحقيقي كما كان يرى كونديياك (Condillac)[6] : «إن التعبير الطبيعي يصبح رمزا بالدخول في عالم الأحكام وبالعمل الذهني الذي يجعل الفكر يطابق العمل المباشر والسريع. إن الدليل هو أداة للفكر الجاهز»[7].

---

(3) نحن نعلم أن الكلب يسيل لعابه حين نقدم له مادة غذائية؛ فإذا قدمنا له هذه المادة وأريناه في الوقت نفسه ضوءا أحمر ثم كررنا هذه التجربة مرات، فإن اللعاب سوف يسيل بمجرد أن يظهر الضوء الأحمر لعيني الكلب. ذلك هو الانعكاس (أو الارتكاس) المشروط. فالمنبّه (= الضوء الأحمر) يصبح دليلا لمنبه آخر (= ظهور اللحم).

(4) التعبير عن الغضب والخوف دليله الشروع في عمليات الهجوم والفرار.. إلخ.

(5) تقوم لغة الحركات بدور مهم عند بعض الشعوب، ولاسيما عند الهنود الأمريكيين: إذ تصبح أحيانا مفضلة لديهم على اللغة الشفوية (اقرأ : Levy-Brühl : Fonctions mentales, p. 177). وهذه اللغة يمكن أن يعبر عنها بواسطة كتابة تصويرية. وقد أعطى دونيكر (Deniker) في «**أجناس وشعوب الأرض**» (Races et peuples de la terre, Paris. Schleicher, 1900, p. 166) مثالا عليها عند الهنود وهو المثال التالي : ويتعلق الأمر بعريضة قدمت سنة 1849 إلى رئيس الولايات المتحدة من رؤساء الشيبوايز (chippeways) يعلنون فيها امتلاك بُحَيْرات صغيرة واقعة جوار البحيرة العليا وتؤدي إليها إحدى الطرق. و«في تلك العريضة نجد الرسم الأول يرمز لرئيس المجموعة التي تقدمت بها. فطوطم (Totem) العشيرة في الرسم عبارة عن حيوان رمزي مرتبط بالأسلاف، وهو طائر الكركي، والحيوانات التي تتبعه هي طواطم المشاركين معه في تقديم العريضة. ونجد أن عيونهم كلها مرتبطة بعينيه للتعبير عن وحدة المشاعر، وعين الكركي الذي هو رمز رئيسهم الأول تمثل زيادة على ما ذكر نقطة الانطلاق لخطين اثنين : الأول متجه نحو رئيس الولايات المتحدة (دليل المطالبة أو الالتماس) والثاني نحو البحيرات (موضوع الالتماس) ... إنه مثال للرسم الذي اشتقته الكتابة التصويرية أو الهيروغليفية عند المصريين والصينيين والميكسيكيين»

(6) Condillac, Essai sur l'origine..., p. 118

(7) Delacroix, in. Dumas : Nouv. Traité, p. 144

لقد عمل علماء النفس غاية مستطاعهم من أجل تحديد طبيعة المسار الذي يبدأ بالفكر وينتهي بالدليل الذي هو الكلمة[8]. وأثناء الانتقال من (الفكر المَحْض) إلى (الفكر المُطبَّق) تحدث وَقَفات بعضُها قصير وبعضُها طويل. يتحدد فيها الفكر ويبرز فـي شكل أدلَّة. لقد أوضح كل من وليام جيمس ومدرسة فُورْزبُورغ (Würzburg) وبيني (Binet) أن الصُّورة الذهنية كانت رمزا، وبيَّن لنا دولاكروا (Delacroix) أنه بين الرمز والكلمة لا يوجد إلا فرق في الدرجة : فـ «كثير من الصور التي نستعملها لنفكر بها، حين لا نفكر إلا بالكلمات، هي... كلمات حقيقية، أي أدلة خرساء تصاحب أو تكمِّل اللغة لأن لها نفس الوظيفة. ومن هنا نرى أنه بالإمكان أن نفكر بالصور من غير كلمات وأن كثيرا من الناس يستغنون أحيانا عن بعض الكلمات. فالصورة تؤدي هنا الوظيفة التي تروَّضت كثيراً على تأديتها بصحبة الكلمة، لأن امتلاك مثل هذه **الصور ـ الأدلة** التي لا تُستغل لذاتها بل لما تقوم بتمثيله، هو نتيجة حِسّ تلفظي في الأصل. ولكن الصورة جديرة بالقيام بهذه الوظيفة لأنها أصلا رمز»[9]. واللغة قبل كل شيء وظيفة رمزية[10].

إن حياة المجتمع وحدها هي التي جعلت الإنسان يعطي قيمة زائدة لتعبير الانفعالات، وللحركة، والصراخ. ولعله بدون المجتمع لم تكن هذه الأشياء قد استطاعت أن تتحول إلى أداة للاتصال أي إلى أدلة بمعناها الحقيقي.

إننا في المستوى الأدنى من اللغة، نلاحظ أن الانفعالات تخضع لتنظيم جَمْعي وتكييف اجتماعي. بالفعل، هناك «في بعض الظروف مجموعة رمزية بشكل دقيق يعمل الطُّقوسيُّون على تثبيت وتدعيم صحتها... فطقوس الحزن، وحركات الألم، مثلا، ليست مجرد انعكاسات فَسْلَجِيَّة أو نفسية. إنها في وقت واحد طقوس احتفالية تحكمها قواعد وكلمات وصيغ في لسان منظم مُمَنْهج»[11].

(8) سيلاحظ أننا خلال هذا الكتاب نفرق بشكل تعسفي بين «الفكر» و«الكلمة». إن ضرورة التبسيط والرغبة في عدم المغامرة في المجال الخاص بعلماء النفس هما اللذان دفعانا إلى استعمال ثنائية ليس لها أساس.

(9) دولاكروا (Delacroix) : **اللغة والفكر**، le langage et la pensée, ص. 105.

(10) انظر Cassirer: Philosophie der symbolischen formen الذي يورد نصوصا عديدة في جزئه الأول.

(11) **اللغة والفكر**. وانظر حول القيمة الاجتماعية للدليل : موص Mauss في (Journal de Psychologie 1924) وميرلو بونتي (Merleau-Ponty) في : فينومينولوجية الإدراك (Phénoménologie de la perception, p. 220-222). وقد لاحظ سوسير جيدا تعقيد مفهوم الدليل هذا حين قال : «نطلق اسم دليل على الشيء المؤلف من التصور والصورة الإصغائية، ولكن في الاستعمال العادي يدل هذا اللفظ =

إن اللغة بدورها هي استعمال منظم للرمز؛ وقد كتب دولاكروا يقول : «من أجل أن تصبح اللغة شيئا ممكنا، يجب إحداث نظام من المفاهيم القائمة على علاقات. ومن أجل أن يكون هناك دليل ينبغي وجود نظام من الأدلة يستند على هذه المفاهيم وهذه العلاقات». إن المنظومة الرمزية الواحدة تكون أساسا لآلية اللغة وآلية التصور معاً. «اللغة هي لحظةُ تأسيس الأشياء في النفس... وكل فكر يقوم ببناء الأدلة والأشياء في وقت واحد» (المرجع السابق، ص 579).

لقد حذفت الإنسانية من اللغة البدائية المؤلفة من الأصوات والحركات هذه الأخيرة (أي الحركات) حَذْفاً نهائياً تقريباً. فلغة التعبير بالحركات لم يعد لها سوى دور قليل الأهمية (باستثناء الحالة المعاكسة تماما، وهي الحالة التي تصبح فيها وسيلة تعبير عند الصم البكم). ولقد تم إيثار لغة الأصوات، لأنها أكثر غنىً وأكثر قابلية للتعبير عن أدق الأمور؛ وأمكن التساؤل عما إذا كانت هناك خاصية فَسْلَجِيَّة، كثَراء النظام الصوتي عند الإنسان، قد أسهمت (مثل شكل اليد، والوقوف عمودياً... إلخ) في تحديد عنصر من العناصر الأساسية في الحياة النفسية للإنسانية.

2 ـ وجـــود الـكـلـمـة

كان سوسير يفرق بين اللسان (langue)، وهو المظهر الذي تتجلى فيه اللغة (langage) أو «مجموعة المُواضعات الضرورية التي اتخذتها الهيئة الاجتماعية من أجل ممارسة اللغة عند الأفراد» (م.ع.ل.ع.، ص 25)، وبين الكلام (la parole)، الذي هو فِعْل فَرْدِي «يحسن أن نتبيَّن بداخله : 1) التأليفات التي بواسطتها يستعمل الفرد المتكلم النظام الرمزي للسان تعبيراً عن أفكاره الشخصية، 2) الآلية النفسية التي تبيح له أن يبرز هذه التأليفات بشكل ظاهري». (م.ع.ل.ع.، ص 31).

ولما كان دولاكروا قد اعتبر تحليل سوسير تحليلا قاصرا، فقد ميَّز بين أربعة مظاهر في العملية (انظر : **التحليل النفسي للوظيفة اللسانية** = Analyse

= بصفة عامة على الصورة الإصغائية وحدها. مثال ذلك كلمة arbor (= شجرة). إننا ننسى أنه إذا كانت arbor تسمى «دليلا» فليس ذلك إلا لكونه يحمل تصور «شجرة» بحيث إن فكرة الجزء المحسوس تستلزم فكرة المجموع. ولعله يزول الغموض إذا سمينا المفاهيم الثلاثة الموجودة هنا (دال ـ مدلول ـ دليل) بأسماء كلّ واحد منها يستدعي الآخر. ونحن نقترح الاحتفاظ بكلمة «دليل» من أجل المجموع، وتعويض كلمتي «تصور» و«صورة إصغائية» على التوالي بكلمتي : «مدلول» و«دال» (محاضرات في علم اللغة العام، (C.L.G)، ص. 101–102).

(psychologique de la fonction linguistique ؛ وليس من مهمتنا أن نناقش قيمة هذه التقسيمات والتصنيفات التي ليس لها في نظرنا سوى أهمية ثانوية[12]؛ فسوف لن نهتم في هذا الكتاب إلا باللغة (le langage) والكلام (la parole). وبصفة جد محددة، سنهتم بمظهر خاص في **اللغة واللسان**، ألا وهو **المفردات**.

وهناك سؤال ينبغي طرحه قبل كل شيء، وهو: هل تعتبر دراسة المفردات دراسة مشروعة ؟ أليست اللغة عبارة عن كلٍّ مجموع، ومن الخطورة أن نفك ارتباط عناصره، لاسيما حين يتعلق الأمر باقتراح عَزْلَ العنصر الذي يُبدي بصفة خاصة أقل ما يمكن من الاستقلالية ؟ فقد نقول عن الأصوات والتركيب (ويمكن أن نضيف الأسلوب) إنها حقائق... ولكن، هل يمكن ذلك بالنسبة للكلمات ؟.

إن مفهوم الكلمة غير واضح، ولا ينبغي أن ننخدع بالفصل الذي يَحدُثُ بين الكلمات أثناء الكتابة[13]، فهذا الفصل لم يكن موجودا على الدوام : إذ نحن نعلم أن الإغريق كانوا يصلون ما بين الكلمات، وأن الرومان هم أول من استعمل النقط للفصل بينها؛ وفي «الواقع إن الكلمات، سواء أكانت منفصلة عن بعضها أم لم تكن، ليست مستقلة بذاتها لا صوتيا ولا دلاليا»[14]. وهذا يبدو صحيحا إذا نظرنا إلى العملية التلفظية داخل الشعور : ففي هذه المرحلة لا تكون الكلمة ــ كما سنرى ــ إلا عنصرا من عناصر الترابطات الصوتية والتصورية. ويصح هذا أيضا حين ننظر إلى الكلمة في سياقها المزدوج الصوتي والدلالي[15]، وهو ما سنقوم به الآن وبشكل مختصر جدا.

1 ــ في لغة الطفل : لا تقوم الكلمة بأي دور. ونحن نعلم أن الإدراك عند الشخص البالغ تلفيقي (syncrétique) أي أنه يعمل بطريقة إجمالية، وبواسطة

---

(12) انظر : هوليمان (مرجع مذكور) الفصل الثالث الذي يورد فيه عددا من النصوص.

(13) علينا ألا ننسى ــ كما يقول فندريس (اللغة، ص. 368) ــ أنه «قبل كتابة الكلمات بدأ الناس بكتابة الأفكار» .

(14) ماييه (ل.ت.ل.ع) Meillet : (L.H.L.G) T. 2, p. 10

(15) يميز سوسير بين العلاقات النظمية (Syntagmatiques) التي تنتج عن ترابط الألفاظ في السلسلة الكلامية، وبين العلاقات الترابطية (associatifs) القائمة بين جميع العناصر التي تتألف منها الألفاظ (م.ع.ل.ل.ع.،ص. 170)؛ وقد لاحظ علماء النفس أنه عندما كان يتم إضعاف الموضوع (الفكرة) كانت العلاقات الخارجية (extrinsèques) (وهي المشابهات الصرفية والصوتية) تتغلب على العلاقات الذاتية (intrinsèques) (وهي الدلالة).

خطاطات تعبر في مجموعها عن الصفات الجشطالتية (Gestaltqualität)[أ] للأشياء قبل تحليلها. واللغة تستعمل طريقة مشابهة : فالجملة التي هي العنصر الإجمالي سابقة للكملة، وأما **المَعْجَمَة**[ب] (Lexicalisation) ــ وهي ظاهرة تحليلية ــ فلا تمثل في اللغة إلا جانبها اللاحق. إن الأهالي في بعض قبائل أفريقيا والجُلاَهِيِّين (les Golahs) في ليبيريا على سبيل المثال، لا يعرفون للكلمة وجودا : فهم ينظرون إلى لغتهم على أنها ظاهرة مُجْمَلة، ولذلك لم يُفَرْدِنوا[ج] (individualisent) الكلمة داخل الجملة. وفي عملية الاستدلال العقلي عند الطفل ولغته، نجد الخِطاطة[د] ــ أي العنصر التلفيقي ــ تقوم بدور أكبر بكثير مما هو عند البالغ. فعند الطفل نجد أن الجملة، التي تمثل الحقيقة الأساسية، ليست مُحلَّلة ولا مقسَّمة إلى كلمات. والطفل لا يُتعب نفسه بحثاً عن كلمة ــ داخل خطاب ــ لا يفهمها، بل يفكر بطريقته الأنانية والمُجملَة، ولا يتوقف عند الكلمة التي يجهلها ؛ والفراغ الذي تتكون منه هذه الكلمة يُفسَّر عنده بواسطة الخِطاطة التي هي الجملة (انظر: بياجيه، **اللغة والفكر عند الطفل**، ص 194 le Langage et la pensée chez l'enfant).

2 ــ من الناحية الصوتية : لا نجد للكلمة إلا قدرا ضئيلا من الاستقلال الذاتي، لدرجة أنه يمكننا أن نزعم أن ليس لها إلا وجود نظري. إن الكلمة «تذوب

(أ) الجشطالتية أو الجشطالطية، من الكلمة الألمانية (Gestalt) التي تَعْني الشكل أو الصورة. ونظرية الجشطالتية أو نظرية الأشكال والصور هي «في الأصل نظرية نفسية تذهب إلى أن الظواهر النفسية وحدات كلية منتظمة، لها من حيث هي كذلك خصائص لا يمكن استنتاجها من مجموع خصائص الأجزاء. ومعنى ذلك أن إدراك الكل متقدم على إدراك العناصر والأجزاء، وأن خصائص كل جزء متوقفة على خصائص الكل. مثال ذلك أن الطفل يدرك الحيوان من جهة ما هو كل لا من جهة ما هو مركب من أجزاء. فإدراك الكل إدراك مباشر، أما إدراك الأجزاء فهو إدراك مكتسب ناشيء عن التجريد والتحليل» عن (المعجم الفلسفي للدكتور جميل صليبا ــ دار الكتاب اللبناني، ط. 1، سنة 1971) (المترجم).

(ب) تحليل الجملة أو السلسلة الكلامية إلى عناصرها المعجمية. وكل عملية معجمية فهي مَعْجَمَةٌ. ويمكن أن نشتق منها فعل مَعْجَمَ يُمَعْجِم أي قام بهذه العملية (المترجم).

(ج) أي حقق فَرْدَانيَّة الكلمة أو منحها الصفات الخاصة التي تنفرد بها وتحقق ذاتيتها. وما دمنا نستعمل منذ قديم في العربيةُ كلمة «فردانية» فلماذا لا نستعمل الفعل «فَرْدن يُفَرْدن» على غرار «شَخْصَن» التي استعملت حديثا أيضا ؟ (المترجم).

(د) الخِطَاطَة (Le schéma) هنا لها معنى فلسفي، وهو «الطريق الذي يتخذه الخيال من المعقول إلى المحسوس، أو المنهج الذي نتبعه لغاية تصور المحسوسات وفهمها حسب مقولات الفكر» (انظر : مصطلحات فلسفية ــ كلية الآداب ــ جامعة محمد الخامس ــ ط 2، الدار البيضاء، بدون تاريخ) (المترجم).

داخل السلسلة الكلامية التي يتم إرسالها»، وهي ليست سوى عنصر من عناصر الجملة، والكلمات الفرنسية يمكن حسب السياق والوسط المجتمعي المستعملة فيه أن ينطقها الشخص الواحد بأشكال متغايرة[16]. ونحن نعلم أن أنصاف المتعلمين، الذين لا يجهلون وجود الكلمات، يُقطِّعون الألفاظ في الكتابة تقطيعاً اعتباطيا كالآتي : (je tanvoi dézu par lotocar)(هـ)[17].

3 ــ **ومن حيث الدلالة** : زعم سوسير (م.ع.ل.ع.، ص 100) أن الدال (أي الصورة الإصغائية أو الشكل) والمدلول (أي التصور)(و) كانا متميزين، وأن الرابط الذي يجمع بينهما كان اعتباطيا، أي أنه ليس سوى ثمرة الاصطلاح الضمني الموجود بين أفراد الجماعة اللغوية. تُرى هل يقوم هذا التمييز إذن على أساس أم لا ؟ الظاهر أن الأمر يقتضي عند سوسير وجود الدال منفصلا ومستقلا عن المدلول(ز)، ولكن الفكر في واقعه لا يُعرف عندنا إلا بواسطة العبارة التي تؤديه. ودراسة العلاقات

---

(16) كلمة (fenêtre = نافذة) تنطق (fenètre) في بيت شعري كلاسيكي. وتُنطق (fnètr - fenètr) أو (fnèt)) إذا كانت قبل صامت.

(17) في الفرنسية الفصيحة كما في كلامها العامي وفي لهجاتها الاقليمية، يؤدي التقطيع الاعتباطي للكلمات الى ظاهرة الالصاق، مثل : (l'ierre) في (le lièvre) و(loriot) في (le loriot) و(l'évier) في (le levier) في الاستعمال الشعبي.

(هـ) وأما عند المتعلمين فتقطيعها هو : (je t'envoi des œufs par l'auto-car) (= أبعث إليك البيض بواسطة سيارة نقل).

(و) في الطبعة التي اعتمدناها في الترجمة، فسر المؤلف كلمة المدلول (Signifié) بأنه الصورة السمعية أو الشكل، وفسر الدال (Signifiant) بأنه التصور. وهذا عكس ما قال به سوسير في كتابه الذي ينقل عنه أعلاه (م.ع.ل.ع)، وقد اضطررنا لتصحيح هذا الخطأ الذي نعتقد أنه مجرد سبق قلم أو تطبيع (م).

(ز) الواقع أن كلام سوسير في كتابه الشهير (م.ع.ل.ع) عن العلاقة بين الدال والمدلول لا يُفهم منه أن أحدهما منفصل ومستقل عن الآخر كما يقول المؤلف، بل نجده يؤكد عكس ذلك غير ما مرة، وينبه إلى شدة التلاحم بينهما، حتى إنه رفض تشبيه العلاقة بينهما بالعلاقة بين الروح والجسد وذهب إلى أبعد من ذلك فقال: «وكثيرا ما شبهوا هذه الوحدة التي لها وجهان بوحدة الذات البشرية المركبة من الجسد والروح، لكن هذا التشبيه بين الأمرين لا يرضينا كل الرضى، ولعل الذهاب إلى تمثيلهما بمادة كيماوية مركبة كالماء مثلا يكون أقرب إلى الصواب. فالماء إنما هو توليف بين الهيدروجين والأوكسيجين، إلا أنك إذا اعتبرت كل عنصر من هذين العنصرين على حدة، لم تجد له أية خاصية من خصائص الماء (دروس في الألسنية العامة؛ تعريب صالح القرمادي وآخرين. ص. 161. ط. الدار العربية للكتاب. 1985). ثم شبه الدليل بالورقة وجعل الدال بمثابة وجهها والمدلول بمثابة ظهرها ولا يمكن تمزيق وجه الورقة دون تمزيق ظهرها والعكس بالعكس، وذلك كناية عن التلاحم القوي بين طرفي الدليل (ص 174 نفسه). وفي موضع آخر يقول : «لا وجود للكيان اللغوي إلا بفضل اقتران الدال بالمدلول .. وما أن نقتصر على أحدهما دون الآخر حتى يتلاشى ذلك الكيان ويضمحل» (نفسه، ص. 160) (المترجم).

بين الشكل والمعنى قد تتجاوز إطار عملنا[18]، ومع ذلك علينا أن نلاحظ أن أعمال علم النفس اللغوي المعاصرة تبدو كأنَّها قد أثبتت عدم وجود تعارض مطلق بين الطرفين كما يقول ل. ميرسون (L. Meyerson) : «لا نستطيع أن نتصور وجود شكل خالص دون دلالة، كما لا نستطيع أن نتصور فكراً خالصا لا يحمله أي شكل. إن مفهومي الدال الخالص والمدلول الخالص هما الغاية التي يمكن بلوغها، ولكننا في الواقع نكون دائما أمام مركبات دلالية»[19].

إن مفهوم الدلالة (signification) ليس بسيطا. فالكلمة، سواء أكانت حسية أم ذهنية، لها دائما قيمة مجتمعية قد تكون عقلية أو عاطفية. وبهذا الجانب من الدلالة على الخصوص تهتم المعجمية. لكن الكلمة ــ كما رأينا ــ ليست منعزلة داخل وعينا، فهي تُقيم مع مُجاوِراتها في السياق علاقاتٍ نظمية[20]. ولقد كتب ماييه يقول : «ليست الكلمة جزءا من التركيبات الثابتة: فقيمة الكلمة في مثل هذا المجموع لا تفسر عن طريق معناها الاجمالي أو العام ولكن عن طريق التعود على رؤيتها داخل بعض التركيبات»[21].

والكلمة، بعيداً عن السياق، ترتبط داخل الوعي بكلمات أخرى مشابهة لها في الشكل أو المعنى، وتلك هي العلاقات الترابطية. ويمكن أن نضيف إلى هذه العلاقات التي لها على الخصوص جانب ثقافي، وأحيانا عاطفي، روابط ذاتية خالصة. فلا ينبغي الحديث عن الحَبْل في منزل مشنوق، ولا عن الرئتين أمام مصاب بداء السل. إن الأصداء العاطفية، التي تؤلف ما كان وليام جيمس يسميه **هُدْب** الكلمة أو **هَالَتَها**، يمكنها في بعض الحالات أن تتنحَّى عن شعور الفرد المتكلم أو الكاتب؛ وفي بعضها الآخر تقفز إلى مقدمته. وذلك ما ينطبق على المفردات الشعرية وكذلك الكلمات الشائعة التي شحنتها الانفعالات بشحنات عاطفية : لنحاول اليوم تعريف كلمات من مثل : **مقاومة ــ فاشستي ــ بروليتاريا ــ ديموقراطية ــ حرية** ... إلخ[22]، ولنحاول ذلك حتى بالنسبة لكلمة مثل «**حق**» التي لها معنى عقلي محاط

(18) انظر حول رأي سوسير ص 69 هامش 11 أعلاه.

(19) Fonc. Psych., p. 110.

(20) C.L.G., p. 170 (م.ع.ل.ع).

(21) L.H.L.G., T. 2, p. 10 وهذا ينطبق على الكلمات المستعملة في تراكيب محفوظة، فمن ذا الذي يفكر في المعنى الخاص بكلمة (agréer = تقبَّل) في التركيب التالي : (Veuillez agréer l'assurance de)

(22) لذلك اقترح ف. فولهان (F. Faulhan) في: "**ما معنى الكلمات** ؟ " Qu'est-ce que le sens des mots ? المنشور بـ : (Journal de Psychologie, 25, p. 289) أن نميز بين **المعنى** (sens) **والدلالة**

بهُذْب من الدلالات[23]. ثم إن تعدد معاني الكلمة يفسر صعوبة الترجمة من لسان إلى آخر: فالأهداب لا يحاط بها بدقة[24].

من جهة أخرى يمكن للكلمة، أو على الأصح للصورة الإصغائية والصرفية، أن تعبر عن تصورات جد مختلفة. ففي اللسان الذي يتألف من كلمات قصيرة، مثل الفرنسية، يقوم تعدد معاني عدد كبير من «الكلمات الصرفية» بدور مهم؛ وبفضله تصبح التجنيسات أمرا ممكنا. فالوعي الشعبي قادر - كما نعلم - على التقريب بين الكلمات المتشابهة شكلا والمتباينة معنى؛ كما يقوم الاشتقاق الشعبي بترجمة هذه القرابة المفترضة التي قد تستطيع بشكل من الأشكال أن تغير معاني الكلمات المتقاربة[25]. ألا يقودنا تعقيد مفهوم الدلالة إلى إنكار وجود الكلمة ؟

= (signification) قائلا : «إن **معنى** الكلمة يبدو لنا إذن كأنه شيء مركب ليست **الدلالة** إلا جزءا منه... **والدلالة** هي أي مفهوم تعتبر الكلمات والجمل أدلته المباشرة. إنها - افتراضيا على الأقل - ينبغي أن تكون، وبشكل محسوس، شيئا واحدا في نظر المرسل. ولا تتغير من شخص لآخر. فكلمة «أب» بصفتها تدل على درجة معينة من القرابة تحتفظ بالنسبة للجميع بدلالة واحدة، ولكن ليس لها نفس المعنى بالنسبة للطفل المدلَّل والطفل السيء المعاملة... ولربما فهمنا جيداً الفرق بين «المعنى» و«الدلالة» إذا رأينا كيف أن جزءا من **المعنى** يمكن أن يؤلف **دلالة** جديدة. نحن مثلا ندل بكلمة (أب) وبشكل شائع على شخص طيب لم يكن له ولد قط».

(23) كلمة «حق» Droit ومدلولها القانوني لم يُحدَّدا بما فيه الكفاية. انظر ميرسن Meyerson في (cheminement de la pensée, p. 532 : **مسيرة الفكر**).

(24) كان منطق بور رويال (La logique de Port-Royal) قد لاحظ هذا منذ زمن طويل حين قال : «يحدث في الغالب أن تثير كلمة، زيادة على الفكرة الرئيسية التي نعتبرها هي الدلالة الخاصة بهذه الكلمة، كثيرا من الأفكار الأخرى التي يمكن أن نقول عنها إنها ثانوية. وهي الأفكار التي لا ننتبه إليها رغم الانطباع الذي يحصل في النفس عنها... وأحيانا لا تكون هذه الأفكار المكملة مرتبطة بالكلمة عن طريق الاستعمال العام ولكنها تكون قد اقترنت بها فقط عن طريق الشخص الذي يستعملها» (انظر : La logique ou l'art de penser، ط 5، ص. 125-127 نقلا عن ل. ميرسن، مرجع سابق، ص. 92).
وقد أورد قاموس ليطري (E. Littré) آراء قريبة من هذا (انظر هذا القاموس، المقدمة، ص. 16) فقال : «تتجه الكلمة، وهي بين الأصابع التي تتحكم في استعمالها بمهارة، تارة نحو هذه الدلالة وتارة نحو أخرى. ودون أن تفقد شيئا من قيمتها الذاتية ومن خاصيتها الحقيقية تظهر بها معانٍ قد لا يشك في أصالتها أحد. إننا نشعر بأن الكلمة التي تبدو أكثر بساطة وربما أقول أكثر انسجاما، تنطوي بداخلها على معانٍ دقيقة متعددة تظهر عند الاستعمال ويستفيد منها اللسان».

(25) يقدم **أفلاطون** في **محاورته** بعض العيّنات من الاشتقاق الشعبي التي كثيرا ما تمت مناقشتها من أجل معرفة ما إذا كان من المناسب حملها محمل الجد، ولا يهم كثيرا إذا كانت هذه العيّنات تعطي انطباعا حقيقيا عما كان يحسه الأثيني الذي يتكلم لسانه الخاص. ففكرة تفسير اسم «الحب» باسم المفعول وهو «المحبوب» تثير بحق مؤرخ اللسان. إنه اشتقاق من المستحيل تأييده. ولكن إذا كانت الكلمة تستدعي اسم المفعول الذي هو «المحبوب» في وعي الأثيني، فإن هذا الأخير هو الذي يكون على صواب =

أليست الكلمة مجرد طريقة سهلة لتعيين ما ليس سوى لحظة مهملة داخل مسار تشكيل الفكر، أي مجرد جانب قليل الأهمية من جوانب سلسلة الترابطات الصوتية والتصورية ؟ ألا تكون الكلمة تجريداً ؟ سديما فكريا ؟[26].

علينا ألا نكون مخدوعين بالكلمة التي لا يناسب أن نجعل منها أقنوما، ولا بالأحكام القاسية جدا التي نصدرها عليها. إن الكلمة موجودة، وكما يقول سوسير: «.. الكلمة، رغم صعوبة تعريفها، هي حَدٌّ من الحدود التي تفرض نفسها علينا، وشيء مركزي في آلية اللسان». وحتى لو كانت الكلمة مجردة من الوجود الموضوعي الملموس، هل من المعقول أن ننفي حقيقتها ؟ إن الكلمة لها وجود مجتمعي : فهي قبل كل شيء **فعل اجتماعي**[27]؛ والدليل ــ الذي هو الكلمة ــ شيء مجرد واعتباطي ومتحرك؛ ولكن «بما أننا نحدد المعنى المتحرك لهذا الدليل، ونعهد إليه بموجب ذلك بحقيقة معينة، فإننا ننجح في التحكم فيه وكأنه واقع ملموس، وجَعْله في خدمة التقدم الفكري»[28].

على أن العلم له الحق في أن يمنح الكلمة استقلالا ذاتيا حتى ولو كان هذا الاستقلال لا يظهر عمليا بوضوح. إن الكلمة ــ كما رأينا ذلك ــ لها جوانب صرفية

= رغم أنف الاشتقاق. وعلينا أن نسجل باهتمام شهادة أفلاطون حول العلاقة التي كان قد وقع الاحساس بها بين الكلمتين (انظر: Vendryes in : Ps.L., p. 176).

ملاحظة المترجم : جاء في محاورة أفلاطون المسماة (محاورة المائدة أو في الحب) تعريب سامي النشار ط 1970 على لسان سقراط قوله: «إن الحب هو المحبوب لا المحب...» ويقصد المؤلف (جورج ماطوري) بهذا المثال أن يوضح أن مخالفة القياس لا تكون دائما دليلا على الخطإ: فقد يأتي اللفظ على غير قياس ومع ذلك فهو صحيح، لأن المرجع الأسمى في الحكم على الفعل اللغوي بالصحة أو الخطإ هو المجتمع الذي يستعمل اللغة. وهذا معناه أن اللغة تؤخذ رواية وسماعا ولا يلجأ إلى القياس والاستنباط إلا في انعدام المسموع (المترجم).

(26) دولاكروا، **اللغة والفكر**، ص. 395.

(27) بتأكيد سوسير الفرق بين الدال والمدلول قام ضمنيا ضد رأي الإغريق الذين كانوا يعتقدون أنهم يلاحظون وجود مناسبة [=علاقة] بين الكلمات والأشياء وبين الأصوات والتصورات. ولكن كما قال ذلك بحق السيد هوليمان (مرجع مذكور سابقا، الفصل 5) فإن خطأ الإغريق ظل قائما عنده في ادعاء «وجود مناسبة سابقة. إن سوسير، عوض أن يتحدث عن الفعل الحقيقي للخطاب والتواصل الاجتماعي، تمسك بما كان عليه الاغريق. لكن أقام مقام الخاصية الطبيعية خاصيتي الاعتباطية والمواضعة، فظل في مستوى تجريدي بعيداً عن الواقع». والواقع هو «أن المناسبة ليست طبيعية ولا اعتباطية، إنها اجتماعية».

(28) م.ع.ل.ع. ص. 189.

وتركيبية وأسلوبية... الخ. والمعجمية بإهمالها لهذه الخصائص الثانوية، ستقوم في الواقع بتقطيع يسمح لها بعزل الوظيفة الدلالية للكلمة من أجل دراستها جيدا[29].

3 ـ الكلمة والفكر

المشاكل التاريخية :

زعم اللسانيون، الحَذِرُون من تجاوز الحدود التي يرسمها لهم العلم الذي يشتغلون به، أن مشكلة أصل اللغة لا تهمهم[30]؛ ولم يهتموا قط ببحث العلاقات بين الكلمة والفكر بدعوى أن هذه الدراسة من اختصاص علم النفس.

ومع ذلك، فإن هذه القضية الأخيرة لها فائدة لغوية. وقبل عرض الأفكار الحديثة في الموضوع، رأينا من المفيد أن ندرس باختصار الطريقة التي وقع بها في الماضي تناول العلاقات بين الفكر والدليل اللغوي وهو ما سيقودنا إلى تقديم نظرة تاريخية سريعة حول نظريات أصل اللغة.

هناك طريقتان يمكن بهما دراسة هذه النظريات: الأولى: هي بلا شك تقسيمها بحسب ما بينها من صلات دون اعتبار تواريخها؛ والثانية: تقوم عكس ذلك على الترتيب التاريخي.

وقد اخترنا هذه الطريقة الترتيبية :

الترتيب الزمني : نظرة تاريخية سريعة حول علاقات الكلمة بالفكر

1 ـ في القديم[31]:

لاشك في أن من القضايا الأساس في الفكر الإغريقي تلك القضية التي يطرحها تعدد معنى كلمة Logos (= لوغوس) التي تعني في الوقت الواحد العقل

---

(29) ا. ميرسن، مرجع مذكور، ص. 246 حيث يقول : «ينبغي أن نكشف داخل الكتلة المختلطة والمضطربة من الواقع، منطقة (خيطا رفيعا) يمكن عزلها منه بشكل كافٍ لاجل تحديد مواصفاتها».

(30) Vendryses : Le langage (= فندريس : **اللغة**).

(31) سنجد في ص. 93 عددا من الاشارات حول الدور الذي كانت تقوم به اللغة في المجتمعات البدائية، وحول الفضول اللغوي في العصور الكلاسيكية القديمة. اقرأ المقالة القيمة التي كتبها السيد لوجون : (Le jeune : confer. de l'institut linguistique — Paris. Klincksieck — 1949).

واللغة[32]. **فاللوغوس** هو واحد من أهم موضوعات الفلسفة الأفلاطونية.

لقد رفض أفلاطون أطروحة بروتاغوراس وديموقرطس، اللذين كانا يريان أن اللغة هي نتيجة الاعتباطية والاصطلاح، وذهب إلى أن الكلمات تقلد طبيعة الأشياء (وهو الرأي الذي حاول تأييده في كتاب «**المحاورة**») عن طريق اشتقاقات عشوائية[33]، وأن اللغة هي الوسيط بين عالم الأفكار والعالم المحسوس. لقد ظن أفلاطون أن «الفكر لا ينشأ عن اللغة، ولكن اللغة هي التي تنشأ عن الفكر. ومن أجل القدرة على تسمية الأشياء ينبغي فهم هذه الأشياء». أما أرسطو، الذي قلنا إنه كان قد صاغ النظرية الحديثة الأولى في اللغة، فقد عارض أفلاطون. فعنده أن الكلمات ليست ظاهرة طبيعية. إنها اصطلاحية خالصة. والاسم لا يكون له وجود إلا حين يصبح رمزاً، أي رمزاً لما نطلق عليه «التمثيلات الجماعية» وليس رمزاً للحالات النفسية الفردية. أما الرواقيون الذين اهتموا اهتماما شديدا بمشكل اللغة، فقد أكدوا، مثل هيراقليطس، أن الفكر لا يكون له وجود ما لم يقع تحديده بواسطة الكلمة. فاللوغوس له مظهر داخلي وهو الفكر، ومظهر خارجي وهو الكلمة. أما الأبيقوريون، فقد كانوا سبّاقين إلى تناول الأفعال اللسانية من زاوية تاريخية مع تقديم حل نفسي للمشاكل المتعلقة بأصولها : «فلا أحد يستطيع أن يوزع الأسماء على الأشياء»، لأن اللغة نتاج الطبيعة. وقد أصبحت على الشكل الذي هي عليه بدافع حاجات الإنسان.

2 ـ العصر الوسيط :

لن تشدنا أفكار العصر الوسيط إليها كثيرا؛ فلقد أجاب القديس جريجوري دي نيس Grégorie de Nysse (القرن الرابع الميلادي) أولئك الذين كانوا يرون أن اللغة وحيٌ إلـٰهيٌّ، معتمداً على فقرة من سِفْر التكوين (الأصحاح 2، الآية 19) نجد

---

(32) انظر بريس باران (Brice Parain : Essai sur le logos platonicien). ففي هذا الكتاب سنجد (ص. 11) سردا طويلا لمعاني كلمة (لوغوس) المختلفة : كلمة ـ لغة ـ تحديد ـ برهان ـ عقل ... إلخ. وهذا التعدد في الدلالات يوضح بشكل كاف طبيعة العلاقات التي كانت بالنسبة للإغريق موجودة بين اللغة والفكر. ولعل الأعمال الجديدة بينت أن «لوغوس» لا يعني بالضبط «فكراً» ولكن يعني بالأحرى «الخطاب المنظم» وأنه «جزء من منطقة الفكر التي هي في الأصل شفوية، والتي هي من اللغة الداخلية» (Meyerson : Fonctions psychologiques, p. 87)

(33) انظر، ص. 75 مما سبق، واقرأ في هذا الموضوع : (Essai sur le Cratyle de V. Goldschmidt. Paris. Champion 1940).

فيها القول بأن آدم ـ وليس الخالق ـ هو الذي أعطى الأشياء أسماءها. وهذا الرأي سوف يسود طوال العصر الوسيط، وهو أن «الأسماء قد وقع النظر إليها بالخصوص من زاوية عموميتها وعلاقاتها بالأفكار العامة. إن تاريخ نظريات التسمية تاريخ يخص النحو ومنطق الكليات»(34). على أن المشكلة التقنية للكليات تتموضع داخل المشكلة اللاهوتية التي هي أوسع من «الأسماء الإلـٰهية»، أي طريقة التحدث عن صفات الله. فالكلمات التي من قبيل : **حب، عدل، حكمة، قوة عليا**، لها خصائص مزدوجة، لأنها تدل في الوقت الواحد على نقصان الإنسان وعلى كمال الله.

3 ـ القرن السابع عشر:

أ ـ **ديكارت** : لم يهتم كثيرا بمشكل اللغة: فعنده أن الفكر متقدم على الكلمة، ولكن الدليل الموضوعي ـ وهو الكلمة ـ هو البرهان على وجود الفكرة : «ما يجعل البهائم لا تتكلم مثلنا هو أنها ليس لها أي تفكير، وليس لأن الأعضاء تنقصها» كما يقول (œuv. éd. Adam, T. 4, p. 574). وقد حرص ديكارت على أن يكون مفهوما من الجميع، ولذلك تقبَّل الكلمات المعروفة التي يمكن أن توضع خلفها فكرة «واضحة ومتميزة» وتجاهل الأخرى (H.L.6/526). ولقد أظهر باسكال هذه اللامبالاة نفسها تجاه الكلمات(35).

ب ـ **التجريبيون** : يربط فلاسفة هذه المدرسة بين دراسة الكلمات ودراسة الأشياء. وقد كتب لوك (Loke) مقاوما **الأفكار الفطرية** الديكارتية، فقال : «ليس عندي شك في أننا لو استطعنا إرجاع كل الألفاظ إلى منبعها، لوجدنا أن الكلمات التي نستعملها في كل الألسنة للدلالة على الأشياء غير المحسوسة، قد استمدت أصلها الأول من أفكار محسوسة»(36). وهكذا نجد أن كلمة (esprit) (أي نَفْس بسكون الفاء) كانت تعني في البداية (نَفَس) (بفتح الفاء)، وأن كلمة (ange) (= مَلَاك) كانت تعني في الأول (رسول).

---

(34) Janet et Séailles (مرجع مذكور)، ص. 233 وانظر : Bréhier : Histoire de la philos (= تاريخ الفلسفة).

(35) الخاصية الاعتباطية للتسمية أثارت باسكال فقال: «لا شيء أسهل من أن نطلق على الشيء الذي حددناه تحديدا واضحا الاسم الذي يختاره بكامل الحرية. إلا أنه ينبغي أن نحذر من سوء استعمال الحرية التي لدينا في فرض الأسماء بإعطاء الاسم الواحد لشيئين مختلفين» (Pensées : éd. Brunsch. vieg. p. 166).

(36) نقلا عن (Janet et Séailles) مرجع مذكور، ص. 236

ج ـ **لايْبْنِيتْز** : يمكن اعتبار لايْبْنِيتْز واحداً من الذين أوجدوا علم اللغة. لقد ترك جانبا الرأيَ الذي كان سائداً وهو أن العِبْرية أم اللغات، ونادى بالدراسة المقارنة. وهو يعتبر «حكاية أصوات الطبيعة هي الأصل في ميلاد الكلمات. وهذا يتضح بالعلاقة الموجودة بين العناصر الصوتية للألفاظ والأشياء التي تدل عليها هذه الألفاظ»[37]. ولقد كانت عند لايْبْنِيتْز فكرة تدعو إلى وجود لسان أو بالأحرى وسيلةٍ للتعبير ذات طبيعة رياضية، بحيث يكون لكل تصور رمز خاص يدل عليه. وهذه الفكرة، فكرة اللسان العالمي، كانت موجودة من قبل عند ريمون لول (Raymond Lulle) في القرن السادس عشر؛ ولكنها كانت قائمة على أسس خيالية غير مضبوطة، فتلقفها لايْبْنِيتْز وقدمها بشكل منطقي. وهو يرى أن هذا اللسان المصطنع يشبه فن الاختراع: فهو في بعض النواحي عبارة عن لسان علمي مساعد.

4 ـ القرن الثامن عشر

أ ـ **كُونْدِيَاك** : يرى أن «الإحساس يتضمن كل قدراتنا؛ واستعمال الأدلة (signes) يزيد في هذه القدرات. فبين التحليل واللغة ليس هناك مجرد قرابة بل تطابق واتحاد»[38]. وإذا كانت الفكرة يمكن اختزالها في كلمة[39]، وكان الفكر مُرتبطا باللغة، فالعلم ليس إذن سوى لسان متقن الصنعة : «إذا لم تكن لنا تسميات فلن تكون لنا أفكار مجردة» (Logique. II, chap. 5)، ولن نستطيع أن نعقل شيئا. إن التصور اللغوي، والمنهج إلى حد ما، تحليليان عند كوندياك. فاللغة عنده لها أصل طبيعي (تغيرات الصوت لها علاقة بحركات الجسم): إذ وجدت في البداية «لغة الفعل» المركبة والمشوشة؛ وبعدها الكلام، الذي وجد حين استطاع الانسان أن يفكك فعله هو وفعل الآخر من أجل فهمهما جيدا[40].

---

(37) E. Bréhier : Histoire de la philosophie. T. 2. (I) p. 397 (= تاريخ الفلسفة)

(38) هناك آراء مشابهة نلقاها في مختلف العصور عند فلاسفة المدرسة الاسمية مثل هيوم وستيوارت ميل وطين (Taine). وقد كتب هذا الأخير في (De l'intelligence. T. II, p. 259) يقول : «إن الفكرة العامة والمجردة اسم وليست سوى اسم. والاسم الذي له دلالة ويفهم من مجموعة أفعال متشابهة يكون عادة مصحوبا بتمثيل محسوس ولكن غامض لواحد من هذه الأفعال أو هؤلاء الأفراد».

(39) نحن نعلم التأثير الذي مارسته أفكار كوندياك على ميلاد المفردات العلمية. فلقد تلقى جيطون دى مورفو (Gyton de Morveau) ولافوازيه (Lavoisier) تكوينهما على يد منطق كونديالك.

(40) لقد قام علماء نفسيون من القرنين التاسع عشر والعشرين بتمحيص أفكار كونديالك منهم ويندت (Wundt) ومارسيل جوس (Marcel Jousse) وبياجيه... الخ. انظر الفقرة الآتية بعنوان «**التحليل النفسي واللغة**».

ب ـ روسو (بحث في أصل اللغات) : كان روسو مقتنعا، مثل كوندياك، بأن اللغة لها أصل طبيعي. ولكنه، عكس كوندياك، كان يرفض أن يرى في التجارب الأولى للغة عملا تحليليا. يقول : «كانت اللغة الأولى مصوّرة. وكانت تعبر عن الانفعال الذي يحدثه الشيء وليس عن الشيء ذاته»[41]. إن روسو يعبر عن الفكرة التي نجدها في عصره عند ج.د. ميكايليس (J.D. Michaelis)، وبعد ذلك عند همبولد في ألمانيا، وهي أن الانسان يصوغ تصوره الخاص للعالم بواسطة هذا الشيء القومي الذي هو اللسان: «... إن النفس لها في كل لسان شكل خاص. وهذا الاختلاف هو الذي يمكن أن يكون بصفة جزئية السبب في وجود الخصائص القومية أو الأثر الناتج عنها»[42].

5 ـ من بولاند إلى دوركايم والماركسيين :

أ ـ بُولانْد : أبان بولاند (Boland) ـ بطل التقليدية والدين ـ عن أفكار مناقضة تماما لأفكار العصر السابق. وقد انطلق من المبادىء التي وضعها كوندياك، ولكنه عكس تأويلها. ويمكن تلخيص أطروحته على النحو الآتي : إن هذه الفكرة العقلانية التي تقول إن الفكر لا يمكن أن يعرف إلا بواسطة العبارة التي صيغ بها، فكرة تحوي علم الانسان كله. كما أن الحكمة المسيحية التي تقول : لقد أُخْبِرَ عن الله بواسطة كلمته، تَحْوي علم الإلـٰه كلّه[43].

ب ـ المدرسة الفلسفية : من ماكس مولر إلى رينان : لقد كان للتقدم الذي أحرزته الفيلولوجية المقارنة أن حمل اللسانيين على مراجعة نظرياتهم حول أصل اللغة. فاللغة، حسب ماكس مولر، ليست اختراعاً أو نتاج وحي إلـٰهي، ولكنها نتيجة الطبيعة. فقد كان على الإنسان أن يبدأ بأفكار عامة تعبر عن مفردة مجردة مكونة من مقطع واحد، وهي الفكرة التي قاومها كل من ميشيل بريال[44] ورينان

(41) Essais sur l'origine des langues. chap. 3 (= **بحوث حول أصل الألسنة**)

(42) Emille. I. 116

(43) (Législation primitive. Discours préliminaire) نقلا عن (Jaunet et Séailles) مرجع مذكور، (ص. 251). ولنذكر أيضا من هذا الكتاب نفسه لبولاند قوله : «الفكرة سابقة للفظ منطقيا، هذا صحيح، ولكن لا يتم الوعي بها إلا مع الكلمة وبواسطتها. إن الأفكار تعيش فينا كامنة غير مُدرَكة، وفي منطقة واقعة خارج الزمن، فتقوم الألفاظ، في توافق عجيب معها، وبنوع من الالتحام الذي تم من قبل، بفضيلة تحويلها إلى شيء قابل للادراك وحملها إلى نور الوعي».

(44) Mélanges de Mythologie et de linguistique, 1878

الذي نسب اختراع اللغة «إلى مَلَكات الانسان التي تعمل بشكل تلقائي، وبشكل جماعي»(45).

ج ـ **الفَسْلَجة واللغة** : تأثر داروين ـ من جهة ـ بدراسات ش. بيل الذي بيَّن أن الدليل ما هو إلا فعل في صورته الأولى، وتبنى ـ من جهة أخرى ـ نظرية تعود إلى لوكريس Lucrèce (انظر: De Nat. I. V. 1026)، وكان قد أخذ بها كل من همبولد والرئيس دوبروس (Président de Brosses)(ح)، فأصبح في بحثه حول ''**لغة العواطف**''، يجعل من نفسه مدافعا عن مذهب التحوُّلية اللسانية، ويرى أن اللغة قد تكون هي آخر مرحلة في التطور الذي نجد مظاهره الأولى في الأدلة الطبيعية، وهي صرخات الحيوانات، وغناء الطيور، وصرخات المولود الجديد؛ كما نجد آثاره المتأخرة في صرخات الانسان البدائي التي كانت تصاحب الحركة والفعل.

هذه الأطروحة التي نجدها أيضا عند هـ. سبنسر، كما عند اللسانيين أمثال شليشر(46) ويَسْپرسْن(47)، كان قد وقع تجديدها حديثا على يد علماء نفسانيين (أمثال جانيه Janet وبياجيه) يرون أن الرمزية اللسانية عند الطفل مشتقة من التعبير الإيمائي. وهو رأي يُعتقد اليوم أنه صحيح، ولكن يمكن أن يلاحظ عليه أنه اعتبر دراسة اللغة بمثابة علم من العلوم الطبيعية، وأهمل العنصر النفسي، بل وأكثر من ذلك أهمل العنصر الاجتماعي للغة.

د ـ **التحليل النفسي واللغة** : إن الكلمة التي ارتبطت في البداية بالحركة، كما بيَّن ذلك علماء الفَسْلَجة (= علم وظائف الأعضاء)، أصبح لها فيما بعد وجود مستقل. وتلك هي الفكرة التي يلح عليها التحليل النفسي. ويفسر فرويد سحر الكلمة فيقول : «الكلمة في الأصل جزء من الفعل. ويكفي وجودها لإثارة الانفعال التام به واستحضار معناه الملموس كاملا. ومن بين الكلمات الأكثر بدائية على سبيل المثال، نجد بطبيعة الحال صرخات الحب التي تُستخدم من أجل الشروع في الفعل

---

(45) Origines du langage. p. 90 (= **أصول اللغة**)

(46) Schleicher : Die Deutsche Sprache (1960); Die Bedurtung der Sprache (1963)

(47) Language (1922); Mankind, National and individual from a linguistic point of view (1925)

(ح) شارل دوبروس (Charles de Brosses) المعروف باسم (Président de Brosses) هو قاض وكاتب فرنسي توفي في 1777 م (المترجم).

الجنسي. ومنذ ذلك الحين، ظلت هذه الكلمات، وكل الكلمات التي تشير إلى هذا الفعل، محملة بقوة انفعالية مباشرة.

ومثل هذه الأمور هو الذي يفسر ذلك الميل العام في الفكر البدائي نحو اعتبار أسماء الأشخاص والأشياء والتسمية التي تُعطى للأحداث، في جملتها، بمثابة صفات لهذه الأشياء والأحداث. ومن هنا كان الاعتقاد بأنه من الممكن التصرف في هذه المخلوقات والأحداث بمجرد استحضار الكلمات. فالكلمة على هذا، ليست مجرد لافتة أو علامة، بل هي واقع مخيف وجزء من الشيء المسمى»[48].

حقا، ليست الكلمة في الذهنية البدائية مجرد دليل لغوي أو أداة. فالعالَمُ حسب هذه الذهنية إنما هو انعكاس للأنا، وهناك تطابقٌ بين الدليل وبين الشيء الذي يمثله الدليل. وإن تحريم أسماء الموتى الذي ينتشر بكثرة في المجتمعات القديمة، والذي هو البرهان على القيمة الكبرى التي تُعطى للكلمة، لَيَتَّسع في كثير من الأحوال حتى يشمل أسماء الحيوانات والأشياء التي تحمل ـ صدفة في الغالب ـ نفس الاسم المحرَّم الذي كان يحمله الشخص حَدِيثُ الوفاة. وهكذا يؤدي تشابه الأسماء إلى تحريمها جميعا. وقد بيَّن فرويد أن التفكير الطفولي يضفي على الاسم قيمة مماثلة. فالطفل يقارن تطابق اسمين أو تشابههما بتطابق الطبيعة أو تشابهها. وكذلك التفكير غير الواعي للبالغ يعطي بدوره للاسم أهمية كبرى. هذا مع علمنا بالدور الذي تقوم به التجنيسات في العديد من الأحلام. فالمصابون بالعُصَاب يقومون برد فعل «عن طريق مركب حساسية واحد حين سماع قول أو بعض كلمات أو أسماء. وكثير من اضطراباتهم يأتي نتيجة الموقف الذي يتخذونه من اسمهم الخاص»[49].

هـ ـ الكَنْطِيَّة اللسانية الجديدة : إن المدرسة الكَنْطِية الجديدة التي كان كاسيرر (Cassirer) ممثلها الأساسي، بنَقلها نظرية التركيب الموجودة في كتاب **نقد العقل الخالص** إلى مجال اللغة واستعمالها عدداً من أفكار همبولد[50]، تقترح علينا ألا

(48) Piaget : Le langage et la pensée chez l'enfant p. 10 (**اللغة والفكر عند الطفل**)

(49) فرويد «**الطوطم والمحرَّم**» : (Totem et tabou, Payot- 83). ويلاحظ المؤلف نفسه (المرجع نفسه، ص. 96) أن الازدواجية التي هي إحدى خصائص التدرج النفني للتفكير البدائي (التعايش، داخل المفهوم الواحد كمفهوم المحرَّم، بين عنصرين متناقضين : عنصر المقدس وعنصر النَّجِس) توجد في عديد من الكلمات المستعملة في الألسنة القديمة لتعبر عن مفهومين متضاربين.

(50) قال همبولد : إن أصدق تعريف للغة لا يمكن أن يكون تعريفا تكوينيا. فمن أجل فهم اللغة لا ينبغي الوقوف عند صورها وأشكالها، ولكن ينبغي البحث عن القانون الداخلي لهذه الأشكال والصور. وليس لنا

نرى في اللغة مجرد نسخة مطابقة للواقع، ولكن أن نرى فيها «قوة مبدعة أصيلة». إن الصور النفسية، التي نمتلكها بالمعرفة أو نحصل عليها في الفن أو اللغة، هي إذن بتعبير لايْبْنِيتْز «المَرَائِي الحيَّة للعالَم». إنها ليست مجرد عمليات استقبال أو تسجيلات سلبية ولكنها أفعال نفسية[51].

و ـ **علم النفس الشعبي (Volkespsychologie) واللغة** : إن المدرسة الألمانية ـ التي ظهرت في البداية مع همبولد[52] ثم أخذت مع لازاروس Lazarus وشْطايْنْطال Steinthal[53] اسم **علم النفس الشعبي** ـ، تقدّم اللغة على أنها المظهر الذي تتجلى فيه النفسية الجماعية «للروح الشعبية» (Volkesgeist). فمفردات كل شعب من الشعوب تعبر عن تصوره للعالَم. وقد حلَّل لازاروس جيداً دور الوساطة الذي تقوم به اللغة بقوله : «أنْ تجمع في الكلمة الواحدة مختلف الأحاسيس، وتمثل مجموع الحالة النفسية بواسطة لحظة من لحظاتها المفضلة: ذلك هو دور اللغة»[54]. ولكن لازاروس ليس من علماء الاجتماع وكذلك شطاينطال، ولذلك لم يدرسا الدور الذي تقوم به «الروح الشعبية» في مولد اللغة وانتشارها إلا بطريقة سطحية[55].

ز ـ **علم الاجتماع واللغة** : إن انفعالاتنا وقدراتنا على التعميم وكذلك تصوراتنا هي ـ كما أكد دوركايم ومدرسته (التي منها موص (Mauss) وليفْي ـ برول Lévy-Brûhl... إلخ) ـ من أصل اجتماعي : أي أن المجتمع هو الذي يستعمل الدليل ـ وهو الكلمة ـ من أجل إرسال الأفكار وبثها، وأنه بفضل التعميم الذي تقوم به

الحق في أن نعتبرها بمثابة شيء كان وانتهى، أو بمثابة حاصل أو ناتج، بل علينا عكس ذلك أن نرى فيها إنتاجا. (انظر : كاسيرر (Cassirer) : **اللغة وتكوين عالم الأشياء** Le langage et la construction du monde des objets, in Journal de Psychologie. 1933. reproduit dans. Ps.L. p. 22

(51) كاسيرر، مرجع مذكور، ص. 19. ومقالة كاسيرر هذه على جانب كبير من الأهمية.

(52) لنتأمل هذه الفكرة التي قال بها همبولد، وهي أن الفرق بين الألسنة «لا يأتي من الاختلاف في الأصوات والأدلة، بقدرما يأتي من الاختلاف في رؤية العالم» (انظر كاسيرر. مرجع سابق، ص. 20) ويمكن أن نقرأ في (دولاكروا Delacroix، ص. 33) عرضا مفصلا حول آراء جد مهمة لهمبولد.

(53) لنذكر لسطينطال (Ursprung der sprache. 1951) و(A Brio der Wissenschaft. 1971)

(54) (Lazarus : Leben der seele) نقلا عن دولاكروا، مرجع سابق، ص. 37.

(55) لن نشير هنا إلى مدرسة النحاة الجدد ومنها بروغمان (Brugmann) وديلبروك (Delbruck) ولِسْكيان (Leskien)، التي أكدت حوالي 1870 صلابة القوانين الصوتية، ولا إلى الاتجاه الذي ينتمي له عدد من اللسانيين أمثال بالي (Bally) وف. برينو الذين درسوا اللغة في ضوء علم النفس، ذلك لأن أعمال هؤلاء تنتمي إلى علم اللغة التطبيقي لا إلى علم اللغة النظري الذي ندرس هنا تاريخه ومبادئه.

اللغة، تتحول التمثيلات الملموسة والذاتية إلى تصورات مبهمة أو غير مشخّصة. ولقد تبنى عدد من اللسانيين (سوسير[56] ـ مايبه ـ ڤندريس) هذا المفهوم وبيّنوا أن اللغة كانت ظاهرة اجتماعية بارزة.

ح ـ **الماركسية واللغة** : لقد انتقد الماركسيون ـ بشدة ـ اللسانيات الاجتماعية. وسنعود في خاتمتنا للحديث عن المآخذ التي يؤاخذونها عليها والتي نعتقد أننا نجونا منها. والأساسي والخطير في هذه الانتقادات هو المتمثل في الآتي :

ففي تصور علم الاجتماع، تكون الأفعال الاجتماعية (واللغوية) «منفصلة تماما عن الشروط المادية للوجود وعن الانتاج الجماعي والعلاقات الاقتصادية. وهذه الأفعال تصبح معطيات اجتماعية مستقلة»[57]. والماركسيون لم يقعوا في هذا الزلل بطبيعة الحال، لأنهم يقولون «إن التفسير الذي يُعطى لتكوين اللغة انطلاقا من سياق العمل نفسه هو وحده الصحيح»[58]، ولأنهم ينظرون إلى الأفعال اللغوية على أنها لا تنتمي إلا للبنية الفوقية للتاريخ؛ وأما البنية التحتية فهي مكونة من الظواهر الاقتصادية. واللسانيون الذين تبنوا النظرية المادية يجدون صعوبة في تحديد علاقات البنية التحتية بالبنية الفوقية. وبعضهم كان مضطرا إلى الاعتراف لهذه الأخيرة بقدر كبير من الاستقلال الذاتي. لقد كتب ريزنيكوف (Reznikov) يقول : «إن الفكر واللغة لا يرتبطان بطبيعة الحال ارتباطا مباشرا بالإنتاج المادي إلا في المستوى الأكثر بدائية من تطورهما؛ وبعد ذلك ـ وهذه الحركة دائما تسير في تصاعد ـ يحصل الفكر واللغة على استقلال نسبي، ويصبح تكييفهما مع الحياة المادية للأشخاص معقدا شيئا فشيئا، كما يصبح لارتباطهما بالشروط والعلاقات الاقتصادية شكل متنوع وغير مباشر؛ ولذلك نستطيع القول : إذا كان تطور الفكر واللغة تحدده في النهاية الحاجة إلى الإنتاج المادي، فإن هذا التطور يجد نفسه في وقت واحد خاضعا ـ بطريقة مباشرة أو غير مباشرة وبكيفية واضحة أو ملتوية ـ لتأثير كل أشكال الحياة الجماعية

---

(56) انظر : دوروزيفسكي W. Doroszewski : **ملاحظات حول علاقات علم الاجتماع بعلم اللغة : دوركايم وسوسير** Quelques remarques sur les rapports de la sociologie et la linguistique : Durkheim et F. De Saussure, in Psychologie du langage. p : 82. et 92.

(57) ريزنيكوف Reznikov : **اللغة والمجتمع** : Langage et Société, in Cahiers int. de Sociol. VI, (1942), p. 155 .

(58) انجلز نقلا عن ريزنيكوف. مرجع سابق، ص. 157

وكل أنواع النشاط والإبداع الاجتماعيين؛ وكذلك فإن الفكر واللغة تحددهما مختلف الأشكال التي تُكتبُ بها الحضارة سواء أكانت روحية أم مادية»[59].

وفي مقالين منشورين بصحيفة «البراڤدا» أثناء شهر يوليوز 1950، نجد المارشال ستالين يتخذ بشكل رسمي موقفا من المسألة بإعلان القطيعة مع الوضع الذي تبناه مار (Marr) (توفي سنة 1934) وغالبية اللسانيين السوفيات[60].

إن ستالين يرفض بالفعل التسليم بأن اللغة تنتمي إلى البنية الفوقية[61]. إنها تقع (إذا صح تقديرنا) في منزلة وسط بين البنية التحتية والبنية الفوقية. ولنا أمل في أن يقوم اللسانيون الشيوعيون قريبا بتحديد وجهة نظرهم الجديدة، ويعملوا ـ خصوصا وبشكل أكثر مما مضى ـ على مجابهة النظرية الماركسية بحقائق اللغة : فالاحساس الموجود غالبا هو أن ما يؤكدونه من تفوق المنهج الماركسي ليس إلا إطارا لا علاقة له بلوحة اللسانيات التي يرسمونها بطرق وأساليب تتفق مع طرق العلم «البرجوازي» وأساليبه. وإن جهود الماركسيين التي قد تُبذل لتجاوز هذا الوضع البسيط جدا سوف يتابعها باهتمام كلُّ اللسانيين.

(59) ريزنيكوف، مرجع سابق، ص. 159

(60) يمكن أن نتحفظ إزاء بعض الآراء التي عبر عنها ستالين وخصوصا فيما يتعلق بالطبيعة البدائية للغة. فنحن نعتقد مثل بيير جانيه في (Les Débats d'intelligence, p. 31) أن الاستعمال الجيد للغة هو من خصائص الانسانية المتطورة جدا. وأما مثال البدائيين (الاستراليين مثلا) الذين يعرفون لغة متطورة فهو لا يدل على شيء إطلاقا، لأن هذه الشعوب ليست «بدائية» أبدا.

(61) سوف نستند من أجل التأريخ للمسألة إلى المقالة الهامة التي كتبها مارسيل كوهن بعنوان : **درس في الماركسية وعلم اللغة** : منشورة في مجلة La pensée، ع 33 نوفمبر ـ دجنبر 1950.

الفصل الثالث

موضوع المعجمية (تابع)

الكلمة ومحتواها التصوري (تابع)

1 ـ قيمة الكلمة

ما هو الرأي الذي يمكن تكوينه في هذا العصر حول مشكل كثير التعقيد وكثيرا ما نُوقش، وهو مشكل العلاقات بين اللغة والفكر ؟

لقد حاول علماء النفس أن يهتموا بتحديد «لحظات» داخل «التعبير الكلامي عن الوعي». وكان بُولاند يؤكد أسبقية الكلمة على الفكرة، في حين كان بعض العلماء يرى ـ عكس ذلك ـ أن الفكر سابق للتعبير عنه. ولذلك رأينا كلا من بيك (Pick) وفان وَرْكوم (Van Woerkom)[1] يميز في العملية الكلامية بين ثلاث مراحل :

1) الخِطَاطة النفسية
2) خِطاطة الجملة
3) اختيار الكلمات.

وهذا تقسيم بكل تأكيد غير واقعي وغير صحيح: فالعبارة لا تكون متأخرة عن الفكرة، كما أن تقديم خِطاطة الجملة على اختيار الكلمات يكون عند البالغ أقل احتمالا.. ثم حين نعطي الأسبقية لما هو نفسيّ، إلى أي حد يمكننا فصل هذا الجانب

(1) فان وركوم. في، مجلة علم النفس (Journal de Psych.) سنة 1921، ص. 790.

عن العنصر الكلامي الذي يعبر عنه ؟ إن اللغة كما قال دولاكروا (ص 104) هي في الوقت ذاته «أثر التفكير المنطقي وشُرُوطِهِ». وهذا ما سماه هَنِسْجْفلت (Hœnisgwald) بـ «التحام الفكرة بالكلمة» (Worthaftigkeit)[2]. وقد استطاع كاسيرر أن يُبيِّن وجود «علاقة جوهرية وضرورية بين الوظيفة الأساسية للغة وبين وظيفة تمثيل الأشياء» (مرجع مذكور، ص. 22)، وأن الإنسان يكتسب مع اللغة «ليس فقط سلطة جديدة على الأشياء وعلى الحقيقة الموضوعية، ولكن سلطة جديدة على نفسه هو أيضا» (نفس المرجع، ص. 32)[3]، و«الكلام والفكر، كل منهما يلتف بالآخر. فالمعنى يؤخذ من الكلام، والكلام هو الوجود الداخلي للمعنى... (والفكر ليس له داخلٌ). فهو لا يوجد خارج العالم وخارج الكلمات. والذي يخدعنا في هذا الأمر ويجعلنا نعتقد بوجود فكرة قائمة بذاتها قبل العبارة، هو الأفكار التي تتكون لدينا مسبقا ونكون قد عبرنا عنها من قبل، وهي التي نستطيع استحضارها مع أنفسنا في صمت وبواسطتها نوهم ذاتنا بوجود حياة داخلية. ولكن هذا الصمت في الواقع ناطقٌ بأنواع الكلام. وهذه الحياة الداخلية لغة داخلية... إن الفكر والعبارة إذن ينشآن في آن واحد» (ميرلو بونتي Merleau-Ponty : **فينومينولوجية الإدراك** : Phénom. de la perception, p. 213).

إن دراسة لغة الأطفال ودراسة علم أمراض اللغة هما اللتان سمحتا بملاحظة الترابط الموجود بين الكلمة والتصور بشكل يكاد يكون غير قابل للفصل.

---

(2) لا نستطيع تصور فكرة دون شكل (انظر: ميرسون Meyerson. **الوظائف النفسية**: Fonctions Psyc.، ص. 96. وانظر: الآنسة ج. هيرش Melle J. Hersch : **الكائن والشكل**L'être et la forme، ص. 14.

(3) حسب جيلب (Gelb) وجولدشطاين (Goldstein) فان «الموقف الفئوي من العالم الخارجي والاستعداد لاستعمال كلمات من أجل تحديد التصورات، يترجمان معا موقفا أساسيا واحدا» (جولدسطاين، مرجع سابق، ص. 476. وانظر بورلود (Bourloud) : **مبادىء لعلم نفس الاتجاهات** : (Principes d'une psycho. des tendances) وفيه أن «الفكر واللغة، أحدهما يستلزم الآخر. فالتفكير لا يمكن أن يمارس إلا بواسطة اللغة، والكلمات هي التي تسمح باستحضار محتوى الفكر عند الحاجة، واستدعاء الصور غير المستقرة، والمفاهيم غير المؤكدة، والانطباعات العابرة، والعمل على تثبيتها، وكذلك التصورات المستعصية والمكثفة التي يكفي ذكر جانب منها أحيانا ويمكن ألا نفكر فيها إلا تلميحا».

ملاحظة المترجم :

المقصود بكلام جيلب وجولدشطاين أن تحديد الكلمات للتعبير بها عن التصورات هو في حد ذاته تحديدٌ لرؤية معينة وتصور خاص للعالم. وهذا يختلف باختلاف الفئات من الناس.

أ ــ **فعند الأطفال** : نجد أن اكتساب المفردات له علاقة بنمو التصورات. فقد سجل الملاحظون أن الطفل تحدث عنده «ثورة فكرية» حينما يلاحظ أن الكلمات عبارة عن رموز[4]، وأن كل شيء يقابله مركب صوتي يرمز به إليه ويصلح لتعيينه، أي حينما يفهم أن «كل شيء له اسم»[5]. إن لغة الطفل تكون في البداية أنانية (= متمركزة حول الأنا)؛ وحين يتخلى الطفل عن تكرار الكلمات (التي لا تعبر بالنسبة إليه إلا عن الرغبة في الكلام) وعن الحوار الداخلي، يتجه غالبا نحو مُخاطَبِه دون أن يستطيع التعبير عن حاجته في أن يفهمه هذا المخاطَبُ. وهنا يبدأ نمو لغته المُجَمْعَنَة التي لا يكون لها في البدء سوى دور ثانوي بجانب اللغة الأنانية. وحين يتراوح سنه ما بين السادسة والسابعة يستطيع أن يحصل ــ كما يقول بياجيه ــ على 50 إلى 60 في المائة من اللغة التلقائية العامة[6]. إن لغة الطفل تقابل عند بياجيه فكراً هو بدوره فكر أناني، أي وسيطٌ بين الفكر الانطوائي الغامض غير الموجَّه الذي لا يمكن تبليغه، والفكر الموجَّه الواعي الموضوعي المُجَمْعَن القابل للتبليغ وللتعبير عنه بواسطة اللغة[7].

ب ــ **أما دراسة الحُبْسَة** وأحوالها، فتسمح لنا بملاحظة أنه في مقابل النسيان المَرَضي للكلمات (أي فقدان الذاكرة) يوجد تمثيل فاقد لخاصيته التجريدية، وله على العكس من ذلك خاصيةٌ تحليلية وتصويرية. إن الحَبِيس [= أي الشخص الذي به حُبْسَة] عند جيلْب وجُولدشْطاين ليس هو الشخص الذي ينسى الكلمات فقط، بل هو «شخص وقع تغييره» : شخصٌ ذو سلوك «ملموس» و«بدائي» أكثر من الإنسان العادي، وعاجزٌ عن ترتيب الألوان بطريقة غير الطريقة العاطفية ؛ بحيث لا يُقرِّب مثلا الأزرق السماوي من الأزرق الداكن، بل يُقَرِّبه من الوَرْدي[8]. ولقد بيَّنتِ

(4) Clara et William Stern, **Die Kindersprache**, 4 éd., Leipzig 1928, p. 190 نقلا عن (Cassirer, P.SL., p. 25)

(5) تظهر اللغة بشكل جد مفاجىء عند الشهر الثامن عشر أو العشرين تقريبا، وكما يقول سيروس : «كان الطفل مستعدا لاكتساب اللغة، ولكن الوظيفة الجديدة ستجعله يتقبل إحلال بعض الألفاظ محل بعض آخر، رغم أن اكتساب اللسان الذي يريد التكلم به هو في آن واحد سبب التطور العقلي ونتيجته» (**التوازي المنطقي النحوي**) (Le parallélisme logico-grammatical, p. 28)

(6) ج. بياجيه : **اللغة والفكر عند الطفل** : ص. 52.

(7) نفسه، ص. 62.

(8) جيلب وجولدشطاين Über Farbennannesie. in. Psychologische forschangen. VI 1925 pp. 127 à 186 وكما قال كاسيرر (Pathol. de la conscience sym. in Journal de Psychol, 1929,
=

الدراسات التي أجريت على الحُبْسة أن اللغة ليست فقط أداة مجتمعية، ولكنها «تعبر بشكل ملحوظ عن الوضع الداخلي ــ ولا نقول عن فكرنا ــ الذي بواسطته نفكر نحن ويفكر العالم من حولنا» ر.ل. فاجنر R.L. Wagner: **مدخل إلى اللسان الفرنسي** : (int. à la lang. fr., p. 24).

ويمكن أن نضيف إلى الأعمال التي أنجزت حول لغة الأطفال ولغة المصابين بالحبسة، تلك الأعمال التي تدرس «تقنية» الحيوانات الرفيعة وخاصة القرود. فقد اعتقد بعض الملاحظين أنه بإمكانهم أن يزعموا أن غياب اللغة يعد واحداً من الأسباب التي من أجلها يظل التفكير التقني للقرد الذي لا يمكن نقله إلى آخرين، محصورا في مستوى أدنى من مستوى تقنية الانسان (انظر : برادين Pradines **مبحث علم النفس العام** : Traité de psy. gén. T. I, p. 114).

2 ــ المستوى النفسي :

وقبل هذا، هناك على المستوى النفسي[9] تأثير كبير للكلمة على الفكر يمكن تلخيصه على النحو الآتي :

1 ــ الكلمة تُحلِّل الفكر وَتُكثِّفه : إن اللغة أداة للتحليل، وقبلها يكون الفكر ــ حين يوجد هنالك فكر ــ مركبا وغير واضح. واللغة لا تسمح للفكر بأن يبرز في شكل من الأشكال إلا بفضل العمل الذي تجريه على الواقع، وذلك بأن تقسم هذا الواقع إلى عناصر وأجزاء وتفرض على كل واحد منها اسما من الأسماء. وكما كان يقول كونديياك، فإنه «لا يمكن أن نتكلم دون تفكيك الفكر إلى مختلف عناصره من أجل التعبير عنه شيئا فشيئا. والكلام هو الأداة الوحيدة التي تسمح بهذا النوع من تحليل الفكر»[10]. وهكذا فإن الفكر الذي ظل إلى ذلك الحين كامنا وغامضا، سيظهر ويعلن عن نفسه. وهذا ما لاحظه همبولد الذي يرى أن «اللغة ليست في

= p. 201) فـ «إن الاضطراب في الكلام والاضطراب في العمل من نوع واحد. إنه اضطراب أساسه عدم القدرة على جعل الوظيفة الرمزية تؤدي مهمتها».

(9) لنلاحظ أننا إذا كنا قد درسنا المظهر النفسي قبل غيره، فليس ذلك إلا من أجل التبسيط، إذ نحن لا ندعي أبدا أن ما هو نفسي سابق لغيره. فمن دون المجتمع لا تكون هناك لغة، ومن دون الكلمة ليس هناك مجتمع، وإنما هناك تفاعل بين النفسي والاجتماعي.

(10) Logique, 2ème Partie, chap. 7

الواقع وسيلة لتمثيل حقائق كانت معروفة، ولكنه بالأحرى وسيلة للكشف عن حقائق مجهولة«[11].

2 ـ الكلمة تجعل الفكر موضوعيا : إن أول مظهر للتعبير الكلامي عند الطفل يكون مُشبعاً بالانفعالية والذاتية. فالطفل يظل أنانيا مادامت لغته لم تشهد نمواً كافيا. «إن التنظيم الصوتي والشفوي للانفعال يعوق انفجاره السابق لأوانه حين يكون مجرد محرك أو حافز» ويعوق العفوية التي لا حدود ولا مقاومة لاندفاعها[12]، وبذلك يصبح الانفعال مراقَباً ويدع مكانه للتمثيل الموضوعي. إن الفكر المُوَضْعَن objectivée، والمُعَقْلَن بواسطة الكلمة سوفَ يستطيع بفضلها أن ينتقل إلى الآخرين[13].

حـالات خـاصـة :

أ) **الفكر السابق للنطق أو الكلام:** عند الأطفال الصغار جدا لا يستعمل الفكر. دليلا لغويا ؛ إذ يوجد عندهم فكر غير منطقي وغير تصوري.

ب) **الفكر الحدسي** : وقد درسه كل من وليام جيمس ومدرسة (ڤورزبورغ) النفسية. وهو يظهر في وعينا وشعورنا حين نكون بصدد البحث عن كلمة أو عن فراغ «فعَّال» يتولى مهمة التعبير. إن الفكر الحدْسيّ يتقدم أحيانا الفكر الفعلي الجاد، وفي العموم يبدو أنه لا يكون سابقا لبعض الكلمات فقط، ولكن يسبق أيضا «الخِطاطة الموسيقية للجملة».

---

(11) كاسيرر، مرجع سابق، ص. 30

(12) ليس التدرج الذي يتبع في الاستنباط وفي المايُوطيقا (Maïeutique = التوليد السقراطي) «اللذين كان يستعملهما سقراط شيئا آخر سوى المنهج الذي به نجعل الشعور «يتكلم»»، فنتأكد بذلك من القوة الموجودة في تلقائيته الخاصة والمنيعة» (كاسيرر، مرجع مذكور، ص. 32). ومن أجل أن يعبر اللاشعور عن نفسه، يذهب المحلل النفساني إلى محاولة «تسمية الأشياء»، الأمر الذي «يكفي غالبا لاستدعاء راسب وإثارته : فقبل الاسم لم يكن هناك سوى محلول مضطرب لا شكل له، وبعد الاسم ترى أجساما تتبلور في قعر السائل» (غ. باشلار: **التحليل النفسي للنار**: Psychanalyse du feu, p. 84) •

(13) يكون الشعور (أو الوعي) مشبعا باللغة لدرجة أننا في بعض الأحوال لا نفكر إلا بالكلمات : وتلك هي اللغة الداخلية التي عرف ديكارت وجودها وخصص لها إيجر (Egger) دراسة هامة. وعن طريق «تأليه» الكلام الداخلي و«عزوه إلى شخصية أجنبية» في الوقت ذاته (انظر: Langage intérieur, Paris, 1881, p. 13) يفسر إيجر بعض الرؤى (أو الكشوفات) (مثل : جنّ سقراط، صوت جان دارك..). وهناك شكل من الفكر غير الشفوي تكوَّن عن طريق الفكر الأعمى أو الرمزي الذي هو حسب لايْبنِيتْز، المسعى المألوف للرياضيين.

3 ـ من النفسي إلى المجتمعي :

الكلمة تبلور التصور

الكلمة ـ كما قلنا ذلك سابقا ـ تحلل الفكر الفردي الكامن في الأصل، وتجعله موضوعيا. ولكن الكلمة ليس لها وجود نفسي فقط، بل لها أيضا قيمة جماعية : فهناك «طابع مجتمعي خاص باللغة»(14). إن الكلمة وهي مشحونة بمحتوى مجتمعي، تثب بشكل من الأشكال إلى الفكر الفردي وتعمل على بلورة ما يسميه طين بـ «الأفكار اللاإرادية». وقد تنبَّه أيضا أحد علماء النفس إلى أن ستاندال (Stendhal) لم يكن ليفوته أن يسجل التأثير الذي تمارسه الكلمة ذات الدلالة المجتمعية في الوعي الفردي. وفي الفصل السادس عشر من قصة «أرمانس» (Armance) [لستاندال] لاحظت السيدة دُومال أن أُوكتاف كان «يحب» قريبته، فأخبرته بما علمتْ. وهنا يقول ستاندال إن هذه الكلمة (حين سمعها أوكتاف من السيدة دُومال) «كانت بالنسبة إليه كالضربة القاضية. ذلك أنه كان يحمل حجته معه، فأحسَّ أنه ضعيف». ويتلقى أبطال ''**الأحمر والأسود**'' نفس الصدمة عندما تكشف لهم كلمةٌ من الكلمات، في ضوء نهار جديد، عن وضعية لم تكن معروفة لديهم ولا هي في حسبانهم قبل ذلك. لقد كانت السيدة دُوريناك تحلم في سعادة حتى «برزت أمامها فجأةً تلك الكلمةُ المرعبة : ''الزانية ''(15)، فأحدثت إحساسا فظيعا بالندم في أعماق المرأة الشابة».

وإن كلمة énergie (= طاقة) بالخصوص حين فرضت نفسها على أحاسيس جُوليان صُورِيل هي التي أملت عليه تصرفه : «أنا حر ! بسماع هذه الكلمة الكبيرة وجد في نفسه حماسا»(16). «هناك في أعماقه جُبْن وتخوف عند انسحابه : هذه الكلمة تقرر كل شيء. هكذا صرخ جوليان وهو ينهض»(17). وفي «**ديرپارما**» لستاندال. نجد أن كلا من صُونْسِيفِيرِينَا وفابْرِيس يُكنُّ للآخر عواطف لم يستطيعا تحديد طبيعتها الحقيقية في نَفَسَيْهما. وكلمة «الحب» الكاشفة لم يقع بعد التصريح بها فيما بينهما : «تُرى ماذا سيحدث حين تُقال هذه الكلمة التي لا تُعوَّض؟».

---

(14) برادين (Pradines) **مبحث علم النفس العام** Trait. de Psych. géné. 2/488

(15) **الأحمر والأسود**، Le rouge et le noir, éd. Champion T. 1, p. 118

(16) نفسه، ج 1، ص. 126

(17) نفسه، ج 1، ص. 185

هكذا تساءل الكونت مُوسكا حزيناً : «إن الحظ يمكن أن يأتي بالكلمة التي سوف تعطي اسما لما يحسه أحدهما إزاء الآخر. وبعد ذلك، وفي لحظة، تأتي كل العواقب»[18].

4 ـ الكلمة والـمجتمع : الـمستوى الـمجتمعي

الكلمة تُجَمْعِنُ التَّصور وتُعَقْلِنُه

الكلمة إذن سوف تُتيح للتصور أن يتجاوز المستوى الفردي والعاطفي : فهي تُعَقْلِن الفكر وترتبه وتميزه وتعممه وتعمل على تجريده. والأمر لم يكن دائما على هذا النحو : فالكلمة بالفعل خلاصة تطور تاريخي. ففي المجتمعات الدنيا نجد الكلمة «قريبة من أصلها الانفعالي»[19]. ويلاحظ ليفي ـ برول أنه في المجتمعات القديمة وجد نوع من التصورات المصوَّرة (concepts-images) كان دائما ذا طبيعة فردية. و«هناك حيث تغلّب الفكر المنطقي، نجد أن الذخيرة المجتمعية من المعارف المكتسبة تنقل ويحتفظ بها بواسطة التصورات. وكل جيل يعمل على تكوين الجيل اللاحق فيعلمه أثناء ذلك كيف يحلل تصوراته... أما المجتمعات التي نتحدث عنها فعلى العكس : توجد عندها هذه الذخيرة بكاملها تقريباً ظاهرة وجليَّة في اللغة نفسها»[20]. وقد كتب إير (Eyre)[21] يقول : عند أهالي استراليا «لا توجد ألفاظ لها دلالة الجنس العام مثل : شجر، سمك، طير... إلخ، ولكن هناك فقط الألفاظ الخاصة التي تطلق على كل نوع بمفرده من أنواع الشجر والسمك والطير... إلخ»؛ ويقول : «هذه

(18) **دَيْرِيـارِبا** (Chartreuse de Parme, T. 7, Paris, Librairie Nouvelle, 1885, p. 142) وهذه السلطة التي تكون للكلمة يلاحظها جيرودو أيضا فيقول : «لم تكن إدمي Edmée إلى الآن أقل منه ثقة بنفسها أبدا. كانت نظريتها في الفضيلة أن الرجال لهم كلمة تمكنهم من كل النساء حين يستعملونها في الوقت المناسب. وإذ أن الكلمة ليست واحدة عندهم جميعا، فقد يحدث أن عددا غير قليل من الفضائل يظل سليما بحكم الالتباسات، ولكن كل الحوادث التي وقعت لصديقات إدمي كانت تثبت لها بأنها على حق».

ج. جيرودو J. Giraudoux : **اختيار المنتخبات** : (Choix des élues, chap. 5) نقلا عن : بريس ـ باران (Brice-Parain) في : **بحث حول الطبيعة ووظائف اللغة** Rech. sur la nature et les fonctions du langage, p. 27

(19) دولاكروا : **الدين والايمان** (la religion et la foi, p. 126)

(20) **الوظائف العقلية في المجتمعات البدائية**، ص. 196.

(21) نقلا عن ليفي ـ برول، مرجع مذكور، ص. 196.

المفردات المجردة غير التصورية توجد بكثرة بطبيعة الحال. وهكذا فإن المَوْرِيِّين[أ] (Maoris) لهم أربع كلمات من أجل تسمية طير الكوكو : اثنتان منها للذكر واثنتان للأنثى حسب فترات السنة. وليست مفرادت اللابُّونيِّين[ب] (Lapons) بأقل غنى، فهي تشتمل على إحدى وأربعين كلمة لتسمية الثلج»[22]. وقد عرفت اللغات الـهندو أوربية هذه الكثرة أيضا في الألفاظ. وكما يقول ماييه[23] : «علينا أن نتمثل كل لهجة هندو أوربية في صورة لهجة لِتْوانية[ج] حديثة : فقيرة في المفردات العامة، وغنية بالكلمات المحددة الدالة على كل الأحداث الخاصة وكل تفاصيل الأشياء العادية المألوفة...». ونحن نجد آثار هذه الأساليب الذهنية القديمة[24] في لغة العصر الوسيط الفرنسية التي تدل بواسطة اسم خاص[25] على كل شيء من الأشياء الكثيرة : الأجراس، السيوف، المدافع، السجون... إلخ.

لقد كانت مفردات «البدائيين» ملموسة وعاطفية وذات طبيعة صوفية : «كل شكل من أشكال الشيء، كل صورة تشكيلية، كل رسم، له حقائق صوفية :

---

(22) ليفي – برول، مرجع مذكور، ص. 193.

(23) Introdu. à l'état comp. des langues indo-europ., 1ère éd., p. 347

(24) «كان الاتجاه العام للغة في مراحلها الحضارية هو إعطاء الاسم صفة تجعله مستقلا أكثر فأكثر عن كل استعمالاته الخاصة» (ماييه، اللسانيات التاريخية واللسانيات العامة، ج 2، ص. 13).
فهل يمكن اعتبار هذا الاتجاه الذي نلاحظه في بعض الالسنة، كالفرنسية والانجليزية على الخصوص، حيث نجد الكلمة تجرد كلية تقريبا من مظاهر الاعراب، بمثابة مظهر دال على التقدم في اتجاه التعميم والتجريد برز منذ اللغة الهندوأوربية؟ وهل تعتبر الصيغة الثابتة مثل loup (= ذئب) أكثر تجريدا من الصيغ المتغيرة مثل lupus, lupi, luporum.. إلخ؟ يبدو أن الجواب هو النفي. لقد خلط ماييه بين الميل إلى التجريد وتقديم التحليل: «إن نشوء ''الكلمة القاموسية'' ليس من التجريد الحقيقي الذي يؤدي على العكس إلى إعطاء هذه الكلمة شخصية مستقلة أكثر فأكثر، وجعلها كلا تاما بصفة دائمة» (أ. لالاند : **مناقشة في جمعية علم النفس**. نقلا عن ماييه. مرجع مذكور، ج 2، ص. 21).

(25) انظر هويزينكا (Huizinga) : **سقوط العصر الوسيط** (ص : 280)

(أ) المَوْرِيُّونَ (Maoris) جمع مَوْري (Maori) هم السكان الأهالي لزيلاندا الجديدة (Nouvelle Zélande) (المترجم).

(ب) اللابونيون هم سكان لابونيا (Laponie) وهي بلاد في أقصى شمال أوروبا قرب المحيط الثلجي، تقتسمها السويد والنرويج وفنلندا والاتحاد السوفياتي السابق. وأرضها مغطاة بالثلوج (المترجم بتصرف عن ''لاروس '').

(ج) نسبة إلى لتوانيا من بلاد البلطيق. وهي من الجمهوريات التي كانت تابعة للاتحاد السوفياتي واستقلت عنه حديثا. ولغتها من فصيلة الهندوأوربيات. وقد أقام المؤلف بلتوانيا فترة من 1938 إلى 1939 مدرسا للفرنسية وبها تزوج زواجه الأول. (المترجم).

فالتعبير المنطوق الذي هو عبارة عن رسم كلامي، له اذن بالضرورة هذه الطبيعة الصوفية أيضا»[26].

ومن هنا وجدت الألسنة المقدّسة القديمة التي أصبحت غير مفهومة. ومن هنا أيضا نرى أن كلمات عديدة ـ يمكن أن نعثر لها على أمثلة في ألسنتنا الحالية ـ تُنعت بأنها محرمة : فنحن نعلم أن التجديف كان لزمن طويل يعاقب عليه. ولقد وقع الاعتقاد بأن هذا التوافق العميق والغامض بين الكلمة والشيء الذي تدل عليه ذو أصل إلـٰهي[27]. وفي ''سِفْر التكوين'' أن العالم قد تم إيجاده بالكلمة. وهذا ما يؤكده علم نشأة الكون عند المصريين[28]. وقد تبنى هيجو تصورا شبيها بهذا حين كتب قائلا: «ذلك أن الكلمة هي الفعل والفعل هو الله». وفي مجتمعاتنا نجد للكلمة ـ ما عدا بعض الاستثناءات ـ طبيعة تجريدية. وكما يقول برادين (Pradines) : إن ما يميز التجريد الإنساني عن التجريد العادي (التجريد الإدراكي والتجريد الحيواني) «هو قبل كل شيء الرغبة في تضمين الكلمة دلالة تتجاوز التجربة الفردية وتستطيع أن تعبر في ظروف مشابهة عن تجربة الجميع : التجريد الانساني هو عدم التشخيص وهو التعميم بالمعنى المجتمعي... وهو يعني أن أي تعميم حقيقي لا يمكن أن ينتقل من نفس إلى نفس دون أن ينسلخ تدريجيا من كل العناصر الذاتية والطارئة التي يمكن أن يشتمل عليها، ويرتفع بذلك من تلقاء نفسه إلى مستوى الضرورة، أي المستوى الذي يصبح فيه مفهوما ومدركا بالعقل.» (انظر: **مبحث علم النفس العام**، ص. 416).

---

(26) ليفي ـ برول، مرجع مذكور، ص. 199. وانظر: موريه (A. Moret) في : (**النيل والحضارة المصرية** : (Le Nil et la civilisation égyptienne) «إن اسم شخص من الأشخاص أو شيء من الأشياء، وأيضا اسم إلـٰه من الآلهة له عند البدائيين صورة تلتبس بماهية ذلك الشخص أو الشيء أو الإلـٰه... أن تنادي مخلوقا باسمه فمعناه أن تبدع، وتخلق شخصيته الفردية الخاصة، وحين تنطق الاسم معناه أن ترسم عن طريق الصوت صورته الروحية... وفي الصين، أن تعلم الاسم وأن تقول الكلمة، معناه أن تملك الكائن أو تخلق الشيء... أنا أخرج من دم أمير وسأصبح خادم اصطبل، لأنهم ينادونني باسم السائس». (Granet, La pensée chinoise, p. 37) وقد جاء في كتاب ''الفيدا'' : «عندما تم في الأصل التلفظ بالكلام الأول، وأعطيتْ للاشياء أسماء، انكشف بالحب كل ما كان كامنا في هذه الأشياء من الجودة والصفاء». (Rig-Véda, X.I. Trad. Renou, p. 102) واقرأ في الموضوع : (ميرسن L. Meyerson : **الوظائف النفسية**، ص. 33)

(27) انظر حول التفسير الذي يقدمه علم النفس التحليلي للسحر بالكلمة، ص. 82 أعلاه

(28) «لقد تم الخَلْق حين تلفظ فم دِمْيُورجي (Démiurge) بأسماء كل ما هو موجود». انظر موريه، مرجع مذكور، ص. 347.

إن الكلمة، باعتبارها أداة مجردة، ستكون هي الوسيلة الطبيعية للبحث والتقدم العلميين. والفلاسفة الذين أعلنوا «إفلاس اللغة» عند مقارنتها بالعلم والفكر، لاشك أنهم قد أخطأوا الطريق. وإذا كان يبدو أن الوقائع تؤيدهم أحيانا، فإن «الفكر لا يمكن اختزاله وحصره في العلم. واللغة كانت مضطرة إلى ألا تتخذ صيغة علمية خالصة، وذلك حتى تستطيع تلبية حاجة الاستعمالات الأخرى التي تتطلبها خدمة الفكر» (برادين، **مبحث علم النفس العام**، ج. 2، ص. 479). وفي الحقيقة «لقد تكيفت اللغة مع العلم بشكل ممتاز، لأن العلم ـ في صورته التقنية ـ كان على ما يبدو هو التفكير الأول، ولأن اللغة ليست سوى أداة تقنية تم تكييفها وتغييرها لتستعمل في التعبير» (نفسه، ص. 481).

الكلمة تنقل التصور :

هذه حقيقة دينامية وشائعة: «فوجود الدليل اللغوي شيء ضروري لإضفاء الاستقرار على تقدمنا الفكري وتحديد أو تعيين كل خطوة في سيرنا، ومنها نتخذ نقطة انطلاقنا الجديدة نحو تقدم جديد» (**Hamûlton** : Lect. on Logic. 8) وبلورة التصوّر وتحديده، يمكن للكلمة أن تنقل هذا الأخير عبر الأجيال. فالكلمة إذن ليست مجرد «لافتة صائتة» كما كان يدعي إيسِّرْتيه (Essertier)[29]، وإنه لمن الضلال أن ندعي «أنها لا تنطوي أبدا على أي تعميم أكثر من الفعل نفسه». فالكلمة أداة التفاهم الاجتماعي، والإنسان ـ الذي شبَّهه همبولد بالعملاق الذي «يستنفد قوته في الاتصال بأرضه الأم» ـ يستعمل اللغة التي تصل وتفصل في وقت واحد، وتضم في ثنايا تعبيرها الأكثر فردانية، إمكانية وجود تفاهم شامل. ونفس الرغبة التي تدفع الحياة الداخلية للشخص نحو الوحدة هي التي تعمل أيضا على الربط الخارجي بين كل المجموعة الإنسانية[30].

---

(29) نلاحظ أن بعض حالات الانبعاث الجديد للعقلية البدائية يمكن أن تظهر في المفردات. وهكذا ففي العصر الثوري (1792ـ94) نرى أن «الصور تبدو حية وكأنها تعبر دفعة واحدة عن الرضا والقبول. إنها تترابط فيما بينها بمثل هذه القوة وهذه التلقائية حتى لا تجد ثمة صدعا يمكن أن يتسرب منه الشك... والبرهنة القائمة على العلِّية تسير في خطوط القوة التي أوجدتها الصور...» (Essertier, Formes inf. 59) وانظر في موضوع كلمتي : **المساواة والدستور** وأمثالهما التي اكتسبت قيمة روحية (ف. برينو : **الكلمات الشاهدة على التاريخ**، ص. 20).

(30) (Werke, VI, p. 125) نقلا عن كاسيرر. مرجع مذكور، ص. 34.

لقد استطعنا بحق أن نعتبر اللغة نتاجاً مجتمعيا أساسيا : «إن اللغة هي التي حددت الفكر الإنساني وأخرجته من حالته السَّديميَّة... والكلمات رموز نسيطر بواسطتها على أفكارنا كما نسيطر على الأعداد بواسطة الأرقام»[31].

واللغة تقوم بَعقْلنة التصور على مستوى الوعي الفردي، وكذلك تفعل على المستوى المجتمعي. و«بما أن كل فكر يسعى ليكون له تعبير مناسب، فإنه حين يكون مشتركا بين عدد من الأفراد يتخذ صياغة مشتركة بينهم أيضا»[32].

ولعله يمكن ـ فيما يبدو ـ أن نقارن هذا المسار النفسي بذلك الذي يتجلى في كثير من حالات الإلهام أو الاكتشاف الفني أو العلمي. فالكلمة التي تكون عادة مشحونة بالمعاني العاطفية تثير انتباه الكاتب؛ وفي يوم من الأيام، وبعد مُضيِّ أعوام، تصبح هذه الكلمة التي شُحنت بكل تجارب الكاتب، فكرة محددة يسميها بودلير **استحواذا**، لا يستطيع الكاتب التحرر منها إلا بالتعبير عنها[33]. وهكذا نجد بلزاك في مقدمة كتاب (**فَسْلَجة الزواج** = La Physiologie de mariage) يشير هو نفسه إلى أن كلمة adultère (= الزاني) التي أثارته بقوة أثناء دراسته لقانون الزواج هي التي كانت وراء تأليف كتابه. لقد عملت هذه الكلمة على **بلورة** (والتعبير لبلزاك) عدد من الملاحظات السابقة. ثم تغيرت طبيعة الإحساس من بعد، وحلت محل الكلمة جملةٌ أصبحت هي الموضوع المركزي والفكرة المولِّدة للكتاب[34]. وفي الحالات الأخرى القريبة جدا من الوقائع التي ذكرها ستاندال لا نجد هنالك أية كلمة تحدد المسار : فالمسألة إذن تتعلق بفترة تهيؤ لا شعورية (ذلك على الأقل هو رأي الشخص المخترع) تظهر في نهايتها المشكلة المحلولة على أرضية الشعور. وفي الحقيقة ـ كما قال لاكروا ـ فإن «الوجَادات التي يقترحها علينا اللاشعور، يكون قد تم

---

(31) ڤندريس (Vendryes) في : **الطبيعة الاجتماعية للغة** (Le caractère social du langage) بمجلة علم النفس (Journal de Psych.) سنة 1921، ص. 623.

(32) دوركايم : **في توزيع العمل الاجتماعي** : (De division du travail social)، ص. 185.

(33) يمكن للكلمة أن يكون لها دور في الفكر الفلسفي. فكتاب (Le Neveu de Rameau) يوحي لنا بأن ديدرو كانت تتملكه كلمة (عبقرية)، أما أوغست كونت فقد كان حوالي 1826 موسوسا بكلمة (تنظيم). انظر: ب. دوكاسيه (P. Ducassé) في : La synthèse chez Comte et Spencer, in Revue de Synthèse, janvier 1950

(34) انظر في الموضوع : ب. أوديا (P. Audiat) : **سيرة العمل الأدبي** (La biographie de l'œuvre littéraire, p. 34).

تهييئها من قبل بشكل جيد، وأصبحت قريبة جدا من الحكم الذي يصدر عليها : بحيث يُصاغ الحكم بسرعة ودون صعوبة وكأنه قد صيغ من قبل داخلَ اللاشعور»[35]. إن مثل هذه الأمور التي لا تنتمي فقط إلى علم النفس الفردي ولكن تنتمي أيضا إلى علم النفس الجماعي، لم تثر لحد الآن اهتمام المعجميين. وسنرى في الصفحات اللاحقة ذلك الجانب الذي يمكنهم أن يستخلصوه منها.

5 ـ تفاعل النفسي والمجتمعي

ميلاد المُحْدَث وانتشاره

1 ـ ما المُحْدَثُ ؟

إن التعاريف التي تُعطى للمُحْدَث ليست كافية في عمومها، ولذلك نقترح بدورنا التعريف التالي :

المُحْدَثُ معنى جديد يطرأ على لفظ من ألفاظ لسان من الألسنة في زمن من الأزمنة. وهذا المعنى قد يظهر في شكل من الأشكال الآتية :

أ ـ عن طريق كلمة جديدة يمكن أن تكون مُختَرَعةً اختراعاً مثل Gaz (= غاز)، أو مأخوذة من حكاية صوت مثل Tic-tac أو من اسم شخص مثل : Bottin[د]، وفي الغالبية العظمى من الحالات، تكون مأخوذة من الرصيد الوطني عن طريق إدخال اللواحق والسوابق.. الخ، أو مستعارة من لغة حية أو ميتة (باستثناء الفرنسية القديمة بالنسبة للفرنسية الحديثة). والأمر هنا يتعلق بطبيعة الحال باللفظ المفهومي Notionnel وليس بالكلمة الصرفية. فكل من bête à bon Dieu (= حشرة صغيرة) وart (= فن) يعتبر كلمة واحدة.

---

(35) Traité de Psychologie de Dumas, T. 2, p. 151

(د) أصبح اسم Bottin عَلَما على الدليل التجاري السنوي الذي يحتوي على كل المعلومات المتعلقة بالشركات والصناعات والمقاولات. وهو في الأصل اسم لأحد رجال الادارة والاحصاء بفرنسا (سباستيان بوطان (Sabastien Bottin) عمل منذ سنة 1834 على إصدار دليل تجاري بعنوان (L'Almanach du commerce à Paris = التقويم التجاري في باريس) وبعد وفاته سنة 1853 أطلقت إحدى الشركات اسمه على هذا الدليل التجاري بعد تطويره. (المترجم عن قاموس ''لاروس'').

ب ـ **عن طريق كلمة مستعملة من قبل**، لكن بإضافة معنى جديد مثل Magasin التي استعملت في الفرنسية القديمة، ولكنها حوالي 1825م أخذت معنى «الدكان الأنيق كبير(هـ) المساحة.»(36).

ج ـ **عن طريق تحول في المقولة النحوية**، مثل كلمة idéal (= مثاليّ) التي ظلت لحقبة طويلة تستعمل نعتاً. وابتداء من 1830 أصبحت اسما أيضا.

والتعريف الذي أعطيناه للـ**مُحْدَث** ليس جديدا، ونحن لم نتقدم به إلا لأنه غالبا ما يغيب عن الأذهان : فالقواميس التأثيلية لا تهتم به في العادة وتكتفي بذكر تاريخ الكلمة، كأن تقول مثلا : إن كلمة art تنتمي إلى القرن الثامن عشر الميلادي، وهذا ليس له أهمية تقريبا إذا لم يستكمل بذكر التواريخ الخاصة بالمعاني الحديثة المستعملة في فترة ما بين القرنين السابع عشر والتاسع عشر وهي الأكثر فائدة لنا.

2 ـ تزامن الكلمة والتصور :

أ ـ إن التمييز بين ما هو ضروري وما هو زائد عن الحاجة(37) في عملية إحداث الألفاظ لهو تمييز اعتباطي إلى حد ما، لأنه يكون في الحقيقة بحسب الزمان والمكان. فعند المُتْرَفِين الذين يريدون أن يتميزوا عن غيرهم، يمكن اعتبار إحداث كلمة دالة على نوع جديد ومثير من المُوضة (فارق دقيق أو جزئية متعلقة باللباس)(38) أو كلمة تعطي تقويما جماليا (مثل : chic = أنيق جدا ـ وair = هيئة، مظهر ـ... إلخ) شيئا ضروريا تماما. وبالعكس فإنه في عصور الفصاحة يقع تجنب الكلمات الجديدة حتى تلك التي يبدو فيما بعد أنها ضرورية. ففي القرن الثامن عشر وجدت كلمة parapluie (= مظلة) وكلمة paratonnerre (= الواقية من الصواعق) صعوبة في التأقلم. وفي أيامنا هذه نجد أن كلمة home (= بيت) الأنجليزية

---

(36) ج. ماطوري : **المفردات والمجتمع في عهد لوي فيليب** ـ باريس دروز، 1951، ص. 31

(37) نحن لا نعلم حين تحدث كلمة جديدة هل ذلك أمر عَارِضَ أم لا. فلحد الآن لم تقم بالانكباب على هذا المشكل أية دراسة تزامنية للمفردات.

(38) لقد وجدنا عددا كبيرا من ذلك في رسالة غريماس الجامعية (التي ما تزال مرقونة) (ملحقات الجزء الأول). فبالنسبة لكلمة Dandy [داندي] وmerveilleux [عجيب] المستعملتين سنة 1830 وبالنسبة لبعض الألوان مثل dey d'Alger وfalière وsoupir d'amour تعتبر من المحدثات الضرورية.

(هـ) الكلمة عربية الأصل (مَخْزن) دخلت إلى الفرنسية في القرن الرابع عشر الميلادي بمعناها في العربية وهو مستودع السلع والسلاح وغير ذلك (المترجم).

لا تستعمل بفرنسا إلا في أوساط محدودة. ثم إن الفرنسية ليس فيها لحد الآن كلمة لتسمية ما تعنيه الكلمة الألمانية : (gemütlich).

والتمييز بين ما يسمى بـ **الألفاظ الرئيسية** (les mots-chefs) مثل (cheval حصان، idéal، مثال، vert أخضر) والكلمات التي تسمى **ثانوية** مثل (chevalin, idéaliste, verdin, verdâtre – إلخ)(و) هو بدوره في حاجة إلى تدقيق وتتميم. فإذا كانت هناك فعلا سُلّمية في المعجم، فهي ذات أصل مجتمعي لا صرفي. وهذه السُّلّمية تختلف باختلاف الأزمنة والبيئات.

إن الكلمة والتصور يظهران على ما يبدو في وقت واحد، ولكن هنا أيضا ينبغي التحديد. فالكلمات بلا شك لا تسقط من السماء فجأة، بل تولد في وقتها المناسب. فتصور الشجرة لا وجود له في المجتمعات الدنيا التي تتوفر على عدد كبير من الألفاظ الدالة على كل أشجار الغابة؛ ولكن هناك كلمة للتعبير عن فكرة «شجرة» في عموميتها. وفي اليوم الذي ظهرت فيه كلمة «شجرة» ولد التصور. ونفس الشيء يقع في مجتمعاتنا الحديثة : ففكرة «الحضارة» لم تظهر في الغرب إلا أواسط القرن الثامن عشر مقترنة بتقدم تصورات النسبية (الوعي بتعدد الحضارات) وبمفهوم تركيبي للمجتمع (لم يكن القرن السابع عشر يعرف إلا الألفاظ ذات القيمة التحليلية كمثل : Civilité = الأدب والكياسة – Politesse = الأدب – police = تنظيم، سلوك.). ففي هذه اللحظة دخلت كلمة civilisation (= حضارة)، إذ أنه حوالي 1766 أصبحت الفكرة الطائشة في الهواء مجسدة ومتبلورة في صورة كلمة (civilisation)(ز).

على أن المفردات لا تقوم بعمل سلبي: فهي ليست مجرد انعكاس أو إعادة إنتاج آلي للتصورات الجديدة التاريخية والمجتمعية والعلمية... إلخ، بل بإمكانها بشكل من الأشكال أن تقوم بتحديدها[39] وأيضا بتعريفها مع شيء من التأخير (لقد رأينا

(39) تلك هي حالة المدونة العلمية في النصف الثاني من القرن الثامن عشر. ويمكننا أيضا أن نزعم أن بعض الكلمات الارتكاسية (= التي لها ردود فعل) لها دور في النفسية السياسية للجماعة. لقد كتب ي. فلورين (Y. Florenne) مقالا في جريدة ''لوموند'' بتاريخ 2 دجنبر 1950 قال فيه : إنه من المفارقات أن =

(و) ترجمتها على التوالي : متعلق بالحصان/مثالي/اخضرّ أو خضر/مخضرّ (م).

(ز) أرخ لوسيان فيبر لظهور هذه الكلمة بسنة 1766، ولكن إميل بينفينيست جعلها سنة 1756 (المترجم، نقلا عن كتاب : لسانيات واستعمار (Linguistique et colonialisme) تأليف لوي جان كالفي (L.J. Calvet)، ص. 161.

سابقا كلمة parapluie وكلمة paratonnerre). وفي الواقع إن الكلمات لا تعبر عن الأشياء ولكن عن الوعي بها عند الناس[40]. وبالنسبة للمعجمية، تظهر الأفعال والوقائع المجتمعية حقا بمظهر الأشياء، ولكنها أشياء ينظر إليها أشخاص ويُحسونها ويفهمونها. فعلى هذا العِلْم إذن أن يهتم بالحقائق المجتمعية التي تُعتبر المفرداتُ «ترجَمتها» الموضوعية باعتبارها حقائق منفصلة عن الفرد؛ وهي في نفس الوقت ترجمتُها الذاتية، على اعتبار أن الأفراد يعيشون في وسط ملموس، وداخل شروط مجتمعية واقتصادية وجمالية... إلخ: فليست الكلمات «شواهد على التاريخ» كما كان يقول ف. برينو ولكنها انعكاس لحالة المجتمع.

ب ـ هناك مشكل مطروح، ولا أعلم أنه قد سبق حله من قبل. وهو المشكل الذي سوف نحاول أن نثير الانتباه إليه، ونعني به العلاقات الموجودة بين «النفسي» و«المجتمعي» في نشأة الكلمة وتكوُّنها.

إن الكلمة تقوم بتحليل التفكير الفردي ـ الذي هو في الأصل تفكير مُضْمَر ـ وتجعله موضوعيا. ولكن الكلمة بمجرد ما تولد تُشحَن بقيمة مجتمعية، ثم تقفز إلى سطح التفكير الفردي بشكل من الأشكال، وتعمل على بلورة ما كان طِينُ يسميه بالأفكار اللاإرادية. فكيف يتم الانتقال من الفردي إلى الجماعي ؟ إن كلمة civilisation (= حضارة) التي مثَّلنا بها سابقا لم يكن بالمستطاع أن يستعملها أفراد مختلفون في وقت واحد يوم 19 أبريل أو 22 سبتمبر 1766. لقد اخترعها شخص

= يكون السبب في مركب ضعف أوربا راجعا في أصله إلى الألفاظ. فأية آلية من آليات اللغة ـ مثلا ـ قد ربطت بين كلمة أوربا وكلمة عجوز ؟ إن الأمر أمر تعويد النفس على حتمية الانحطاط والموت. ولن يجدي أوربا عشرون مخططا ومائة خطاب حين نقوم بإحلال كلمة عجوز محل كلمة شابة. عجوز ؟ كيف يمكن أن تكون كذلك وهي لم تولد بعد ؟ : لقد أضفى فاليري صفة Petit [= صغير] على Cap [= رأس] الذي يعني أوربا، فاستطاع ذلك ـ كما لاحظ ي. فلورين ـ أن يعطي للأوربيين انطباعا خاطئا بالضعف.

(40) يجب تهنئة ف. برينو الذي بالرغم من كونه قد اعتبر في الأول أن الميلاد المتأخر لكلمة (favoritisme = المحاباة) التي ظهرت مع صيغة (favoricisme) أثناء الثورة، لا تفسير له، قد قدم بعد ذلك (مع ش. برينو) (Ch. Bruneau) تفسيرا مقبولا لهذا التأخير، فقال : «إننا حين نتحدث عن الجديد نفكر دائما تقريبا في جديد الأشياء، وليس جديدُ الأحكام بأقل أهمية من ذلك. فكلمة (favoritisme) ليست وصفا تقريريا لنظام بل هي إدانة له. لقد ولدت هذه الكلمة في الوقت الذي أقر فيه الرأي العام سلوكا كان إلى حد ذلك الوقت يبدو كأنه أمر طبيعي» (Précis de grammaire historique, éd. de 1937, p. 171) ويمكن أن نفسر بنفس الطريقة (وهو ما لم يكن يبدو طبيعيا عند برينو (Bruneau) السبب في ظهور كلمتي christianisme [= مسيحية] وhumanité [= إنسانية] في وقت متأخر.

غير محدد هو بولانجيه (Boulanger)، أو تورجو (Turgot). فما هو التسلسل الذي تسلكه عملية انتشار المفردات؟

بمجرد ما تولد الكلمة تبرز هنالك عدة إمكانيات :

1) إذا كانت الكلمة لا تُلبّي حاجة معيَّنة فإنها لا تنتشر. وذلك هو شأن تلك الكلمات النادرة التي ظلت إلى وقت قريب بمثابة صيد المعجميِّين المفضَّل. ولعل الكلمات التالية : (Baroquerie, athellotiser, géographier) لم تستعمل قط منذ أن وضعها ت. غوتيه (Th. Gautier) لغاية هزلية.

2) في الأحوال الأخرى توجد الكلمة لكي تعبر عن حاجة عابرة لفئة اجتماعية محدودة. ومن هنا عرف عدد من الكلمات المنتمية لمفردات الطبقة العليا انتشاره المحدود بين فئة جد محصورة من الأشخاص.

3) الكلمة التي تظهر بشكل انفرادي منعزل لن تقبلها فئة مهمة من المجتمع إلا إذا تبنَّت هذه الفئة بصفة جماعية التصور الذي كان وراء ميلاد الكلمة[41]. نحن إذن أمام تحول فكري للفئة المجتمعية. فكيف نفسر ذلك؟

أ ـ بعدم انسجام الفئة المعنية بالأمر في حياتها المجتمعية : وكما يقول مايبه، فإن غياب الانسجام «سبب من أسباب التقلب وعدم الاستقرار. وهو أحد الأسباب الرئيسية وربما السبب الرئيسي ـ وذلك ما لم نلاحظه بما فيه الكفاية ـ لكل التحولات اللغوية»[42] إنه داخل الفئة المعقدة التي لا يحس الأفراد فيها برابط قوي يجمعهم، كما هو شأن الطبقة البورجوازية ابتداء من 1827ـ1830، لا يكون هنالك أي حظ للأفكار والكلمات الجديدة في الانتشار إلا داخل وسط جد منسجم كذلك الوسط الذي كوَّنه الأشخاصُ المهذَّبون (les honnêtes gens) في 1660.

ب ـ بالتغيرات التي يُحدثها الزمن في تكوين الفئة المجتمعية: وهذا العامل يتجدد آليا وشيئا فشيئا باختفاء الأعضاء المتقدمين في السن ودخول عناصر شابة تنتمي إلى جيل جديد. على أن تطور المجتمع ـ عكس ما نعتقده ـ وتطور المفردات

(41) يمكننا أن نقبل أن اللغة في بعض الأحوال تسبق الفكر. وهنا أيضا لا يكون اللفظ المُحدَث الذي استعمله شخص بمفرده سوى كتلة من الاحتمالات التي يستطيع الوعي وحده إبرازها للوجود.

(42) L.H.L.G., p. 24 (= **اللسانيات التاريخية واللسانيات العامة**)

التي هي انعكاسٌ له، لَا يَتِمَّان بطريقة غير محسوسة، ولكن بشكل قويّ وبتحولات عنيفة. وسوف نأتي فيما بعد إلى ذكر دينامية الأجيال في محاولة لشرح مسيرة هذه التغيرات[43].

ج ـ **عن طريق التحول الفكري التلقائي داخل الفئة** : إنه من الممكن أن تؤثر بعضُ الأحداث المهمة (المجتمعية والاقتصادية)، وكذلك بعض الاكتشافات (العلمية والفنية... الخ) بشكل عميق في الشعور الجماعي[44]. ومع ذلك فنحن من وجهة نظرنا ينبغي ألا نهتم إلا قليلا بهذا التغير الفكري الذي يتم خارج بعض اللحظات الحاسمة وخارج الدوائر الضيقة (المختصون، الطبقات العليا... الخ) التي يمكن أن يكون في وضعها المجتمعي المتميزة ما يفسر أحيانا سبب ذيوع المحدثات التي تنتشر معها أفكار جديدة. على أنه قد يقع أن الكلمات المستعملة في وسط واسع جدا، يتغير معناها فيتراجع استعمالها. وهذا ما وقع لبعض الكلمات المنتمية لمفردات الصيد (مثل : Niais[ح]) التي لم تكن تستطيع الاحتفاظ، داخل الأوساط البورجوازية والشعبية التي لا تتعاطى الصيد، بالمعنى الذي كان لها عند بارُونات العصر الوسيط. وذلك ما وقع أيضا لكلمة atomique التي نستعملها اليوم بمعنى «جديد» أو «رائع» في عبارات من نحو : montre atomique (= ساعة جديدة) وstyle atomique (= أسلوب رائع).

---

(43) القطيعة بين الأجيال كانت فاجعة بصفة خاصة حوالي 1825ـ1830. ومن هنا وجدت تلك الألفاظ القَدْحية مثل : fossile [= متحجر]، ganache [= مغفل]... الخ التي كان يستعملها الشبان إذ ذاك لنعت الأحياء من الجيل المولود قبل 1789.

(44) لا شك في أنه من السابق لأوانه في الحالة الراهنة لمعارفنا دراسة آثار هذه التغيرات في ضوء مفهوم «اللاشعور الجماعي» الذي أولاه يونغ (Jung) الأهمية التي نعرفها. فإذا حدث في بعض الحالات أن أمكن اعتبار ظهور فكرة مجسدة في كلمة انبعاثا لـ «صورة قديمة كانت راقدة في اللاشعور» (G. Jung : L'inconscient, Payot, p. 114) وأعيد النظر في قيمتها حين تمت عقلنتها، فإنه في غالب الأحوال يعتبر ميلاد اللفظ ـ التصور الجديد على العكس من ذلك انتصارا على اللاشعور الجماعي. ويمكن أن نقبل أن العقلية الجماعية الواعية وغير الواعية تتطور في بعض الأحيان ـ ولأسباب مختلفة ـ بشكل سريع جدا. وبذلك تصبح مستعدة لتقبل تصورات لم يكن ليقبلها من ذي قبل إلا عدد قليل من الأفراد كانوا قد عرفوا في فترة سابقة تطورا مشابها لمعاصريهم.

(ح) المعنى القديم لكلمة (Niais) هو : الفَرْخ الذي لم يخرج من عشه. ثم أصبحت الكلمة تعني بعد ذلك : الغِر، الساذج، المغفَّل .. إلخ (المترجم).

6 ـ حـدود الكلمـة

اللغة، باعتبارها تبلور التصور وتُعَقْلن الواقع وتعبر عن تَراضٍ مجتمعي، لا يمكنها أن تعبر بشكل ملائم عن الجوهر العميق للأشياء ولا عن المظهر الأكثر فردية للكلمات(45). وعجز الكلمة هذا، قد أشار إليه الشعراء الحُلوليُّون [= الذين يقولون بوحدة الوجود]، وفلاسفة اللامعقول، بنوع من اللباقة. وقد اتخذه الرومانسيون الألمان أحيانا موضوعا لتأملاتهم كما فعل شيلر على سبيل المثال حين قال :

«لماذا لا يمكن للروح الحية أن تتجلى في الروح ؟
حين تتكلم النفسُ إذ ذاك، وا أسفاه ! لن تكون النفسُ هي التي تتكلم»(46).

وقد عاب برغسون على الكلمة كونها تُعمّم الأمور بشكل غير دقيق، وتجهل دواخل الإنسان. وقال : «الكلمة ذات الآفاق المحدودة، الكلمة الخشنة التي تختزن ما هو ثابت وعام ومشترك، وبالتالي ما هو مبهم من مشاعر الانسانية، تحطم، أو على الأقل، تخفي ما في وعينا الفردي من مشاعر هشَّة وشاردة»(47). وإلى مثل هذا الانتقاد ذهب بعض المتأدبين المعاصرين(48) (أمثال بروست، وجيد، وإيلوار... إلخ)

---

(45) قال لويز (Lewes) عن اللغة إنها «تحقق التجريدات» (= أي تجعلها حقيقة). واستطاع سيروس (Serrus) وهو يرفض الميتافيزيقا التلقائية للغة أن يزعم ـ وهو محق ـ بأن لا وجود لما يسمى بـ «التوازي المنطقي النحوي».

(46) (Schiller, votivtafeln. 41. sprache) نقلا عن كاسيرر. مرجع مذكور. ص. 41.
فهنا نجد فكرة شائعة فيما وراء نهر الرَّاين تعبر عنها اللغة الألمانية بكثير من الدقة. فالألمانية بالفعل تضع فرقا بين (Begriff) التي تعني التصور أو المفهوم (الذي هو نتاج الفرشتاند verstand أي الفهم والادراك) وبين (idee) (= فكرة) التي هي نتاج الفرنوفت (Vernunft) التي تعني في الوقت ذاته (التصور) أو (الوجدانية). فكلمة (Bergriff) قابلة لأن تترجم بكلمات كثيرة ليس من بينها كلمة (فكرة) الأكثر فاعلية.

(47) (Données immédiates, p. 100) إن اللغة عند برغسون هي التعبير عن «الذكاء العام» الذي وإن كان أسمى من «الذكاء الحسي أو الحركي»، فإنه يمثل شكلا من الفكر الذي هو أدنى من «الذكاء العلمي».
انظر: هوسن (Husson) : **العقلنة عند برغسون** L'intellectualisation de Bergson, Paris, P.U.F., 1947, p. 168 وانظر أيضا في الموضوع : **الفكر والحركة** (la pensée et le mouvement) لبرغسون، ص. 101.

(48) يمكنهم أن يجعلوا من هيجو قدوة سالفة لهم في هذا الأمر. فقد كتب هيجو (انظر : **عمال البحر** (Travailleurs de la mer. T.1, ch. 2) نقلا عن بيندا Benda في : (**فرنسا البيزنطية** France Byzantine, p. 291) يقول «إن ما كان جيليا (Gilliat) قد عانى منه لا يبدو أثره في الكلام. فالانفعال دائما يتجدد، والكلمة كانت دائما في خدمته. ومن هنا كان التعبير عن الانفعال مستحيلا».

متهمين اللغة بأنها لا تستطيع أن تمسك بخناق الشيء في كليته(49).

فهل هذا الاتهام المُعلَن ضد اللغة اتهامٌ قائم على أساس صحيح ؟ وهل حقيقةً أن اللغة هي تلك الهُوَّة ذات الجدران التي يتعذر اختراقها، وفي أعماقها تستقر الروح حبيسة إلى الأبد؟ إن الكلمة إنسانية، وإنسانية جدا. ولاشك في أن لها حدودها التي تقف عندها، ولكنها لا تبدو عاجزة عن التعبير عن أكثر حالات الروح ذاتية.

إن الكلمة ليست فكراً فقط، بل هي فنٌ أيضا. واللغة تكفي «وحدها ـ وهذا ما لم يكن معترفا لها به فيما يقول برادين ـ لتقوم في الشعر أو النثر الفني بالتصوير الرمزي الجمالي الذي لا يقل أهمية عن التصوير الرمزي للموسيقى أو الرسم، ويكون له نفس التأثير. على أن الفن بدوره ضرب من ضروب الفكر؛ ويعتريه من التحول ما يعتري الفن. فبعيداً عن اتهام اللغة بأنها لا تخدم الفكر، نستطيع إذن بالأحرى أن نَعْجَب من قابليتها وصلاحيتها لخدمته بأشكال متعددة...»(50). فهل يخطىء الرجل دائما في معرفة طبيعة العاطفة التي تترجمها له كلمات تهمس بها في أذنيه المرأة التي يحبها ؟ ألا تستطيع كلمات متواضعة ومستهلكة ومحتقرة أن تجعلنا نتقاسم مشاعر عميقة جدا عبَّر عنها شاعر كبير؟(51).

---

(49) بريس باران (Brice-Parain) : **أبحاث حول طبيعة اللغة ووظائفها** (Recherches sur la nature et les fonctions du langage, p. 15-30-32-33-163). بالنسبة للأدب السريالي ليست اللغة سوى صراخ وموسيقى، مع العلم بأنه في مقابل هذا النقد الموجه للغة باسم الفرد وباسم الكل تقوم مدرسة بودلير ومالارميه وفاليري لتعبر عن تقدير حقيقي للكلمة.

(50) مرجع سابق، ج 2، الفصل 1، ص. 481.

(51) كما يقول كاسيرر (مرجع مذكور، ص. 42) : «كل إبداع شفوي شاعري حقيقي، يظهر كأنه هو الحل لأسرار كل وجود روحي، وما هو موغل في الفردانية يمكن أن يصبح تعبيرا عن فكرة عامة جدا، وذلك بترجمة المحتوى ترجمة ملائمة كافية وفتح المعنى فتحا كاملا». وهذا ما عبر عنه كْلايستْ (Kleist) في (Werke, éd. Schmildt. IV, 76) بصورة جميلة فقال : اللغة ليست «حصَّارا في عجلة الروح» ولكنها «مثل عجلة ثانية تجري في موازاة العجلة الأولى على نفس المحور.» (نقلا عن كاسيرر. مرجع مذكور. ص. 43).

الفصل الرابع

وجهة نظر المعجميَّة

المعجمية والعلوم المُجاوِرة

تُعتبر اللسانيات، من وجهة نظر الذين يتعاطونها، علما مستقلا. وهذه هي وجهة نظر سوسير الذي ختم كتابه الأساسي بهذا القول : «**موضوع اللسانيات الوحيد والحقيقي هو اللسان في ذاته ومن أجل ذاته**»(1). فإذا قبلنا هذا الرأي أصبحت اللسانيات مستقلة عَن العلوم غير اللسانية التي تقترب من موضوعها. ولكن هل سيكون هذا الاستقلال قائما في الواقع على أساس صحيح ؟ ذلك ما سوف نعمل على بحثه بدراسة طبيعة العلاقات التي يقيمها علمُنا هذا مع جوانب أخرى من النشاط العلمي.

لقد أظهر اللسانيون لفترة طويلة احتقاراً للعلوم المجاورة وقلة اكتراث بها. ولم يعتقدوا ـ حين اقتنعوا باستقلالية فرع العلوم الذي يشتغلون به ـ أنهم بحاجة إلى الإحاطة علماً بالنتائج التي أمكن التوصل إليها في المجالات المحاذية. وهكذا نجد ف. برينو في كتابه ''**الفكر واللسان**'' الذي جدد فيه دراسة النحو الفرنسي، وفي أول سطر من مدخله، ينبه قارئيه إلى أن كتابه هذا ليس دراسة نفسية، وأنه أكثر من ذلك «قد تجنب بعناية الرجوع إلى علماء النفس وأعمالهم». وهذا الوضع يعتبر من خصائص عصر يمكن القول عنه إنه عصر ولّى. ففي الحقيقة ليست هناك حواجز محكمة بين اللسانيات والعلوم المجاورة، كما أنه لا وجود لهذه الحواجز بين الكيمياء

---

(1) (C.L.G.) (= **محاضرات في علم اللغة العام**). ونفس الفكرة نجدها عند ڤندريس في كتابه : (اللغة) (le langage =).

والفيزياء، أو بين دراسة الظواهر الكهربائية ودراسة الظواهر المغناطيسية. والمعجمية التي تحتل ـ كما سنرى ـ مكانةً متميزة، بل شاذة، عن باقي العلوم اللسانية، قامت بالخصوص لأجل أن تصبح حقلَ تجارب لبعض المقارنات. ولاشك في أنه ينبغي الاحتراس في هذا المجال من القيام بالمقايسات والمُقارنات السطحية كتلك التي تجعل المجتمع شبيهاً بجهاز عضوي ضخم، فتعمل بذلك على ميلاد النظريات العُضْوَانيَّة[2]. ولكن المُقَايَسات والمُمَاثلات الأخرى الأقل ظهوراً هي التي تكون أكثر عمقاً، وتستحق عندنا أن تثير الاهتمام.

هنالك بين العلوم ذات الموضوعات المتباعدة جدا، علاقات قُرْبى لا يُشك فيها لحد الآن. وهذه العلاقات حرية بأن تُستوحَى وتُستحضَر.

ولماذا لا تستعمل المعجميةُ نتائج العلوم المتقدمة جداً كعلم الرياضيات وعلم الفيزياء ؟ إن العلم واحد. وإنه لمن الحكمة أن تحاول بعض التصورات الحديثة القيام بعملية تركيبية تجمع بين علوم الطبيعة وعلوم الانسان. ففي كل منهما نجد مفهوم الجهاز العضوي الذي هو مفهوم ديناميٌ يسعى للحلول محل المفهوم الثابت للشيء، بينما تأتي الروابط الجدلية للتطور والنمو لتعوض الإطار الصلب للحتمية القديمة[3]. وكما تستعمل الرياضيات طريقة البرهنة تلجأ المعجمية إلى إجراء المطابقة (identification)[4]. ويستعمل عِلْمُنا ـ مثلُه مثلُ الفيزياء ـ الاستنباطات بالطريقة القياسية. على أنه بين **المعجمية الاجتماعية** والفيزياء يمكن إقامة علاقات خاصة : وهذا ما جعل أوغست كونت يصف بمهارة علم الاجتماع بأنه **الفيزياء الاجتماعية**. وحتى لا نكثر من الأمثلة نقول : ألا يمكن لذلك التجاوز الذي وقع في الفيزياء الأينشطينية لمفهومي الزمان والمكان أن يتحقق بواسطة معجمية تريد لنفسها أن تكون

---

(2) انظر مثلا (.. سبنسر : **مبادىء علم الاجتماع** : Principes de Sociologie) القسم الثاني.

(3) إ. دوكاسيه E. Ducassé (**مبادىء الاقتصاد التناظري** : Principes d'économie analogique) باريس، 1949، ص. 9، واقرأ (س. لوباسكو S. Lupasco) : **التجربة الفيزيائية الدقيقة والفكر الانساني**، L'expérience microphysique et la pensée humaine ـ باريس، 1941، وأيضا (أ. ضويون A. Doyon : **علم الأحياء والطب أمام العلوم البحتة** : Biolog. et médecine devant la science exacte ـ فلاماريون، 1948.

(4) بعض العلماء الانجليز والامريكان الذين انكبوا على الدراسات الاحصائية للمفردات الأدبية أمثال ج. أودني يول (G. Udny Yule) في كتابه (**دراسة إحصائية للمفردات الأدبية** : Statistical Study of litterary vocabulary - Cambridge University Press, 1944) هم في الأصل علماء رياضيون.

سكونية وتاريخية في ذات الوقت ؟ ولكن مهما تكن أنواع هذا التقارب مثيرة فلا ينبغي الانبهار بها مع ذلك، إذ لن يكون في المستطاع مد الجسور بشكل مفيد بين المعجمية والعلوم الرياضية والفيزيائية إلا بعد أن تحقق المعجمية تقدما كبيرا. وأخيرا هناك علاقاتٌ يمكن إقامتها أيضا بين نظام أحيائي (بيولوجي) وجهاز معجميّ.

وعلى العكس من ذلك، قد يكون من المثمر لعلمنا هذا أن نبيّن ما يربطه من علائق بالعلوم التاريخية والاجتماعية التي يقترب موضوعها من موضوعه.

المعجميّة والعلوم المُجاوِرة

أ ـ **التـاريـخ** : ـ على المعجمية أن تستعمل تعاليم التاريخ، ليس التاريخ التحليلي الذي يسرد الأحداث ـ تاريخ المعارك ـ لكن التاريخ الاقتصادي وتاريخ العادات، والدراسات التركيبية للتاريخ بصفة خاصة[5]. ولقد فهم بعض المؤرخين أهمية العلاقات التي تربط بين التركيب التاريخي والمعجمية، ومنهم المأسوف عليه مارك بلوخ الذي درس في كتابه ''**المجتمع الفيودالي**''[6] مفردات الفيوداليّة باختصار ولكن بطريقة جيدة. إننا نجد للعِلْمين معا وجهة نظر واحدة: فكلاهما يأخذ فترة معيَّنة ويعتبرها ظاهرة يمكن الإحاطة بها في خلاصة تركيبية دالة.

والتاريخ الأدبي ذو فائدة كبيرة جدا، ولكن بشرط أن يبتعد عن اهتماماته بالترجمات الذاتية؛ وتلك في الغالب سمةٌ من أبرز سماته. وليس هناك مؤلَّف مثلا أكثر فائدة للدارس المعجميّ الذي يشتغل بالقرن الثامن عشر من كتاب ''**ما قبل الرومانسية**'' لصاحبه أ. مونجلاند.

إن الوثائق التي تقدمها هذه العلوم المختلفة سوف تُستخدَم من أجل إقامة فرضيات العمل التي تسبق الأبحاث الخاصة بالمفردات، وسوف تسمح بصفة خاصة بتحديدٍ محتملٍ لتقطيعات خاصة بتاريخ المعجم، هذا التاريخ الذي تعتبر إقامته من أكبر مهام دراساتنا.

(5) لنذكر على سبيل المثال كتب م. ل. فيبر الجيدة، وكتابَيْ بول هازار وهما : (**أزمة الضمير الأوربي**) و(**الفكر في القرن 17**). أما فلسفات التاريخ كفلسفة سبنجلر (انظر كتابه : (**سقوط الغرب**) وأعمال البارون سيليير فيمكن استعمالها لكن بحذر.

(6) Marc Bloch : Société féodale, collect. l'évolution de l'humanité, Paris, Alain-Michel, 1939, 2 Vol.

ب ـ علـم الاجتـمـاع : لعلم الاجتماع أوجه شبه عديدة بالمعجمية. وكون اللسانيات علماً اجتماعيا ذلك هو ما أكدته المدرسة الاجتماعية مرات متعددة، وأكده ماييه بصفة خاصة حين كتب يقول : «العنصر المتغير الوحيد الذي نستطيع اللجوء إليه لمعرفة التحول اللغوي، هو التحول المجتمعي الذي ليست التحولاتُ اللغوية إلا من نتائجه التي تأتي سريعة ومباشرة أحيانا، وفي غالب الأحيان تأتي بطيئة غير مباشرة»[7]. وتلك فكرة خصبة وإن كانت لا تنطبق تماما على كل المجالات اللسانية. وبالفعل، ففي الوقت الذي نجد فيه النحو «يرجع دائما إلى أصول قديمة جدا سابقة للفكر العَالِم» و«يحمل في ذاته ذكرى الروحانيات التلقائية»[8]، نرى المفردات تشكل ـ عكس ذلك ـ عنصرا متحركا يخضع لأبسط التحولات التي تقع في الوسط الاجتماعي.

موضوع المعجمية إذن هو، كموضوع علم الاجتماع، دراسة الأفعال الاجتماعية. وسوف تَستعْمِل، في كل مرة تستطيع ذلك، عطاء ونتائج أختها الأكبر : علم الاجتماع[9]. والمعجمية بمقدار اهتمامها بالدراسات التركيبية والصوتية عليها أن تفتح الأبواب أمام علم الاجتماع.

ولكن الذي يميز علماً عن علم آخر ليس هو الموضوع فقط[10]، وإنما هو التباين التام والاختلاف في وجهة النظر[11]. وما يميز المعجمية شيء خاص. فنحن بالانطلاق من دراسة المفردات نحاول تفسير مجتمع معين. ويمكننا أيضا أن نعرِّف **المعجمية بأنها علم مجتمعي يستخدم الأدوات اللسانية التي هي الكلمات.**

المعجمية إذن، علم مستقل بذاته، ولكن ليس بالمعنى الذي حدده سوسير[12] ومدرسته حين اعتبرا التغيرات المجتمعية خارجة عن موضوع دراستنا،

---

(7) L.H.L.G.; T. 1, p. 17 (= **اللسانيات التاريخية واللسانيات العامة**)

(8) ش. سيروس. **اللسان، المعنى، الفكر** (Ch. Serrus, la langue, le sens, la pensée. p : 2) والتقارب الذي يحاول فُون فُرتبورغ (Von Wartburg) أن يقيمه في كتابه المسمى (**بنية اللسان الفرنسي وتطوره**) (Structure et évolution de la langue française) بين تطور ظواهر التركيب وتطور الظواهر الاجتماعية يبقى دائما محل نقاش.

(9) إن دراسة المفردات سوف تتبنى مثلا تصنيف الأفعال الاجتماعية الذي قام به بعض علماء العراقة أمثال (موص) و(لوروا جوربان). وسيكون على المعجمية بطبيعة الحال أن تحترس من النظريات التي يمكن أن نعدها متجاوزة، وأعمال دوركايم التي قامت عليها آراء سوسير تنتمي في جزء منها لهذا الصنف.

(10) أفلاطون في (السوفسطائي) (Sophiste) ترجمة (ديس Dies)، الأعمال الكاملة ج 8، ص. 372.

(11) سان طوماس نقلا عن ميرسن في (cheminement. p. 476)

(12) انظر ص. 107 من هذا الكتاب: الهامش رقم 1.

بينما اعتبرنا نحن أن هذه التغيرات بالذات هي الموضوع الذي نبحث فيه. نحن نومن بأن المعجمية علم متميز عن غيره وله أهميته[13]، ولكن نومن أيضا بأن هذا العلم يمكن أن يجد مكانه داخل مجموعة أوسع من العلوم. ومنذ سنة 1948 كان رينان على وعي بهذا حين قال : «ليس هدف الفيلولوجيا هو الفيلولوجيا ذاتها، فقيمتها تأتي من كونها شرطا ضروريا للنفس الانسانية ولدراسة الماضي»[14]. وقال : «الوسيلة الوحيدة إذن للدفاع عن العلوم الفيلولوجية والمعرفة المتبحرة عموما، هي تصنيفها داخل هذا المجموع الذي نطلق عليه اسم علوم الانسانية في مقابل علوم الطبيعة. ومن غير هذا لا يكون للفيلولوجيا أي موضوع، وتكون هدفاً لكل الاعتراضات التي كثيرا ما تقوم في وجهها»[15].

تحتل المعجمية إذن وضعية خاصة بين اللسانيات وعلم الاجتماع (انظر الشكل 1)، وهي وضعية صعبة لأنها تتطلب وثائق متعددة. فالمعجمية باعتبارها علما تركيبيا عليها أن تستعير وثائقها من تاريخ الحضارة واللسانيات والتاريخ الاقتصادي... إلخ... إلخ، كما أنها وضعية ممتازة، لأنه ـ كما لاحظ (هـ. سي H. See) ـ بوجود المعجمية على الحدود المتاخمة لكثير من علوم الانسان «يتأتى الحصول على تفسيرات خصبة، ورؤية نقط التقارب التي تمتنع رؤيتها على المشتغلين بالتخصصات المنعزلة»[16]، وكما قال ڤاليري : «على المخترع أن يتسرب عبر الحدود والحواجز، ودوره أن يخترقها»[17].

---

(13) نحن نعلم أن أوغست كونت قد أحل علم الاجتماع المرتبة الأولى في تصنيفه للعلوم.

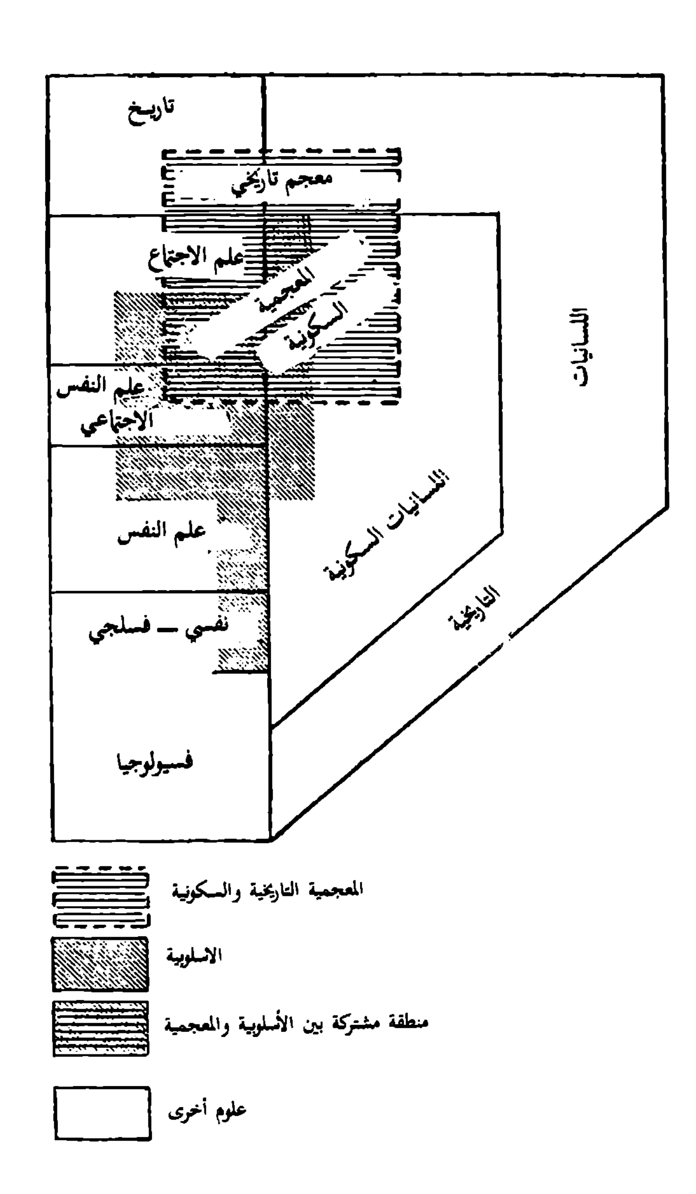
(14) **مستقبل العلم**، ص. 130

(15) نفسه، 1، ص. 211

(16) **العلم والفلسفة من خلال نظرية إ. ميرسون** Science et Philosophie d'après la doctrine d'E. Meyerson. p : 192

(17) **مختلفات** : (Variété (1) p : 247)

(المعجمية والعلوم المجاورة)



(الشكل 1)

الفصل الخامس

منهج المعجمية

1 ــ المعجمية التاريخية والمعجمية السكونية

على دراسة المفردات، وهي تنطلق من وجهة نظر مغايرة لوجهة نظر علم الاجتماع، أن تضع لنفسها منهجاً خاصاً.

ونحن في كل علوم الانسان التي يتدخل فيها العامل التاريخي (في علم الأحياء وبشكل أقوى في علم النفس، وبأشدَّ من ذلك في علم الاجتماع) تواجهنا مشكلة منهجية تُطرح منذ البداية وهي : هل ينبغي أن ندرس الأفعال والظواهر من حيث تطورها التاريخي أم ينبغي إهمال هذا الجانب واعتبارها بمثابة مجموع كليٍّ، أو بنية تحددها بالأساس العلاقات المتزامنة الموجودة بين مختلف العناصر المكونة لها ؟

لقد فرقوا بشكل واضح تقريبا، مع بعض الإلحاح على أحد الطرفين، بين علم اجتماع سكوني (statique) وعلم اجتماع ديناميٍّ متحرك. (ومن هنا كانت نقطة الانطلاق في التفرقة التي أقامها أوجيست كونت بين النظام l'ordre والتقدم le progrès. فعند ماركس نجد أن النظرية التطورية للأفعال والظواهر الاجتماعية تتقابل مع نظرية التوازن الناتجة عن مجيىء الاشتراكية. ونفس الشيء نجده عند دوركايم. فمن الناحية النظرية على الأقل، هناك تميز بين وجهة النظر التاريخية التي يتعلق بها دوركايم بصفة خاصة وبين الدراسة التزامنية للأفعال والظواهر الاجتماعية. وأخيرا نجد تلك الفصول التي خصصها جان بياجيه للفكر الاجتماعي في كتابه المسمى **مدخل إلى الابستمولوجيا التكوينية** تلح على ثنائية التزامني والتعاقبي (= السانكروني والدياكروني).

ولكن اللسانيين على الخصوص هم الذين أكدوا هذا التقابل. فسوسير رسم الخطوط الكبرى لمنهج قابل لأن يُطبَّق على علم اللغة العام وتبناه نظريا على الأقل أغلب اللسانيين المعاصرين. ومن الأهمية بمكان أن نبين هنا إلى أي حد يمكن للمعجمية أن تفيد من هذا المنهج :

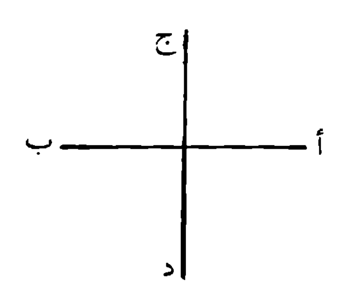
إن فكرة سوسير الأساسية هي التمييز بين التعاقبية والتزامنية. فإلى حدود القرن التاسع عشر، عمل اللغويون على وصف **حالات** اللسان. «وهكذا فقد حاول **نحو بور روايال** (Grammaire de Port-Royal) أن يصف الفرنسية في عهد لويس الرابع عشر وأن يحدد قيمتها. ولم يكن من أجل هذا في حاجة إلى لغة العصر الوسيط... هذا المنهج إذن منهج صائب، ولكن ذلك لا يعني أن تطبيقه كان جيدا. فالنحو التقليدي يجهل أجزاء كاملة من اللسان، ومنها كيفية صياغة الألفاظ. إنه نحوٌ معياريٌّ ويعتقد أن عليه أن يُملي قواعد عوض أن يلاحظ الظواهر»[1]. ومنذ أن وُجدت اللسانيات الحديثة، أي منذ ميلاد النحو المقارن الذي دشنه بوب (Popp)، كرَّست نفسها بالأساس للدراسة التاريخية والمقارنة. فبينما كان النحو التقليدي تزامنيا أصبحت لسانيات القرن التاسع عشر تعاقبية : ومن أجل ذلك كان تصورها «هجينا ومترددا» حسب تعبير سوسير، لأنها لم تعرف كيف تفرق بين **الحالات**، أي دراسة أفعال اللسان في تاريخ معين، وبين **التَّتابُعات**[2]. إنه بهذا يمكن تناول أفعال اللسان بطريقتين مختلفتين : من وجهة نظر تاريخية، ومن وجهة نظر سكونية.

وقد عيَّن سوسير، بناء على ذلك، في الدراسات اللسانية محوراً لحالات التزامن (أ ــ ب)، أو محور اللسانيات التزامنية، ومحوراً للتَّتابعات (ج ــ د) أو اللسانيات التعاقبية (= أو التطورية). فـ «يكون تزامنيا كلُّ ما له علاقة بالحالة الثابتة لِعِلْمِنا، وتعاقبياً كلُّ ما له علاقةٌ بالتطورات»[3]. وبينما تدرس اللسانيات التاريخية أو التعاقبية

(1) Cours de linguistique générale, p. 118 (= م.ع.ل.ع).

(2) كان سوسير أقل قسوة بكثير على النحو القديم من قندريس الذي دافع عن وجهة نظر المقارنين وقال عنها إنها : «كانت بمثابة رد فعل سعيد ضد التصور المنطقي الذي كان يحتقر التاريخ، ولا يرى في اللغة إلا التطبيق الموحَّد الشكل لقوانين الفكر. والتاريخ وحده هو الذي سمح بتوضيح العلاقات كثيرة التعقيد والتنوع الموجودة بين الألسنة، وبتقسيم هذه الأخيرة إلى عائلات وإثبات تطورها الداخلي وتوسعها في الوقت ذاته. (**حول مهام اللسانيات السكونية** =Sur les tâches de la linguistique statique, in (Ps.L., p. 172).

(3) C.L.G. 120 (م.ع.ل.ع).



تاريخ كلمة أو صيغة نحوية أو صوتٍ خلال فترة معينة(4) كالفترة الواقعة ما بين المرحلة الهندوأوربية واللاتينية المحرَّفة، أو الواقعة ما بين فرنسية العصور الوسطى والفرنسية الحديثة... إلخ، تصف اللسانياتُ التزامنية أو السكونية لساناً أو مظهراً من هذا اللسان خلال فترة محددة، ونمثل لهذا النوع بكتاب غريماس ''**المُوضة في 1830 : محاولة لوصف مفردات اللباس من خلال صحف العصر الخاصة بالموضة**''(أ) (وهي أطروحة مرقونة).

وإذا كانت اللسانيات التاريخية «تنظر إلى الألسنة في حال تطورها... فإن اللسانيات السكونية تقوم بدراسة حالات اللسان، وتجعل من مبادئها وحدة الفرد المتكلم وتماسك اللغة اللسانية التي يحملها كل شخص معه. وليست لها أية علاقة بالتاريخ. بل إن كل فكرة تاريخية مسبقة تزيف دراسة حالة اللسانِ التي تكون عليها في دماغ المتكلمين وتسيء تفسيرها»(5).

إن التمييز الذي وضعه سوسير كان خصباً بكل تأكيد. وأهمية اللسانيات التزامنية (أو الوصفية أو السكونية) كانت تستحق العناية. وكما لاحظنا فإن اللسانيات السكونية تكون سابقة للسانيات التعاقبية، وهذا أمرٌ عادي. يقول ماييه : «عملياً، يقوم النحو المسمى تاريخيا على وضع مجموعة أنحاء وصفية لعدة عصور متتابعة بعضاً إلى جانب بعض، وبعد ذلك يلاحظ أن الظاهرة (أ) في عصر أول تُناظر

---

(4) يمكن من أجل التمثيل للدراسة التعاقبية أن نذكر العمل الذي خصصه شارل برينو لكلمة : esprit في (Mél. Roques).

(5) فندريس : **مهام اللسانيات السكونية**(Les tâches de la linguistique statique) ضمن: (Psychologie du langage, p. 174)

(أ) عنوان البحث الأصلي : (La Mode en 1830 : essai de description du vocabulaire vestimentaire d'après les journaux de mode de l'époque) (المترجم).

الظاهرة (ب) في عصر ثانٍ، والظاهرة (ج) في عصر ثالث[6]. ولكنْ هناك في الواقع كثير من اللسانيين الذين يعتبرون أنفسهم تلامذةً لسوسير ما يزالون يخلطون بين اللسانيات التعاقبية واللسانيات السكونية. وحتى أولئك الذين أقاموا التمييز الضروري بينهما قد نالوا من قيمة النتائج التي كانت منتظرة من اكتشاف سوسير، حين أسندوا إلى اللسانيات السكونية دوراً طموحا جدا. ألسنا نقرأ بقلم اللساني اللامع السيد ڤندريس هذا التأكيد الآتي الذي نعتقد أن من واجبنا النهوض ضده ؟ يقول ڤندريس : «كل عناصر الجملة تساعد على التعبير عن الفكرة، فلا نستطيع تفكيكها وفصل بعضها عن بعض دون الحطِّ من قيمة البحث والنيل من نتائجه... إن اللسانيات السكونية تُسند مهمة واحدة إلى العلوم التي كان لها ميلٌ نحو الانعزال بعضها عن بعض، من أجل تكريس نفسها للقيام بأعمال مستقلة. وهذه حالة ينبغي أن تنتهي»[7]. فحسب السيد ڤندريس إذن، «كل دراسة سكونية ينبغي أن تبدأ من تحليل الجملة». وكما يقول المثل : «من بالغ في السعي إلى الشيء لم يفلح في تناوله»، فإن لسانيات اليوم فيما يبدو، عليها أن تضع نفسها في بُعْد متساوي المسافة بين التحليل البالغ مداه والتركيب الذي لم ينضج بعد ويؤدي إلى الفشل المسبق.

والانتقاد الثاني الذي تواجه به التصور السكوني للسانيات هو الأكثر خطورة لأنه لا يتعلق بتطبيقات المبدإ ولكن بالمبدإ ذاته :

إن الصعوبات التي تواجه اللسانيات صعوباتٌ خاصة بها، فكل العلوم التي يَكتسي موضوعها مظهراً مكانيا وزمانيا معاً، يكون أو سيكون عليها أن تحل تناقض هذين العاملين. ففي الفيزياء النووية يؤدي مبدأ هيسمبرغ إلى منْع الفصل بين الصفات المكانية والصفات الدينامية المتحركة. وليس الموقف هنا موقف استسلام أمام مظاهر التقارب المُغامِرة، ولكن يتعلق الأمر فقط بتوضيح بعض أوجه الشبه. ولنقف في الاحتجاج لذلك عند حدود المعجمية. فماذا نلاحظ ؟ نلاحظ أنه من الصعب أن نتبنى التصور السكوني لسوسير دون تحوير، ذلك أنه يبدو مستحيلا تجريد الكلمة من عامل **الزمن** بسبب أنه يستحيل عزْل عنصر من العناصر عن العمليات التي أنتجته. وكما قال بياجيه عن دوركايم الذي لم يعرف دائما كيف يتجنب هذه الصعوبة : فـ «إن التكوين الاجتماعي للبنيات لا يفسر وظائفها الخارجية، ذلك أن

(6) **اللسانيات التاريخية واللسانيات العامة** (ل.ت.ل.ع) L.H.L.G., p. 45

(7) ڤندريس، مرجع مذكور، ص. 176

هذه البنيات عندما تندمج في كليات جديدة يمكنها أن تغير دلالتها. وبعبارة أخرى : إذا كانت بنيةُ تصورٍ ما ترتبط بتاريخها السابق، فإن قيمتها ترتبط بوضعها الوظيفي داخل الكلية التي تنتمي إليها في فترة معينة...»[8]. إن الصورة الآتية التي تقترحها علينا اللسانيات السكونية عن الواقع غير واضحة بلا شك. فالكلمات التي نستعملها قد تلفظت بها الأجيال التي سبقتها بقيم مختلفة. إن الكلمة لها **ماض**، إن الكلمة **تتذكر**[9]، لذلك نعتقد أن بين المعجمية الوصفية والمعجمية التاريخية تكاملا ولا أقول استمرارا.

ونحن مع اعتقادنا بالطبيعة النظرية لهذه الوساوس والشكوك وجدنا من المناسب أن نبوح بها. وسوف نرى فائدة ذلك.

2 ـ تحديد موضوع الدراسات

إن الدراسات المعجمية، بحكم عملها في مجال تتقاطع فيه إحداثيتا المكان والزمان، مطالبة بأن تحصر داخل هذا الاتجاه المزدوج ميدان بحوثها. وسنبدأ أولا بتحديد الميدان داخل الزمن.

أ ـ التفريع داخل المُدَّة :

سيكون على المعجميَّاتي لكي يحدد ـ داخل أفعال المفردات ـ التقطيعات التي تندرج ضمنها دراساتُنا، أن يتجه إلى العلوم التي تزوده بعناصر التركيب الأولية والضرورية لانطلاق عمله التحليلي الذي ينكب عليه.

وقد يبدو ممكنا دراسة المفردات بواسطة سلسلة من البحوث السكونية المتقاربة في الزمن (والمفروض أن يتم إنجازها بشكل جيد) التي من شأنها أن تسمح بحصر الحقائق المعجمية بأكبر ما يمكن من الدقة. فهل سيكون ذلك عملا علميا ؟ أو ليس من الأفضل اختيار اللحظات التي يكون فيها التطور المراد وصفه واضحا بما فيه

---

(8) **مدخل إلى الابستمولوجيا التكوينية** (Introduction à l'épistémologie génétique, p. 213)

(9) «عندما تسير خطوات الفكر نحو ما هو أكثر عمومية وأكثر تجريدية، يبدو أنه لا يمكن أبدا نسيان الطريق الذي تم قطعه. وهذا يصح أن يقال عن عملية عقلية بقدر ما يصح أن يقال عن مجموعة عمليات خلال تطورها التاريخي» (إ. ميرسون : الوظائف النفسية، ص. 93) وهو يحيل على : (جونسيت Gonseth) في : **الرياضيات والواقع** (Les mathématiques et la réalité)

الكفاية ؟ فمن المُغْري أن يبحث المرء في تاريخ المفردات عن الفترات الحاسمة واللحظات المتميزة والتقطيعات التي يُلاحظ فيها وجودُ المجتمع داخل التاريخ.

لنحاول إذن أن نحدد في مادة دراستنا تقطيعات معقولة، إذ قد لا يكون مقبولا إقحام تصنيفات اعتباطية يقدمها التاريخ السياسي[10]. وهناك احتمال ضعيف مسبقا بأن يكون تاريخ وفاة مَلِكٍ أو تاريخُ توقيع معاهدة مصادفاً لإحدى تقطيعات المعجم. وحتى لا يواجه فـ. برينو نفسه بتواريخ يقدمها له **التاريخ المُؤَرِّخ**[ب]، أدخل في كتابه المسمى : **تاريخ اللسان الفرنسي** جملة تقسيمات قائمة على الحَدْس والتخمين. فتاريخا 1660 ـ 1715 اللذان يضعان حدود دراسة أفعال وأحداث اللسان التي انكب عليها فـ. برينو في الجزء الرابع من كتابه ''**قضايا اللسانيات ومناهجها**'' هما تاريخا فترة مُلْك عظيمة، فهل لهما في ميداننا دلالة ما ؟ لا أظن ذلك. ويمكن أن نقول نفس الشيء عن التاريخين المرسومين في الجزء السادس وهما 1713-1789.

ويقترح ڤون ڤرتبورغ هو الآخر في كتابه المرموق ''**قضايا اللسانيات ومناهجها**'' (ص 160) تقطيعات مستوحاة من التاريخ السياسي : فقد يكون مثيراً أن تقترن بداية الحملة الايطالية لشارل الثامن (1495) بدخول عناصر جديدة في اللسان. فلماذا لا يوضع التقطيع في زمن بعد ذلك، أي : حوالي 1520-1525 وهي الفترة التي بدأت فيها العقلية الفرنسية تتطور في اتجاه الاحتكاك بإيطاليا ؟ أما تاريخ 1715 فنحن نرفض قبوله : فمن وجهة نظر تاريخ المجتمع والمعجم الذي يعبر عنه، نجد أن «**عصر الأنوار**» يبدأ قبل موت لويس الرابع عشر. ولقد كان بول هازار مُحِقاً حين أرخ لبداية «أزمة الضمير» التي بشرت بالقرن الثامن عشر، بسنة 1680 (وقد نفضل نحن أن نضع لها تاريخ 1690 بالنسبة لفرنسا)[11]، وذلك على اعتبار أن القرن الثامن عشر هو الآخر حقيقة تاريخية.

---

(10) يكاد لا يكون مطلوبا التنبيه إلى الطبيعة الميتافيزيقية (والتعبير لسبنجلر في كتابه : «**سقوط الغرب**» الترجمة الفرنسية، ج 1، ص. 45) لخطاطة قديم ـ عصر وسيط ـ عصر حديث... وفي هذا الموضوع انظر: ماطوري وغريماس **منهج المعجمية**: La méthode en lexicologie, Roman, Forsch, LXII (1950), p. 212.

(11) التاريخ الذي يوافق نصف الجيل، وهو سنة 1670، كان له بالتأكيد دور هام : فقد حدثت تحولات عميقة في هذا التاريخ، وكثير من الألفاظ المتعلقة بأخلاقيات العصر مثل (gloire [= مجد]، mérite =

(ب) يقصد بالتاريخ المؤرِّخ (L'histoire historisante) التاريخ الذي يسرد الأحداث والوقائع (المترجم)

إن تحديد التقطيعات يطرح مشكلا حاداً لن يتأتّى حله إلا حين يأتي اليوم الذي يسمع فيه عدد كبير من الدراسات التحليلية بتحديد التواريخ المهمة في حياة المعجم والمجتمع. وفي انتظار هذا اليوم الذي ما يزال بعيداً، علينا أن نجد حلا للانتظار.

من أجل هذا سوف نستخدم معطيات المؤلفات الموضوعة حول اللسان (ويقوم على رأسها كتاب **تاريخ اللسان الفرنسي** لبرينو) والمعلومات التي تقدمها لنا العلوم المجاورة وهي : التاريخ الاقتصادي وتاريخ العادات في المرتبة الأولى، وتاريخ العلوم والتاريخ الأدبي، وفلسفة التاريخ، في المرتبة الثانية. وهي معلومات تكون بالطبع موضوعات مضمونة، ولكن في حالة ما إذا تمكّن عددٌ من المؤلفات المنتمية إلى علوم جد متباعدة، من الاتفاق على أهمية أحد التواريخ، فقد نستطيع أن نقبل مؤقتاً كونَ هذا الاتفاق قائماً على أساس حقيقة موضوعية. وهكذا يمكننا أن نعتبر أنه من المحتمل جدا أن يكون تاريخ 1760 «حقبة مِفْصَلِيَّة».

إن التواريخ المقترحة على هذا النحو عبارةٌ عن عدد من علامات الطريق التي تنتصب بشكل غير منتظم في تاريخ المجتمع. ولكن بما أن دور العلم هو إدخال العقلانية إلى فوضى الأشياء، فسنحاول باستخدام التواريخ التي تمَّ ايجادها، أن نُقسِّم بطريقة منتظمة، مادة الدراسات المعجمية نفسَها، وهذا ما سنصل إليه بواسطة استعمال «فكرة الجيل».

وتعود هذه الفكرة التي أوجدها تاريخ الأدب(12) وتاريخ الأفكار(13)، وأثارت

= [= استحقاق]، galant [= ظريف]، vertu [= فضيلة]، raison [= عقل]) شهدت معانيها تطورا ملحوظا. انظر في الموضوع : (بنيشو: Benichou, Morales du grand siècle, Gallimard)

(12) أ. تيبودي : **فكرة الجيل** (A. Thibaudet, L'idée de génération, in. Nouvelle revue française, 1921).

أ. مونجلاند : **تاريخ داخلي** A. Monglond, Histoire intérieure, in. Nouv. Revue française, 1921 وقد أهمل هـ. بير (H. Peyre) ذكره في كتابه.

ج. بوميه : **محاضرات** (J. Pommier, conférences, Paris, Droz 1941)

ف. ل. صولنييه : **الأدب الفرنسي في عصر النهضة** V.L. Saulnier, La littérature française de la rennaissance, P.U.F, 1942

ر. جازينسكي : **تاريخ الأدب الفرنسي** R. Jasinski, Histoire de la littérature française, Paris, 1947

هـ. بير: الأجيال الأدبية H. Peyre, les générations littéraires, 1948

(13) إ. مونتي : **الأجيال الاجتماعية** E. Mentée, Les générations sociales, Paris, Bassard, 1920 =

اهتمام علماء الاجتماع[14] إلى عهد قديم جدا؛ ولكنها استعملت لأول مرة بشكل منظَّم عند الرومانسيين وخاصة عند ستاندال[15]، كما استخدمت عند سانت بوف. وكما لاحظ السيد أ. مونجلاند، فإن هذه الفكرة إذا كانت قد فرضت نفسها «على معاصري فترة مضطربة تجلَّت فيها اختلافاتُ السن والتكوين بكامل الوضوح، أفلا يكون ذلك دليلا على أنها تمثل حقيقة ثابتة ؟»[16].

إن الخلافات بين الأجيال لم تكن لتسلم من الكتاب والمسرحيين الذين استغلوها، فقابلوا بشكل واضح ومبسط أحيانا بين أفكار ومشاعر كل من الآباء والأبناء.

وفي اللسانيات يظهر هذا التقابل بشكل جلي. فلا أحد يجهل أن الأطفال يتعلمون اللسان من آبائهم ومعلميهم بشكل جيد، وأنهم يقحمون فيما يتعلمونه بعض الجديد. ويمكن الاعتقاد (وهذا ما أكده كثير من علماء اللغة) بأن التغيرات في اللغة تتم بشكل غير محسوس، ولكننا نحن لا نومن بذلك : ففيما يخص المعجم، يبدو أن التطور يتم بشكل متقطع: فهو يظهر عبر طفرات وثورات شبيهة بما يسميه الطبيعيون بالتغيرات العنيفة[17].

في كل يوم يولد أطفال ويموت شيوخ عجزة، ولكن ليس في كل يوم تولد أو تموت مفاهيم أو كلمات. فكأن ما يحدث هو أنه عند تواريخ منتظمة نسبياً، ولأسباب متعددة (تأثير الوسط، وجود أشخاص غير عاديين... إلخ)، يظهر جيل متميز فيتهم بعنف ــ وهو ينفذ إلى الحياة الاجتماعية ــ ما للجيل السابق من تمثيلات جماعية[18].

= وخاصة المجلدات العديدة التي نجد فيها البارون سايير (Seillère) وهو يؤرخ للصوفية الحديثة، يحدد عددا من التقطيعات التي تقابل الجيل الأول والثاني والثالث.. الخ من الأجيال الرومانسية.

(14) جان بياجيه : (Intro. à l'épistémologie génétique, 3, p. 222) وفي(Totem et Tabou p. 217) يلجأ فرويد إلى مفهوم اللاوعي الجماعي، الذي قد يغتني مع كل جيل، من أجل تفسير التقدم الذي يحققه المجتمع. فحسب فرويد تؤلف استمرارية الحياة النفسية للأجيال المتعاقبة مشكلا لم يتم حله بعد. ويضيف : «هذه الاستمرارية تضمنها وراثة الامكانيات النفسية التي تكون ــ من أجل أن تصبح فاعلة ــ في حاجة إلى أن تتولى بعضُ أحداث الحياة الفردية تنبيهها»، ص. 29.

(15) Racine et Shakespeare, ch. 3.

(16) . مونجلاند، مرجع مذكور، 264/1.

(17) كان سان سيمون يقول بفكرة قريبة من هذه حين قابل بين الفترات النظامية التي يكون فيها التطور بطيئا في المجتمع وبين الفترات الحرجة التي يكون فيها التطور سريعا.

(18) انظر الهامش رقم 43 من ص. 103.

كثير من وسائل التفكير الجماعية هذه، كانت من قبل تفرض نفسها (بفضل الرأي أو السلطة... إلخ) بشكل عام تقريبا. وبسرعة ـ بعد ذلك ـ أصبحت وكأنها باطلة. وعلى العكس من هذا، هناك وسائل أخرى تبنَّاها الجيلُ الناشيء رغم أنها لم تكن مقبولة قبل عشر سنوات من ذلك إلا في نطاق دوائر محدودة منتمية إلى ما يمكن تسميته بـ «المعارضين» أو «الثوريين». وقد لاحظ دوركايم بحق أن «الرأي العام» كان دائما يبدو متخلفا عن التيارات العميقة في المجتمع، وهذه التيارات هي التي تظل متماسكة حينما يظهر الجيل اللاحق، ولكنها سرعان ما تتحجَّر وتشكل طبقة ستتولَّد منها طبقات أخرى.

والحقبة الواحدة هي بمثابة كلٍّ، لكن الظواهر الجماعية المختلفة لا يحدث تطورها داخل مجتمع معيَّن في وقت واحد. فالرومانسية قبل أن تظهر في الأدب، كانت (ما بين 1819 و1927) مدرسة للتصوير. ومن شأن المفردات أن تعكس هذا التفاوت بين مختلف مظاهر الحياة المجتمعية.

إن النقاد والمؤرخين الذين درسوا الأجيال يقدرون لكل جيل منها مدة تتراوح ما بين 30 و36 سنة هي «متوسط الحياة الاجتماعية المفيدة»[19]. ونحن سنقبل بهذه النتيجة ونحاول أن نضع ـ بتواريخ منتظمة ـ علامات وصُوىً يُهتَدى بها في تاريخ الحضارة وتاريخ المفردات. وفي الحالة الراهنة من معلوماتنا، يبدو من المستحيل تحديد التواريخ التي تقع بينها أجيال العصر الوسيط. وذلك راجع ـ قبل كل شيء ـ إلى العدد القليل من الأعمال المعجمية المخصصة لهذا العصر. وأما أُطروحَتا كلٍّ من هوليمان وسْكُونْز اللتان تكلَّمْنَا عنهما سابقا[ج]، فإنهما لا تقدمان (ولم يكن بمستطاعهما ذلك) أية إرشادات في هذا المجال. ثم إن الشك سيظل قائماً ما دامت أعمال العصر الوسيط التي نتوفر عليها ليست مؤرخة بشكل دقيق. ولهذا فنحن لن نقترح (وهذه مجرد فرضية للعمل) إلا تواريخ متأخرة عن بداية القرن السادس عشر، ولن نعطي إلا تفسيرات مجملة جدا (وهذا ما نعتقد استحالة تجنبه) وسطحية جدّاً :

1520 ـ تُولد تحت التأثير الإيطالي (وتحت تأثير القدم) أشكال جديدة للإحساس والفهم (وفي عمدة البلجيكيين =Le Maire des Belges،

---

(19) (Thibaudet, p : 346)، مرجع مذكور.

(ج) انظر ص. 55 من هذا الكتاب (م).

أمثلة على ذلك). وظهور كلمة éducateur (= المربِّي) الذي لوحظ سنة 1527 يرمز لذلك[20] فيما يبدو لنا.

+1550=30 ـ تنتصر النزعة الانسانية وتولد علوم طبيعية فيتبلور ذلك في كلمة classique (= كلاسيكي) التي ظهرت سنة 1548 وكلمة Système (= نظام) التي ظهرت سنة 1552[21]. ثم يكون، ميلاد الكيمياء (1554)... إلخ.

+1585=35 ـ تظهر ملامح الكلاسيكية واضحة في الفن والأدب والفكر (مونطين على سبيل المثال)، وتستطيع الكلمات الآتية وهي : Ethique (= أخلاقي) التي ظهرت سنة 1580 بدلالة النعت. وartistement (= بفنية، بمهارة) سنة 1584. وanalyse (= تحليل)، وhypothèse (= فَرْضية) 1585، أن تقوم بدور التوضيح لهذه العقلية. كما أن الحياة المدنية على عهد هنري الثالث هي التي تجسد معنى كلمة honnêteté (= استقامة، شرف) خلال 1630.

+1620=35ـ تظهر من جديد فيما بين 1600 و1620 تلك الحركة التي كانت ملامحها قد ارتسمت خلال الحقبة السابقة، فحالت الحروب الدينية دون بلوغ أهدافها. ولم يكن ماليرب (Malherbe) شيئا آخر سوى ذلك العامل المرموق جدا في حركة ما قبل الكلاسيكية الأدبية

---

(20) على أنه يبدو أن التاريخ المهم ليس هو 1520، أي الحقبة التي ظهر فيها جيلٌ وظل مرتبطا بمفاهيم عَصْر وَسيطية؛ ولكنه تاريخ واقع بين جيلين وهو 1535.
وفيما بين 1532 و1539 ظهرت أعمال مارو ورابوليه وكالفان ودِيسْيِرْيِيه (Despèriers) التي تعبر عن حالة نفسية جديدة. وكلمة humaniste (= إنساني)، التي لوحظ ظهورها سنة 1539، من المحتمل أن تكون متقدمة على ذلك التاريخ. وفي سنة 1534 استعمل رابوليه كلمة philologue (= فيلولوجي).
وتعود كلمة symétrique (= متناسق، متطابق، متناسب) إلى سنة 1530، وكلمة sympathie (= تعاطف، ود) إلى سنة 1534.

(21) تكرر القول هنا بأنه طالما لم يكن بالمستطاع وضع قوائم جدية بالتأريخات datations (هذه القوائم التي يفترض ألا يكون التصنيف فيها قائما على مراعاة الجذور فقط كما هو شأن القواميس الاشتقاقية، ولكن يجب أن يكون التصنيف أيضا بحسب التواريخ وبحسب المفاهيم)، فسيكون من الصعب على المرء أن يقدم في مجال التقطيعات بحسب الأجيال شيئا آخر سوى جملة من الآراء الذاتية وفي أحسن الأحوال بعض المحاولات التقريبية. ولكن هذا لا يعني أننا نرفض محاولة القيام بهذه التصنيفات، فالنتائج التي يمكن أن نصل إليها مع ذلك مشجعة بالنسبة للأعمال السابقة : أليس مهما أن نلاحظ مثلا أن كلمة système ظهرت في الفرنسية مع جيل 1550 (1552 عند يونتيس دي تيارد Pontus de Tyard) محتفظة بمعنى =

واللسانية هذه. (انظر أعمال أورفي Urfé وأوبينييه Aubigné وهاردي... إلخ...).

+36= 1656- يتم كبح الاتجاهات الباروكية[د] وتنتشر **الحَذْلقة**[هـ] (ظهرت كلمة Précieuse سنة 1656) التي ما لبثت أن أصبحت مثاراً للسخرية بظهور كلمة Préciosité سنة 1668.

وأما الكلاسيكية التي ظهرت في شكل اتجاه فلسفي (كلمة Synthétique = تأليفي، تركيبي، تعود إلى 1652)[و]، واتجاه أدبي وآخر فنّي (تولد الفنون الجميلة Les beaux-arts التي تختلف عن المِهَن وتأخذ نموذَجَها من الطبيعة الجميلة la belle nature) كما ظهرت في أسلوب جديد للحياة (L'honnêteté = الاستقامة)، فهي تمثل مظهرا معجميا : كانت في **ملاحظات** فوجلاس (1647) أولى تجلياته.

= تقني («التصنيف في التاريخ الطبيعي»)، ثم جاء الجيل اللاحق الذي كان أكثر تشبعا بالعلم، فمنح كلمة système معنى أكثر اتساعا، ومن ثم وجدت كلمة systématique (= بشكل منتظم) التي ظهرت عند جولار (Goulard) سنة 1584. على أن كلمة système ظلت قليلة الاستعمال خلال القرن السابع عشر، وقد أشارت إليها الأكاديمية الفرنسية سنة 1694، ولكن فوروتيير (Furetière) حذفها. واعتبرها الأستاذ بوهورس (Bouhours) أيضا كلمة جديدة في سنة 1692 (انظر له: **ملاحظات جديدة** = Remarques nouvelles). ولم يبدأ الناس يلاحظون أن **النظام** (le système) يمكن أن تكون له عيوبه إلا بعد انتشار المذهب الديكارتي وتطور أنظمة نهاية القرن السابع عشر وبداية الثامن عشر. وقد كان جيل 1756 واعيا بهذه العيوب تماما. وهذه القيمة الجديدة القدحية لكلمة système ظهرت في الكلمة المركبة systématiser (= نظّم) التي لوحظ وجودها سنة 1756. ألا نلاحظ أيضا أن هذا التطور في العقلية يحدث من ميلاد كلمة explicable (= قابل للتفسير) سنة 1554 وميلاد كلمة explicatif (= تفسيري) سنة 1587 ؟. كثير من الفلاسفة لا يقيمون وزنا للتاريخ (**ومفردات لالاند** : le vocabulaire de Lalande شاهدة على ذلك)، ونحن نعتقد أن دراسة التأريخات قد تتيح لأعمالهم أن تصل إلى درجة من الدقة مفيدة.

(د) الباروكية (Baroque) أسلوب في البناء والنحت والرسم والموسيقى والفنون الجميلة، ظهر منذ القرن السادس عشر. وفي الأدب خاصة يطلق هذا الاسم على اتجاه في الأدب الفرنسي ظهر أيام هنري الرابع ولويس الثالث عشر، وكان يتسم بحرية كبيرة في التعبير (انظر : قاموس : بُوتي روبير) (المترجم).

(هـ) أدب الحذلقة (la littérature précieuse) اتجاه ظهر بفرنسا خلال القرن 17 م، ويميل إلى التكلف والتصنع (المترجم).

(و) أرخ قاموس (بُوتي روبير: Petit Robert) لظهور هذه الكلمة بسنة 1602 (م).

+32=1688 – تتفجر في فرنسا «أزمة الضمير الأوربي». فهذا العصر هو عصر لابرويِّير (La Bruyère) وفنلون (Fénelon)، وبايل (Bayle) وفونطنيل (Fontenelle)... إلخ.

وسيظهر تصور جديد للفن (كلمة manière(ز) التي لوحظت سنة 1690 هي إدانة لنوع من الكلاسيكية وكلمة artiste التي ظهرت سنة 1694 تعني ذلك الشخص الذي سوف يحقق المشروع الجمالي الجديد). وتقوم القواميس : قاموس فوروتيير وقاموس الأكاديمية، وإلى حد ما قاموس ريشليه (Richelet) فيما بين 1680 و1694 بوضع جرد للكلاسيكية. وتسجل كلمة Commerçant (= تاجر) التي ظهرت سنة 1695 بداية اقتصاد جديد. وأما كلمتا analytiquement (= تحليليا) وanalyser (= حلّل) فتعلنان منذ 1690 عن منهجية القرن الثامن عشر.

+36=1724 – ينمو إحساس جديد، ويكون كل من مونتسكيو وماريفو (Marivaux) وفُولتير والقس بريفو (Prévot) (1730) أبرز ممثليه. وما ميلاد عبارة Le beau idéal (= الجميل المثالي) (الذي يفترض وجود اختيار) وكلمة Pittoresque(= جذّاب، مثير..) (1721)(ح)، والحظوة التي نالتها كلمات أمثال : joli (= جميل) وgrâce (= لطافة، فَضْل... إلخ) وsentiment (= إحساس) سوى أمثلة على التمظهر المعجمي لهذا الإحساس.

+36=1760 – تولد مفاهيم جديدة في غاية الأهمية، مثل : **محاسبة** (1753)، **ورأسماليّ** (1759)، **ومطّاط، واقتصادي، وتنفيذي** (سلطة تنفيذية)، **وتقنية، ووطنية، ومثالية، وجماليّ، وحضارة، ودعائي، وإحساسي، وصناعي، وقابلية الاندماج في المجتمع**... إلخ.

(ز) بمعنى : متكلف، متصنع (م).

(ح) يؤرخ قاموس (بُوتي روبير) لظهور هذه الكلمة بسنة 1708 م.

(ط)
+33=1789ـ لا يمكن عزل الثورة عن مجموع المظاهر الاقتصادية والعلمية (ميلاد الكيمياء)[22] والأدبية (واقعية **لوحة باريس** : Tableau de Paris لميرسييه Mercier حيث تظهر مفردات جديدة)... إلخ.

+36=1825ـ يتميز هذا الجيل بظهور **الداندي** (Dandy)(ي) **والفنان**، وانتشار الروحانية، والبدء في معارضة البورجوازية، وظهور تغييرات عميقة اقتصادية واجتماعية، وأفكار سياسية جديدة وفلسفية، وهذا ما ستعكسه مفردات جديدة (انظر: سان سيمون، وفوريه، وكونت) وكلمة Positif [=إيجابي]، وsociologie [=علم الاجتماع].. إلخ).

+32=1857ـ تَقدُّم العلوم، تصنيعُ البلاد، اختفاء المجتمع الراقي، التيارات الجديدة في الموسيقى والرسم (الطبيعيّ، الواقعيّ، البحث في المناخ) والأدب (ظهور ديوان **أزهار الشر**، ورواية **مدام بوفاري**،) وفي التاريخ : بداية طين وكورنو... الخ. كل هذا أدى إلى تحديث المعجم. وقد اتسمت نهاية الحقبة السابقة أكثر من بداية الحقبة الجديدة[23] بالبدء في نشر قاموس ليطري (Littré) (1859) الذي هو من إنتاج رجل معروف باتجاهه الصّفائي (التصويبي).

+36=1887ـ ... ...

... ...

ب ـ التفريع داخل الامتداد، التصنيف

ليس إجراء التقطيعات داخل الزمن هو وحده الأمر الضروري، بل ينبغي أيضا تحديد ميدان دراستنا مكانيا. وهذه المهمة لا يمكن أن تتم إلا بعد أن نكون قد صنَّفنا، بشكل مؤقت على الأقل، العناصر المعجمية التي درسناها.

(22) 1786 : الأوكسجين، 1787 : الهيدروجين، الأزوط، الأوكسيد... إلخ.

(23) هنا أيضا يبدو أن نصف الجيل (1872) الذي ظهرت فيه الانطباعية، وظهر فيه رامبو وفيرلين ومالارميه وزولا، قد أدى دوراً مهماً. ولا تسمح الحالة الراهنة لمعلوماتنا بتقديم وثائق فيما يتعلق بتقطيعي 1872 و1887.

(ط) * كذا في الأصل، ولعل الصواب (29) لأن إضافة 33 إلى 1760 لا يعطي رقم 1789 (المترجم).

(ي) الداندي : الشخص الذي يُظهر أناقة عالية في وضعه وطريقة تصرفه. واللفظ مستعار من الانجليزية (المترجم).

ولقد لاحظنا من قبلُ أننا إلى عهد قريب لم نكن نتوفر على أي تصنيف عقلاني لأفعال المفردات. وكان بعض اللسانيين أمثال سوسير ومايِيه و ف. برينو قد لاحظوا بحق وجود علاقاتٍ مَّا بين تاريخ المفردات وتاريخ المجتمع، ولكن ملاحظاتهم الفريدة هذه لم يتم استخدامها لا من قِبَلِهم هم ولا من قِبَل غيرهم في عمل منهجي، ولا أحدَ فكر في تكملتها. إن هنالك فوضى غريبة تهيمن على دراساتنا. ويظهر من قراءة أغلب الأعمال المنشورة قبل 1946 أن تطور المعجم يخضع للصدفة.

ومن أجل معالجة هذه الوضعية المشينة في دراساتنا كان ينبغي إهمال تصنيف الأشكال أو الصيغ، الذي لم يكن ليؤدي إلى أي تفسير اجتماعي، واقتراح تصنيف دلالي لأفعال المفردات.

وهذا التصنيف يقوم على أربعة مبادىء :

1 ـ لا يمكن للكلمة باعتبارها غير منعزلة أن تُفصل بأي حال عن المجموعة التي تنتمي إليها.

2 ـ الكلمات داخل المجموعة ليس لها كلها قيمة واحدة، بل تؤلف بنية تراتبية.

3 ـ هذه البنية متحركة، والحركات التي تخضع لها الكلمات ومجموعات الكلمات تتم بشكل مترابط : فالمفردات عبارة عن كلِّ مجموعٍ مثلها مثل الحقبة التي تمثلها.

4 ـ التصنيف الذي ندعو له لا يجد مبرره في نفسه، بل عليه أن يقود إلى تفسير. وبما أن المفردات تعبر عن المجتمع، فهذا التفسير سيكون ذا طبيعة مجتمعية. وسنحاول أن نقدم عن كل نقطة من هذه النقط التوضيحات الضرورية.

الفصل السادس

منهج المعجمية (تابع)

أ ـ الكلمة ومجموعتها

التصنيف

ـ 1 ـ

إن الكلمة ـ وقد رأينا ذلك ـ لا توجد داخل شعورنا منعزلة. إنها جزء من سياق، ومن جملة، يقومان بتحديدها جزئيا. وهي أيضا مرتبطة بكلمات أخرى تشابهها في الصيغة أو الصوت أو المعنى[1].

والرابط بين الكلمة ومجموعتها ليس واحداً عند كل الأفراد. وكما لاحظ بينيه (Binet) فـ «إن الشخص الذي يُطلب منه أن يبحث عن عشرين كلمة مثلا، ينطلق من الموضوعات التي تجمعها. وفي اختيار هذه الموضوعات تظهر فَرْدانية الشخص»[2].

إن تجميع الكلمات الذي يتم في الحقيقة داخل الشعور، له طبيعة ذاتية جدا وغير منطقية، فيصلح بصفته هذه أن يكون منطلقا للقيام بتصنيف معجميّ. ونحن علينا أن نمارس الاختيار الآتي : سنحاول أن نحدد بعض أوجه التقارب الموجودة بين الكلمات المدروسة، مما له طبيعة اجتماعية، ويمكن أن تكون له قيمة تفسيرية.

---

(1) قام التحليل النفسي بتحديد العلاقات الرمزية التي توجد في اللاشعور بين الأعضاء التناسلية وبعض الأعضاء التي لها مظهر مشابه. إن الألسنة كثيرا ما تُسمّي بكلمة واحدة كلًّا من «الذكر» و«القضيب» (مثلا: في السنسكريتية danda، وفي الفرنسية verge إلخ ..) وكلا من «الفَرْج» و«الكيس» (في الفرنسية كل من vagin وgaine مأخوذ من الأصل اللاتيني vagina) .. إلخ.

(2) نقلا عن : هـ. دولاكروا : **اللغة والفكر** (Le langage et la pensée)، ص. 432 .

2 ـ الحقل المَفْهومي

بعضُ العلماء الألمان ـ مثل إبسن (في 1924) وجولز وبوريغ وسكومودو وخاصة ج. ترير(J. Trier)[3] ـ استخدموا، ولاسيما ابتداء من سنة 1930 وبشكل مختلف جدا، مفهوم الحَقْل اللساني من أجل تفسير أفعال المفردات. ويقوم تصور ترير على أساس فكرة همبولد ذاتها، وهي أن «المحتوى والشكل اللغوي لحياة الإنسان النفسية كل منهما مشروط بوجود الآخر، ولا يمكن اعتبارهما منفصلين» وأن «اللسان هو التعبير عن الشكل الذي بواسطته ينظر الفرد إلى العالم ويحمله إلى داخل ذاته»[4] ولكن اللسانيات الألمانية الخاصة بالحقول، وهي تتحرك بين الاعتبارات الفلسفية المجردة (الإرادة الجماعية ـ النضال من أجل النظام... الخ) ووجهة نظر لسانية خالصة وصورية قائمة على أساس المقابلة بين الكلمة وضدها[5]، بدت عاجزة عن

---

(3) (Der deutsche Wortschotz in simbezirck des Verstandes, die geschichte eines prachlischen).
واقرأ أيضا: (Deutsche bedeutungsforchung. Fortschrift. f.o. Behaghel - Heidelberg, 1934).
ومن بين الأسلاف القائلين بهذه النظرية ينبغي أن نذكر ليبنيز الذي كان يدعو إلى قاموس لا ترتب فيه الكلمات ترتيبا ألفبائيا ولكن حسب المفاهيم. وكذلك بول هِرْمان الذي كان قد دعا في محاضرة له سنة 1894 إلى دراسة المفردات من الناحية الدلالية.

(4) ڤون ڤرتبورغ: **مشاكل اللسانيات ومناهجها** (Probl. et méth. de la linguistique)، (ص. 146)

(5) نعتقد أن خطاطة (الأطروحة ـ نقيض الأطروحة) لا تحلل الحقيقة تحليلا تاما. ففي نظرنا وكذلك في نظر بعض الفيزيائيين أن ما يسمى (نقيض الأطروحة) ليس مناقضا بل مكملا. (انظر: غ. باشلار في: **فلسفة النفي** : Philosophie du non, p. 136). على أنه بالإمكان أن نقبل بأنه حتى في حالة ما إذا كانت خطاطة هيجل هذه حقيقية، فإنها لن تكون سوى نتاج للتاريخ الذي هو تعبير عن تصور بورجوازي رومانسي وتحليلي للعالم، يحل محل التصور التركيبي لما يمكن أن نسميه بالكلاسيكية. وفي جميع الحالات فإنه من التضليل أن نبحث في كل مراتب الحقيقة كما يفعل بعض الماركسيين عن التعارض القائم بين الطرفين أو بين المبدئين. فنحن لا نرى أن دراسة المفردات يمكن أن تنخرط في الرأي الذي عبر عنه هـ. ڤالون (H. Wallon) بمناسبة حديثه عن اللغة المَرَضية. فقد كتب هذا العالم النفسي اللامع يقول: «يجب أن نفترض أنه حتى عندما يتحقق وجود لفظ بطريقة سمعية وتتحقق فرديته، فإنه لا يمكن ـــ مثله مثل أي لفظ آخر ـــ أن يظل معزولا. ولكن علينا أن نفترض أن له ميلا نحو اكتساب تخصص ذاتي بمساعدة لفظ آخر تكميلي يؤلف معه زوجا» (Orig. de la pensée chez l'enfant, T. 1, p. 102). إن ظاهرة حلول كلمة محلّ أخرى كما يلاحظ في الفكر المَرضي (La pensée pathologique) (إحلال كلمة **إلـه** محل كلمة **كنيسة**، وكلمة **تمساح** محل كلمة **سُلحفاة** .. إلخ) لا تجد تفسيرها عندنا فيما يعتقد هـ. ڤالون أي في وجود حالة من التضاد أولية، ولكن في كون الكلمتين معا تنتسبان ـ كما لاحظ ذلك جيلب وجولدشطاين ـ لمحيط دلالي واحد. إن الحقيقة تبدو لنا أشد تعقيدا من الخطاطة الماركسية: فالمَفْصوم (= المريض بالفُصام) يمكنه ألا يعوض كلمة «كنيسة» بكلمة «إلـه» ولكن بكلمة أخرى مثل: «خوري» أو «جُرْن» (= جُرْن الماء المقدس).

تحديد تقطيعات في تاريخ المعجم، ولم تستطع أن تصوغ شيئا سوى تفسيرات جزئية وقابلة للمناقشة. وإذ أخفقت في فرض نفسها فقد ظلت مجهولة عند اللسانيين الفرنسيين الذين كان عليهم أن يكتشفوها من جديد منطلقين من الواقع اللغوي.

إن التصور البنيوي **للحقول** يلتقي (وفي هذا أيضا كان هناك التقاء لا تقليد) مع نظرية الجِشْطَالط (نظرية الشكل أو بالأحرى نظرية التشكّل الخارجي) التي لا تنظر إلى بعض الظواهر الفيزيائية والبيولوجية والنفسية على أنها «طائفة من العناصر التي يمكن عَزْلها وتحليلها وتشريحها، ولكن على أنها عبارة عن مجموعات تكوّن وحدات مستقلة، وتُظهر تضامناً داخليا، ولها قوانينها الخاصة. وينتج عن هذا أن طريقة وجود كل عنصر مسألة متعلقة بالقوانين التي تحكم هذا المجموع الكلي»[6]. والمعجمية مثلها مثل علم الأحياء ومثل نظرية الجشطالط تقبل بمفهوم «الانبثاق» (Notion d'émergence) أي بأن البنية لا تتحدد بالتجميع السكوني للعناصر التي تتألف منها. فهذه العناصر تقيم فيما بينها علاقات معقدة. ومن هذه الوضعية التي توجد على هذا النحو، **تنبثق** خصائص جديدة : هناك الكلمات المختلفة التي تؤلف مجالا معينا من جهة، وهناك الحقول المختلفة من جهة أخرى، فيؤثر هذا في ذاك. ولذلك فإن دراسة كل عنصر على حدة تبقى مسألة غير عملية، والبحث المعجمي لا ينبغي أن يُجرى إلا في نطاق المجموعات. بل قد نتساءل أكثر من ذلك عما إذا كانت معجمية المستقبل لن تنجرَّ إلى إهمال دراسة مختلف عناصر الحقل فتكرس نفسها لتحليل التفاعلات والتحركات باعتبار أنها هي الحقائق الأساسية.

لا ينبغي في المعجمية أن يكون الانسان غافلا عن أوجه التشابه أو الاختلاف الخارجية للعناصر. وكما أن أنظمة المعادلات التفاضلية تستطيع أن تقدم أنواعا من علاقات القُربى المختلفة في شكلها الخارجي، فإن الحقل المعجمي يمكن أن يشتمل على كلمات تبدو للوهلة الأولى وكأن ليْس بينها شيء مشترك. إن القرابة الاجتماعية للعناصر هي وحدها التي تهم. ولكن هذه القرابة لا يمكن إقامتها إلا بعد أن تكون الحقبة قد تمت دراستها، أي بعد عمليات جرد مهمة.

---

(6) انظر مادة forme (= شكل) في (**مفردات لالاند**: Vocabul. de Lalande)
وانظر في الموضوع: ب. كَيوم، **نفسية الشكل**: P. Guillaume, La psychologie de la forme, Flammarrion, éd. p. 21

وسنقدم في الملحق مثالا للطريقة التي نقترح بها دراسة حقل مفهومي. وقد اخترنا مفهوم **الفن والفنان** بين 1827 و1834.

3 ـ الكلمة الشاهدة

متابعةً لسعينا من أجل تقديم خِطَاطات مبسطة للواقع، سنحاول أن نميز داخل الحقل المفهومي الذي لاحظنا وجوده، عناصر لها أهمية، تتسلسل بمقتضاها البنية المعجمية وتترابط. ونقترح لتسمية هذه العناصر ذات الطبيعة الخاصة عبارة : **الكلمات الشاهدة**[7] (les mots-témoins).

تقوم **الكلمة الشاهدة** بإدخال مفهوم **القيمة**، ويمكن القول مفهوم **الوزن**[8] (notion de poids)، إلى ميدان المفردات. إن **الكلمة الشاهدة** هي الرمز المادي للعمل الروحي المهم. فهو يمثل في الوقت الواحد العنصر التعبيري والعنصر الملموس الذي يجسد عملا من الأعمال الحضارية.

كيف نحدد الكلمات الشاهدة داخل الحقل المفهومي ؟ إن ذلك لا يتم إلا حين نحدد بصورة كافية الحقبة التي ينتمي إليها الحقل. إن الكلمات الشديدة الأهمية قد تكون أحيانا هي تلك الكلمات التي نحكم لأول وهلة بتفاهة قيمتها. وهكذا فإن كلمة coke (= الكوك) تعتبر من الكلمات الأكثر دلالة في نهاية القرن الثامن عشر: إن دخول هذه الكلمة حوالي 1770، هو الدليل الأول على ميلاد الرأسمالية الصناعية في فرنسا : فيوم أن تمَّ إحلال فحم الكوك محل الخشب في الصناعة المعدنية، تم

---

(7) كتب ف. برينو كتيّبا بعنوان (**الكلمات الشاهدة على التاريخ**: Les mots témoins de l'histoire). ووجهة نظرنا تختلف عن وجهة نظر برينو الذي لا يضع سُلّمية تسلسلية داخل المفردات وظل وفيا لوجهة نظر اللسانيات التاريخية ولم يفهم أن المعجم، وهو انعكاس للمجتمع، كان يمثل وظيفة من وظائف علم الاجتماع وليس وظيفة من وظائف التاريخ.

(8) يمكن أن نقول: «وزن معجمي» كما نقول: «وزن ذَرّي». فالمعجمية المستقبلية قد تستطيع بتحويلها الكيفي إلى كمي، أن تعطي للكلمات أسا رياضيا قد يصبح رمز وزنها الاجتماعي. إن العناصر التي نعتبرها مهمة ليست الأكثر استعمالا: فالأمر لا يتعلق هنا بتحديد معامل في نسبة تردد الاستعمال كما يفعل علماء التربية الذين يبحثون عن «المفردات الأساسية» في تعليم الألسنة الأجنبية، ولكن يتعلق بتحديد وضع داخل سُلّمية. ومفهوم الوزن المعجمي يمكن أن يستخدم في علم طاقة مستقبلي خاص بالحقل المفهومي. ونحن نفترض بالفعل أنه في جهاز معجمي منظم، تكون كمية الطاقة ثابتة: فكل زيادة (+ أ) في جزء من النظام ينبغي أن يقابلها نقص (− أ) في جزء آخر.

ميلاد الصناعة الكبرى[9]. وكذلك فإن كلمة ésotérique[أ] التي ظهرت في 1755 تسجل بداية رد فعل[10] ضد عقلانية **الأنوار** التي استعملت في نعت هذا الإظهار (إظهار روح اللاعقلانية والرد عليها) كلمة charlatanisme (= شعوذة) سنة 1752.

وميلاد كلمة magasin (= مخزن) هو أيضا ذو طبيعة متميزة، فهو يسجل تصورا جديدا للتجارة : لأنه ابتداء من 1820 أو 1825 عملت ضرورة المنافسة على حث التجار (الذين يحملون في الغالب لقبا نبيلا جدا وهو لقب المفاوضين négociants) على الشراء المباشر من المنتج، وتخزين البضائع بكمية كبيرة في ذلك المكان الذي أصبح يطلق عليه وقتها اسم magasin (= مَخْزن). وظهور هذه الكلمة له ارتباط بظهور كلمة employé (= مُستخدَم)، وكلمة commis (= موظف تجاري) اللتين تميلان إلى تعويض كلمة vendeur (= بائع)، وارتباطٌ بظهور كلمات rayon (= جناح) و facture (= فاتورة) و client (= زبون) التي حلت محل pratique[ب]... إلخ[11].

لقد رأينا إذن أن الذي يرسم ملامح **الكلمة الشاهدة** ليس هو فقط قيمتها السكونية داخل مجموعتها، ولكن هو أيضا أن تعبر عن دينامية : فالكلمة الشاهدة هي رمز التغير. وبهذا يعود مفهوم المدة ليدخل من جديد في المعجمية السكونية والوصفية. إن **الكلمة الشاهدة** عبارة محدثة (néologisme)[12]، والتغير المفاجىء الذي يُولِّدها هو الدليل على الوضعية الاجتماعية والاقتصادية والجمالية الجديدة...

---

(9) نتوفر حول كلمة (coke) على دراسة جيدة للسيد ويكسلر (Wexler) ملحقة بدكتوراه جامعة باريس 1951 (مرقونة).

(10) رد الفعل الذي ظهر في ميادين أخرى عن طريق الحُظوة التي نالتها كلمات sensible (= حسَّاس) و sentimental (= حسي شعوري) و jardin anglais (= حديقة انجليزية) ... إلخ.

(11) المعلومات السابقة مأخوذة من أطروحتنا التي بعنوان : Le vocabulaire et la société sous Louis-Philippe.

(12) تكرر أننا نستعمل كلمة néologisme بمعنى واسع يشمل في وقت واحد الجدة في الشكل والجدة في المعنى.

(أ) سرّي، خفي، منغلق... وتقال الكلمة في نعت كل فلسفة أو معرفة يقتصر في نقلها إلى التلاميذ المؤهلين والاكتفاء على الرواية الشفوية (المترجم).

(ب) من المعاني التي كانت تدل عليها كلمة pratique قديما معنى : زبون (م).

الخ. إنها تسجل **تحولا**، ولكنه كما قال باشلار : «حين يُغيِّر المفهومُ معناه إذ ذاك يصبح له أكثر من معنى»(13).

إن الكلمات ـ وقد رأينا ذلك ـ توجد بوجود الأشياء التي تدل عليها(14)، والتحليل الناقص للوقائع هو الذي جعل ف. برينو(15) يدعي وجود استثناء لهذه القاعدة الأساسية، مع أنه هو نفسه يحاول أن يقدم تفسيرا لبعض الشواذ الواضحة التي نصادفها : فكلمة responsabilité (= مسؤولية) لم تظهر في الفرنسية إلا سنة 1787، لماذا ؟ يقول برينو : «كلمة responsabilité حديثة جدا، لا نجدها أبدا في القانون القديم. فهل هذا يعني أن الفكرة لم تكن قد ظهرت أيام لويس الرابع عشر ؟ ولكن استعمال كلمة responsable (= مسؤول) بكثرة يشهد بعكس هذا. يبقى احتمال أن الحاجة إلى كلمة ذات معنى تجريدي لم يكن قد تم الإحساس بها إذَّاك، لأنه ـ يومها ـ لم يكن قد تكوَّن ذلك المبدأ الذي نجده في نهاية القرن الثامن عشر» (16).

4 ـ الكلمة ـ المِفْتاح

الكلمات الشاهدة التي بها ينتظم تسلسل المفردات داخل الحقل المفهومي كثيرة جدا لدرجة أنه لا يمكن أن تكون هي العناصر الأساسية للمعجم؛ فعلينا أن نبذل جهدا منهجيا يسعى لتوحيد المتفرق من الظواهر. من أجل هذا نقترح تصنيف مجموع الكلمات المكونة للحقول المفهومية (بما فيها الكلمات الشاهدة) منطلقين من مفهوم له طبيعة اجتماعية ويعبر بشكل إجمالي عن الحقبة المدروسة.

---

(13) Le Nouvel esprit scientifique, p. 52

(14) تحديد التاريخ الذي تظهر فيه كلمة من الكلمات الفرنسية يسمى «تأريخا» (datation). ونظرا لعدم امتلاك القواميس التأثيلية (قواميس كل من بلوخ فون فرتبورغ ودوزاط) للمعلومات الضرورية، ولأنها قامت بعمليات جرد غير كافية، فإن «التأريخات» التي تقدمها غالبا ما تكون مخطئة، ويحدث أن المعجميين وهم يبحثون عن «تأريخات» جديدة، يجعلون تاريخ ظهور بعض الكلمات في الفرنسية سابقا لتاريخ ميلادها الحقيقي بعشرات السنين وأحيانا بعدة قرون.

(15) La pensée et la langue, 3ème éd, 1936, p. 76

(16) **F. Brunot**, Les mots témoins de l'histoire, p. 10 et **Ch. Bruneau** : Précis de grammaire historique, éd. de 1937, p. 171

لقد حاول بعض مؤرخي الأدب[17] والفن أن يعملوا على إبراز ما هو مثالي كامن في أهم تكتل مجتمعي، والكشف عن النموذج البشري الذي يمثل سائر الحقب المدروسة خير تمثيل. وهذا الجهد التركيبي الذي نحييه، كان من الأفيد له أن يقوم على أساس تحليلات أشد متانة : فمفهوم (الرجل المستقيم : l'honnête homme) ومفهوم الفيلسوف (le philosophe) على سبيل المثال لا يكفيان لتعريف القرنين السابع عشر والثامن عشر. ومهما يكن فإن الأمر يتعلق هنا بمحاولة مهمة، يمكنها، إذا استعملت بطريقة ملائمة، أن تُحتِّم نتائج قد يكون المعجمي محقا في استخدامها.

سنعطي للوحدة المعجمية المعبرة عن مجتمع معين اسم : **الكلمة ـ المفتاح** (le mot-clé). فالكلمة المفتاح لن تدل إذن على معنى تجريدي أو وسيلة أو مادة، ولكن على كائن أو إحساس أو فكرة مما يعيش بطريقة تجعل المجتمع يجد فيه نموذجه ومثاله.

نحن لا نقترح هنا ـ ولنلاحظ ذلك ـ دراسة تصنيفية تجريدية، ولكن تنسيقاً تسلسلياً قائما على ألفاظ كان معاصروها أنفسهم يقرون بأن لها خاصية أساسية. فليس علماء القرن العشرين المتبحرون هم الذين اعترفوا بأن كلمات le prud'homme (= الرجل الخبير) وl'honnête homme (= الرجل المستقيم) وle philosophe (= الفيلسوف) كانت تمثل الضمير الحي لعصرها[18]، بل هم مونطين وفاري (Faret) وميري (Méré) وفونطونيل (Fontenelle) وديدرو.

وليست عمليات الجرد المعجمية الحالية كافية لتسمح لنا بتقديم تأريخات للحقبة التي قامت فيها كلمتا (honnête homme) و(philosophe) بدور هام. ولذلك سنكتفي ببعض المعلومات الخاصة لدراسة هذه القضية.

---

(17) مثل: مورسيه في: **تاريخ الأدب الفرنسي لكالفي** **R. Morçay**, L'histoire de la littérature française de Calvet، ج 3، ص. 434.

(18) يلتقي هدفنا مع هدف بعض علماء الاجتماع الأمريكيين أمثال ب. بينيديكت وميد الذين كانوا يدرسون الظواهر المجتمعية بالانطلاق من شخص نموذجي أو مثالي. وقد كتب السيد دوفرين في هذا الموضوع قائلا: «في هذا ما هو خير من التجريد، لأن هذه الصورة المثالية تعبر عن معيارية المجتمع وفي الوقت ذاته تعرف الثقافة بما تنتظره من كل فرد: فالثقافة تعرف من خلال النموذج الذي تقترحه وتحاول فرضه» (**Dufrenne**, Cah. int. de socio. (12)-1952).

إن مفهوم الاستقامة (l'honnêteté) قد درسه ماجوندي[19] دراسة جيدة يمكن أن تُدقق الملاحظات حولها وتُستكمل بالدراسات التي وضعت حول مفردات الحياة المدنية في نهاية القرن السابع عشر وابتداء من 1660. وكتاب ب. كيماد[20] لم ينتشر على نطاق واسع، ولكنه يستعمل منهجا دقيقا يجعلنا ندرك مدى التعقيد الموجود في المشاكل المطروحة.

وما دامت عمليات الجرد المهمة لم تتم بعد، فسيكون علينا الاكتفاء بملاحظة أن النموذج البشري الذي هو **الرجل المستقيم** قد وجد حوالي منتصف القرن السابع عشر[21].

أما كلمة philosophe فهي أيضا مجهولة أكثر من سابقتها، ولم يخصص لها ف. برينو، الذي لم تَخْفَ عليه أهميتها مع ذلك، سوى نصف صفحة[22]. ورغم وجود **تاريخ للسان الفرنسي**(ج) فإن مفردات القرن الثامن عشر ظلت مع ذلك غير معروفة بشكل جيد وخاصة في القسم الأول منه، وفي كل ما يتعلق بالمعجم الاجتماعي

---

(19) **Magendie**, La politesse mondaine et les théories de l'honnêteté en France au 17e siècle, 1600 à 1660, Paris Alcan, 1925, I. Vol.

(20) Le commerce amoureux dans les romans mondains (1640-1700)

(21) ولنحاول مع ذلك أن نقدم بعض التوضيحات: ففي تاريخ مفهوم **الاستقامة** (honnêteté) سنحاول أن نميز بين مختلف المراحل التي يحجب بعضُها بعضاً بشكل جزئي:

أ) تصور مدني اجتماعي 1605-1635، يمثله أسطري (Astrée) على الخصوص.

ب) تصور بورجوازي 1630—1650 وهو تصور خاص بفوريه (Furet) للرجل المستقيم. هناك إذن شبه تطابق بين (**الرجل المستقيم**) و(**الرجل الخبير**).

ج) تصور مدني اجتماعي (1650—1690) يستبعد وجهة النظر الأخلاقية (انظر: Méré, conversations) وشيئا فشيئا وابتداء من 1670 بدأ يحل محل (الرجل المستقيم) مفهوم (الرجل الغزل أو الظريف) (le galant homme =) الذي نافسه لمدة قصيرة (1680-1690): (الرجل الجميل) (joli homme =). وبعد 1690 ظل (الرجل المستقيم) مستعملا ولكنه لم يعد يعبر عن الشيء المثالي. وحين سيتم إنجاز دراسات تحليلية حول معجم القرن السابع عشر، سيكون الذي تم إنجازه إذاك ليس تاريخ عبارة (l'honnête homme) ولكن تاريخ المفهوم. ويتعلق الأمر بتصنيف الكلمات الشاهدة التي يستدعي تصور (الاستقامة) حضورها: من كلمة raison (= عقل) إلى كلمة galant (= غزل، ظريف)، ومن pédant (= متحذلق) إلى règles (= قواعد) ومن fourchette (= شوكة) إلى esprit de finesse (= كياسة). فمشكل القرن السابع عشر برمته سيتم استحضاره.

(22) **تاريخ اللسان الفرنسي** (H.L.F.) ج 5، ص. 3.

(ج) يلمح هنا إلى كتاب ف. برينو المحال عليه في الهامش السابق وهو بعنوان (**تاريخ اللسان الفرنسي**) ويعتبر أوفى مصدر عن تاريخ اللسان الفرنسي (م).

والمدني والغَزَلي... إلخ. إنه قبل القيام بالعمل التركيبي الذي قد تمثله دراسة مفهوم (الفلسفة) ينبغي القيام بعدد من الدراسات التفصيلية، وذلك انطلاقا من بعض الارشادات العامة التي يقدمها ب. هازار في كتابه : **الفكر في القرن الثامن عشر**[23].

ولن نتحدث عن الكلمات ـ المفاتيح التي تحكمت في مفردات ما بين 1789 و1815، ولكننا فقط نعتقد أنه باستطاعتنا أن نلاحظ أنه ابتداء من **الثورة** لم تعد النماذج البشرية هي التي تعبر عن المجتمع ولكنها المبادىء. وهكذا فقد أريد للفنان أن يكون هو المفهوم الأساسي للقرن التاسع عشر. ونحن لا ننكر ذلك إطلاقا، فقد لاحظنا أهمية هذا المفهوم، ولن نقترح بدل هذه الكلمة (أي كلمة : فنان = artiste) كلمة أخرى لتكون على رأس الهرم التسلسلي.

ويمكن أن نسلم بالنسبة للحقبة الواقعة بعد نهاية عهد **الإصلاح**، وبالضبط ابتداء من 1827، بأنها حقبة تجسدها المفردات الآتية :

أ) كلمة ـ مفتاح مركزية، وهي كلمة le bourgeois (= البورجوازي).

ب) كلمتان ـ مفتاحان ثانويتان، وهما : le prolétaire (= البروليتاري) وl'artiste (= الفنان).

وإليك بعض التوضيحات المختصرة :

هذه الكلمات الثلاث المجيدات عجلت بتطور الحالة التي كانت عليها الأمور في بداية **الإصلاح**. فبعد 1830 قامت البورجوازية التي كانت تتمتع من قبل بأوضاع اقتصادية جيدة (البنك ـ التجارة) بتدعيم هذه الأوضاع (ميلاد الرأسمالية الصناعية)، وعملت في الوقت نفسه على اكتساب السلطة السياسية والامتياز الاجتماعي.

ومع ذلك لم يكن البورجوازي يتمتع بتفوق كبير، فالأزمات التي تعاقبت من 1826 إلى 1847 في بلد كان اقتصاده يتكيف بصعوبة مع الرأسمالية الناشئة، خلفت تنافسا حادا برز أول الأمر في المجال الاجتماعي. ومن أجل الكفاح ضد

---

(23) في هذا الكتاب ثغراتٌ خطيرة: فهو مثلا قد أهمل دراسة مفهوم العبقرية (génie) الذي يعتبر المفهوم الأساسي في القرن الثامن عشر.

الاستغلال (l'exploitation) تمَّ تنظيم حركات اشتراكية. **والجماهير** (les masses) أصبحت تعي حقوقها. **والبروليتاري** (le prolétaire) وقف ضد **الطبقة البورجوازية** (la classe bourgeoise)[24].

وقد تم التنافس في المجال الأخلاقي أيضا : إذ مارست النزعة **الفردانية** (individualisme) أضرارها، وأدت الروح الإيجابية للطبقة المسيِّرة التي «تفكر بدناءة» ولا تهتم إلا قليلا بالأناقة والفن إلى معارضات أخرى، وظلت طبقة **الداندي** (dandy) محصورة في بعض الدوائر الخاصة من متذوقي الجمال. وأما **الفنان** (l'artiste)، على العكس من ذلك، فهو يتوفر على امتياز واسع : إنه يؤكد لجمهوره أنه يحمل **رسالة**، وأنه الوسيط بين الإلـٰه (أو الطبيعة) والإنسانية.

وفي الحقيقة يبدو أن البنية المعجمية لحقبة 1827ـ1834 المدروسة بعناية، لا تترابط بواسطة كلمة تعبر عن نموذج إنساني (بورجوازي، فنَّان... إلخ) ولكن بواسطة مفهومين متقابلين أو متكاملين وهما : **الفردانية** والتنظيم[25]. إن الأحداث الانقلابية التي وقعت منذ 1789 (الاضطرابات الثورية، إقامة النظام الأمبراطوري، ميلاد الرأسمالية الصناعية) عملت على إخفاء البنية الاجتماعية المتميزة والمنظمة بشكل تسلسلي والتي كانت موجودة من قبل[26]. فالمجتمع لم يعد محصورا في الطبقة التي تعتبر طبقة عالية، والأفراد الذين كانوا قد قاموا بدور مهم فيما بين 1789 و1815 لم يعد لهم إلا تأثير محدود: إن الشيء الذي استوحاه الرومانسيون من الفنانين والأقطاب الكبار والحركات الفردانية... الخ (ويقدم كتاب **جوليان سوريل** لستاندال المثال على ذلك) ليس هو ملاحظة الطاقة الفردية، بل هو التعبير فقط عن شعور هذه القوة بالاغتراب. فالمجتمع إذن لا يخضع لأفراد منعزلين، ولا لحركة واحدة، بل يتأثر باتجاهات متعارضة : إن الاختلافات تفسح المجال للتعارضات.

---

(24) الكلمات المتعلقة بالفنان والبورجوازي... إلخ التي نكتبها بالأسود خلال حديثنا، تكتسب كلها قيما جديدة في العصر الذي نتكلم عنه. ويمكن الرجوع في هذا الصدد إلى مدخل كتابنا: **المفردات والمجتمع**... .Le vocabulaire et la société sous Louis-Philippe، وإلى المقالة التي كتبناها بالاشتراك مع أ. ج. غريماس بعنوان: (La Méthode en lexicologie, II, Rom. Fasch. 1950) وانظر أيضا ملحقنا: (الحقل المفهومي للفن والفنان).

(25) نحيل على الخطاطة المصاحبة للدراسة الموجودة بملحق هذا الكتاب، ص. 199.

(26) بطبيعة الحال حلَّ نظام تسلسلي جديد محل آخر قديم، ولكن على أساس علاقات اقتصادية فقط.

ب ــ تصنيف مجموع الأفعال المعجمية

ــ 1 ــ

ظلت المعجمية في مستوىً لم يعرف إلا تقدما بسيطا جدا لا يمكن معه في المستقبل القريب (باستثناء ما يتعلق بحقبة 1825ـ1840) الوصول إلى نتائج مؤسسة على دراسة المفردات وقادرة على تفسير تطور حضارة ما. على أنه يمكن لغاية تعليمية وأيضا بهدف التنسيق بين الدراسات القاموسية[27] التي اهتمت بفترات معيَّنة، أن تبذل جهدها من أجل تصنيف أفعال المفردات الخاصة بحالة من حالات المجتمع.

إن التصنيف الذي نقترحه في بداية هذا الفصل، ولا نريد أن نخفي ما فيه من جوانب النقص، لا يمكن تطبيقه على أية حالة خاصة : فليس هناك مخطط قابل للتكيف مع كل موضوع وكل حقبة. والتصنيف النظري لأفعال المفردات الذي نضعه هنا بين أيدي قرائنا له على كل حال قيمة مزدوجة فيما نعتقد : فهو مثله مثل لائحة أسئلة علماء العِراقة (أين؟ متى؟ من؟ كيف؟ ماذا؟ حول ماذا؟ لماذا؟) لا يسمح بإهمال شيء مهم حين الانكباب على دراسة أو بحث معجميين، ثم له بعد ذلك فائدة وهي إعطاء قيمة تفسيرية : فبالنسبة لمرحلة ما قبل الدراسة سيساعد بالجملة على تحديد المكانة التي تحتلها المفردات المدروسة داخل مجموعة من المجموعات. وبالنسبة لما بعد الدراسة يمكن أن يستعمل في عَقْد مقارنات مفيدة وقابلة للتجسيد كتابيا بين المناطق المدروسة والقطاعات التي لم تكتشف بعد.

إن المعيار الذي اتخذناه لكي نقوم بتصنيف تركيبي للأفعال المعجمية يقوم على عامل موضوعي: وهو درجة ماديةِ الأفعال الفردية والجماعية المعبَّر عنها بواسطة إحدى المفردات[28] ودرجة عقلانيتها.

ونكتفي هنا بتقديم جدول إجمالي مقترحين حين نرى ذلك ضروريا بعض التوضيحات التكميلية :

---

(27) انظر حول الفرق بين المعجمية والقاموسية، ص. 160 من هذه الدراسة.

(28) هذا التصنيف كنا قد اقترحناه نحن للمرة الأولى في فصل حول التقنيات، موجود بأطروحتنا (المفردات والمجتمع) التي نوقشت سنة 1946.

أ) الاتجاهات

I ـ الحركة والبيولوجيّ

II ـ الأحاسيس[29]

1 ـ اللمس { أ) اللمس الحقيقي / ب) الحَرَاريُّ }

2 ـ الشم

3 ـ الذوق

4 ـ السمع

5 ـ النظر { ـ الضوء / ـ اللون }

حركة — أحاسيس — مشاعر — عقلاني

(ش 2)

III ـ المشاعر[30] (les sentiments)

IV ـ العقلاني

(29) إن مفردات الأحاسيس (sensations) على الخصوص ذات أهمية في الدراسة، وقد أهملها الفيلولوجيون لمدة طويلة (لا نجد لها أي أثر في **تاريخ اللسان الفرنسي** لبرينو) وهي تزودنا بمعلومات ثمينة ليس حول تطور العالم فقط، ولكن أيضا حول النفسية اللاشعورية لمجموعة عرقية أو اجتماعية أو لكاتب من الكتاب.. إلخ (انظر الفصل الذي خصصناه لمفردات المشاعر عند غوتييه .vocabulaire des sentiments de Th. Gautier في أطروحتنا **المفردات**...).

(30) يمكن أن توضع المشاعر أو مجموعة الانفعالات بين الحركة والبيولوجي اللذين ترتبط بهما. وأما الاحساس الذي له طبيعة أكثر عقلانية فيمكن أن يوضع فيما قبل الموضع الأخير كما هو واضح هنا.

ب) التقنيــات[31]

رتبت الأنشطة التي نسميها **تقنيات** بحسب درجة ماديتها عند الممارسة.

I ـ المهـن

1 ـ النقل

2 ـ تقنيات الجسد

3 ـ تقنيات فيزيائية ـ كميائية (التسخين ـ الإنارة)

4 ـ الاستهلاك : المطبخ

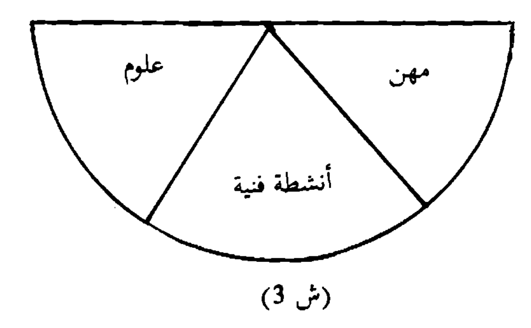
5 ـ الاكتساب : الصيد البري ـ صيد السمك

6 ـ الإنتاج : تربية، فلاحة

7 ـ الحماية

8 ـ الراحــة

9 ـ صناعة الفن



(ش 3)

II ـ أنشطة فنية

1 ـ لعب[32].

2 ـ فنون تشكيلية : التصوير، الرسم، النقش، الرسم الزيتي، النحت، فن العمارة.

3 ـ فنون موسيقية : رقص، موسيقى، شِعر، نثر.

---

(31) تصنيف التقنيات من وجهة نظر الحقائق المعجمية يلتقي في خطوطه الكبرى مع التصنيف الذي اقترحه علماء العراقة من أمثال مُوص ولوروا جورهان، وهذا ما تبيناه فيما بعد.

(32) يمكن أن توضع اللعب جزئيا في خانة **الحركة**، ويمكن أن تعوض هنا **بالتجميلي** (cosmétique) والزينة (Parure).

III ــ العــلــوم

لا ندعي ادعاء سخيفا بأننا سنقوم بتصنيف نهائي للعلوم. والتصنيف الذي نقترحه هنا له قيمة عملية فقط. فباعتباره قائما على أفعال المعجم فإنه لا هدف له سوى تفسير أفعال المعجم وتحديد المناطق التي تبحث فيها العلوم في مجتمع من المجتمعات. على أننا مقتنعون بأنه حتى من زاوية النظر التي ننطلق منها تظل مكانة العلوم في حاجة إلى المناقشة.

1 ــ الحقوق
2 ــ علم الاجتماع
3 ــ علم النفس
4 ــ علم تركيب الأجسام الحية، وعلم وظائف الأعضاء
5 ــ علم الأحياء
6 ــ الكيمياء الأحيائية (البيولوجية)، الكيمياء، الكيمياء الفيزيائية
7 ــ الفيزياء، الفيزياء الرياضية
8 ــ الهندسة، الهندسة التحليلية، التحليل
9 ــ الميتافيزيقا (؟)
10 ــ الإلـٰهيات (؟)

ج) الاجتمــاعــي

إن التصنيف الاجتماعي للمفردات يجب أن يوضع بمعزل عن الصنفين الكبيرين السابقين. ونحن نعلم أهمية التدرج التسلسلي لمفردات القرن السابع عشر : ففي أعمال بلزاك نجد عدداً من النصوص التي يتبين منها أن ألسنة الفئات الاجتماعية كانت أيضا أيام مَلَكية يوليوز (Monarchie de juillet) تتميز باختلافات واضحة، وهذه الاختلافات ما تزال قائمة إلى اليوم، وما تزال الكلمات الدالة على التصنيف موجودة على الدوام؛ من ذلك استعمال كلمة dame (= سيدة) عوض femme (= امرأة) في قولهم: comment va votre dame? (= كيف حال سيدتك؟ حسب الترجمة الحرفية)، واستعمل النعت التعجبي chouette (= رائع)، والنعت pépère (= سمين)... الخ. وعلى العكس فإن الكلمات غير المُتْقنة لا يكون لها وقع سيء إذا هي استعملت بقيمة أسلوبية معينة: فنحن نعلم كثرة استعمالها في التكلم الخاص

ببعض المهن التي يمارسها أشخاص مثقفون : رسامون ونحاتون... الخ. ويمكن أن نلاحظ أيضا أنه حين يلتقي زميلان من فيلق واحد يشرعان على التو ــ ولو أنهما في العادة يستعملان لغة صحيحة ــ في استعمال كلمات من نوع juteux (= رتبة مساعد في النظام العسكري) وgoguenot (= مِبْوَلة).

ونقترح هنا التصنيف الآتي للمفردات الاجتماعية :

1 ــ أرْغَة (argot)[33]

2 ــ شعبية (populaire)

3 ــ بذيئة، أو غير متقنة (grossier)

4 ــ شائعـــة

5 ــ أكاديميـة

6 ــ أدبيـــة

وهذا الترتيب الذي نقترحه ليس نهائيا ولكن يبدو مع ذلك أنه صالح لنجعل منه فرضية عمل. ويمكن فيما بعد أن نُقيم علاقات بين نصفي الدائرة اللذين قدمناهما سابقا : الحركة وتقنيات التنقل، ومفردات النظر والفنون التشكيلية.. إلخ.

2 ــ تطبيقات التصنيف

لنحاول أن نطبق التصنيف النظري الذي اقترحناه على البنية الواقعية الملموسة التي تمثلها مفردات حقبة معينة. فمن الواضح أن تصنيفنا ينبغي ألا يتكيف مع هذه الحقيقة الموضوعية فقط، ولكن أيضا مع ما نملكه عنها من معرفة تتحصَّل لنا من عدد الأعمال المنجزة من قبل وأهميتها.

علينا أن نعير الاهتمام لهذه الضرورة المزدوجة من أجل الكشف عن منطقة مهمة من الحياة الاجتماعية ومن المعجم. فإلى أي عمق ينبغي أن نذهب في حَفْر البئر

(33) ينبغي، في نظري، أن نميز ولو نظريا بين هذه الأصناف الثلاثة (argot, populaire, grossier). فرغم أن هذه الكلمات الثلاث يستعملها اليوم نفس الأشخاص في الغالب، إلا أنها مختلفة جدا إذا نظرنا إلى إمكانية استعمالها عند أشخاص ذوي مكانة عالية. ومن الناحية التاريخية ينبغي أيضا أن نميز بين الكلمات «الشعبية» وهي الألفاظ التقليدية للعمال الباريسيين وبين (الأرغة) التي كانت من قبل لغة الجناة. اقرأ في هذا الموضوع: (Dauzat, Les argots) (دوزا: **الأرغات**) وانظر الفصول المخصصة لكل من (الأرغة) و(اللغة الشعبية) في كتابنا: **المفردات والمجتمع**..

حتى يتأتّى لنا أخذُ مواصفات العَيْن المتصلة بها ؟ وبأية طريقة ينبغي للمخطط الذي نتبناه أن يكون قريبا من واقع الألفاظ ومن المعطيات المعجمية ؟ وبأية كيفية سيكون ـ عكس ذلك ـ عملا تركيبياً، ويستطيع بإبعاد ما هو ظاهري وعَرَضي أن يحدد المبادىء الأساسية والأسباب العميقة ؟ في بعض الحالات التي تكون فيها الحقبةُ غير معروفة معرفة جيدة قد يصبح من الأفضل الانصياع إلى دراسة استكشافية عامة وسطحية تكتفي، نظرا لقرب مسافتها من الظواهر، بتجميع الأفعال والأحداث الظاهرة والقيام بتصنيفات ذات طبيعة قاموسية. وقد رأينا أن نقف عند هذا النوع من البحث حين قمنا بدراسة مفردات النثر المستعملة في المجموعة الأدبية التي كان غوتييه ممثلها الرئيسي فيما بين 1833 و1845. إننا لم نَدَّع قطّ أن المخطط الذي تبنيناه إذّاك، قبل أن تُناقش أُطروحة غريماس وقبل قيام المنهج الاجتماعي الذي هو منهجنا اليوم، مخطط غير قابل للطعن، كما لا ندعي اليوم أنه يعتبر كافيا. كل ما نفكر فيه هو أنه كان يومذاك يفرض نفسه بالنسبة لدراسة أنجزت في تلك الظروف التي وُجِدْنا فيها.

وفي الحالات الأخرى، أي حين تكون الحقبة معروفة بما فيه الكفاية، فإن البحث المعجمي سيتم بعمق متوسط، وتلك وضعية سهلة لأنها بسيطرتها على مجموع المعجم ومراقبتها له، تُصبح قريبة قُرباً كافيا من المفاهيم الأساسية. ورغم أنه من المستبعد الإحاطة بكل أسرار المفردات في منتصف القرن السابع عشر، وبالرغم من عدم معرفتنا الكافية بتطور علم جمال هذا العهد، يمكننا أن نضع لدراسة الأفعال المعجمية في حقبة 1660ـ1670 المخطط الآتي(34) :

(34) انظر: ج. ماطوري : **مدخل إلى أسلوبية موليير**. (Introduction à la stylistique de Molière) ضمن الأعمال الكاملة لموليير (œuvres, éd. Richelieu, T. 11, p. 340 à 366). وانظر: (**مدخل معجمي لأميرة كليف** : Introduction lexicologique à la Princesse de Clève) ط. دروز.

المعجـم خلال 1660 ـ 1670

أ ـ المدخـل :

I ـ الوسط واللحظة : تَسَلسُلٌ في كل شيء

II ـ الفئة الاجتماعية : (محدودة)

الرجل المستقيم (المتحذلق)، الرجل الظريف، الرجل الجميل، مفاهيم الاستحقاق، مفاهيم الشرف... إلخ

III ـ مظاهر السلوك (ثقافية، جمالية... إلخ)

1 ـ العقل : عقلانية، لافردية، ذوق الجنرال. كلمات مبهمة مثل air (= جو) وmérite (= استحقاق) وcommerce (= تجارة)... إلخ. روح رياضية.

2 ـ الشعور (يظل واعيا)

3 ـ الحواسيٍّ (sensoriel = المتعلق بالحواس) نادرا ما يقع التعبير عنه(35).

ب ـ المفردات والمجتمع

I ـ الانسان والمجتمع

1 ـ أ) **الانسان واللباس** : جمالية اللباس، الأهمية المتزايدة للمُوضة، اللِّباس (للرجال والنساء) والكماليات (مساحيق التجميل، الشَّعر المستعار... إلخ).

ب) **الانسان والبيت** : الغطاء، المائدة، المأكولات، الأثاث (سلسلة الكراسي..)، الهندسة المعمارية.

ج) **الإنسان والملاهي** : الصيد... إلخ، الحفل الراقص، المحادثة، اللَّعب.

(35) في الأعمال الكلاسيكية قد يُقَدم أدب الشواذ (la littérature des irréguliers) معطيات مختلفة خاصة في القسم الأول من القرن. ويمكننا أن نلاحظ في هذه الحقبة أن النظر أو الحس «المثقف» لا يظهر تفوقه على الحواس «العاطفية» كاللمس والذوق والسمع (أهمية الأذن عند المدنيين). ولم تعرف مفردات القرن السابع عشر قط إلا في مظهرها الكلاسيكي. ولعل بعض الحفريات التي أجريت على نصوص تلقائية قد تحمل بشكل يبعث على الاطمئنان معلومات جد قيمة.

2 ـ **حياة المجتمع** : الجو العام

(الانسان وما يشبهه).

أ) **المبادىء** : (تذكير بـ : أ، III) مفاهيم التحضُّر، اللياقة، الامتثال، التأدّب، الظريف... إلخ.

ب) **الغَزَل** : التوريات (الارتباط، التعلق، إلخ).

ج) **المحادثة** : روح، حذلقة، كلمات من الموضة.. إلخ، تعبيرية : ألفاظ مبالغة مثل : extraordinaire (= عجيب) وconsidérable (= مهم) وinfini (= غير متناه)... إلخ.

3 ـ **الحياة العملية**، الدينية... إلخ (الإنسان والمؤسسات)

II ـ التسلسل الاجتماعي والتسلسل اللغوي :

1 ـ **الألقاب** : رجل رفيع المكانة، كريم النسب، بورجوازي... إلخ، سيدي، سيدتي إلخ...

2 ـ **الألسنة المجتمعية:**

أ) مفردات الأشخاص المستقيمين[36]

ب) مفردات البورجوازي

ج) مفردات الميكانيكا

د) مفردات الإنسان الماكر[37]

ج ـ المفردات والتقنيات

I ـ المبادىء العامة : التسلسل، القواعد

II ـ لسان مختلف الأنشطة

أ) مهـــن

ب) علـــوم :

1) بَحْتَة

2) دقيقة

الكيمياء القديمة (علم تحويل المعادن)

---

(36) انظر: (موليير) Molière, éd. Richelieu. T. 11, p. 349

(37) انظر. دوزا: الأرغات = (A. Dauzat, les argots)

ج) فنون جميلة وآداب

1 ـ **المبادىء** : سلطة، عقل، طبيعة، فن، علم، عبقرية، أخلاق، مشابهة الحق، لياقة.

2 ـ **فنون جميلة** : التقليد والمثال، «الطبيعة الجميلة»

3 ـ **آداب** : القواعد، الأنواع الأدبية، التسلسل الأدبي والمفردات :

- مفردات رفيعة (تراجيديا، قصيدة غنائية، ملحمة)
- مفردات شائعة : قصة
- مفردات منحطّة : السخرية

ومن المتوقع جدا في الظروف الحالية أن نتوفر على دراسات تركيبية تاريخية عامة يمكن أن نضع فيها الثقة الكافية لتركيب أفعال المعجم. وهكذا فبفضل بول هازار وموبخلوند وبفضل بعض أبحاثنا الخاصة، سيكون من الممكن لنا أن نقترح المخطط التالي لدراسة المفردات في سنة 1765 :

المعجم في 1765

أ ـ النموذج المجتمعي : الفيلسوف(38)

ب ـ الغـايـات : السعـــادة

ج ـ الـوســائـل

I ـ العقل والأنوار:

أ) عقل : طبيعته : لا تحكم، لا تقاليد : ظهور كلمة traditionnel (= تقليدي) سنة 1722، وكلمة éclectisme (= توفيقية) سنة 1755.

ب) أنــوار : عصر الأنوار

1 ـ المنهــج :

أ) تحليل : تعود كلمة analyser (= حلَّل) إلى نهاية القرن السابع عشر(د).

(38) انظر في ملحقنا جدول: الحقل المفهومي للفن والتقنية في 1765

(د) أرخ قاموس بُوتي روبير لظهور هذا الفِعْل بسنة 1698 (م).

ب) تجربة : ظهور كلمة empérisme (= تجريبية) في حقل الطب (سنة 1736).

ج) تركيب(هـ) : (القرن السابع عشر : ديكارت) ونظام.

2 ـ النمـوذج :

الطبيعة : الموضوع الرئيسي للعلم : الملاحظة.

أ) 1 ـ علوم طبيعية : علم الحيوان، علم النبات... إلخ

2 ـ الحق الطبيعي : «المتوحش الطيب» (le bon sauvage)(و).

3 ـ أخلاق طبيعية : عالِم أخلاق (moraliste) (1762)(ز)، تسامح.

4 ـ الدين الطبيعي : المذهب الإلهي(ح)، الالحادية، الشعوذة (ظهور كلمة charlatanisme سنة 1752).

ب) الطبيعة والشعور :

1 ـ الفن : الجميل المثالي (le beau idéal)

2 ـ ذوق الطبيعة : حديقة أنجليزية... إلخ.

II ـ الشعـور :

1 ـ في الحياة : كلمات sensible (= حَسَّاس) وsentimental (= شعـوري) وromantique (= رومـانسي) وésotérique (= خفي)، قمة العواطف (حدَّة، حماس، نشوة، أبخرة، دموع).

(هـ) ظهرت كلمة Synthèse حسب قاموس بُوتي روبير سنة 1607 (م).

(و) نظرية عرفت على عهد مونطين وديدرو (م).

(ز) أرخ قاموس بُوتي روبير لظهور هذه الكلمة بسنة 1690 (م).

(ح) المذهب الإلـٰهي (أو الديزم) مذهب الطبيعيين الإلـٰهيين الذين يعتقدون بوجود الله مع إنكار الوحي. فدينهم خال من الطقوس والعقائد المحددة (عن : مصطلحات فلسفية، جامعة محمد الخامس) (المترجم).

2 ـ في الفن :

1 ـ القلب : كلمات : sentiment (= شعور) وpathétique (= مثير للعاطفة) وtouchant (= مؤثر) وintéressant (= مهم) وjoli (= جميل).

2 ـ التخييل، القريحة.

3 ـ الأصالة : كلمات : génie (= عبقرية) وmagique (= سحري) وplagiat (= انتحال).

3 ـ **في الفلسفة** : كلمة ésotérique (= خفي) سنة 1755، وspiritualiste (= روحاني) سنة 1775.

III– **الإحساسات** :

1 ـ **في الحياة** : اللّذة والسرور، مفردات الظّرْف والغَزَل : (volupté, affaire, bontés, avoir, fantaisie... ect.)

2 ـ **في الفن** : (الدور المهم للفنون الأقل عقلانية من الأدب : الرسم، الموسيقى).

3 ـ **في الفلسفة** : هيلفتيوس (Hélvétius).

IV– **النزعة الاجتماعية** :

الحس الاجتماعي، المحادثة، الذوق، فساد القلب (ظهور كلمة : persifier = تهكم، سنة 1762).

V– **الفضيلة** :

د ـ **النتائج** :

1 ـ **تصنيف جديد للعلوم** : ظهور كلمة psychologie[ط] (= علم النفس) سنة 1760 وكلمة esthétique (= علم الجمال) سنة 1753.

2 ـ **تقدم العلوم** : التخلي عن عقلية ما قبل العلم، العلم ومشكل المُدوَّنة، تقدم العلوم.

أ) 1 ـ علوم طبيعية

2 ـ الكيمياء

(ط) يؤرخ قاموس بُوتي روبير لظهور هذه الكلمة بسنة 1690 ثم وقع تحديث معناها سنة 1734 (م).

3 ـ الفيزياء

4 ـ الرياضيات

ب) 1 ـ علوم اقتصادية : (كلمة économiste = اقتصادي سنة 1767) : الفيزيوقراطيون، مفهوم الطبقة الاجتماعية (Turgot = تيرجو)

2 ـ علوم سياسية.

3 ـ **الفنــون** :

أ) تيارات الذوق : المذهب الأكاديمي، الأصالة، العبقرية.

ب) علم الجمال الجديد : من جميل (joli) إلى (جميل مثاليّ : beau idéal).

ج) الإنجــازات :

1 ـ فنون تشكيلية: الفنون الجميلة (تطورها)، الرسم

2 ـ موسيقى

3 ـ أدب، علم الأدب (النثر، الشعر، المفردات الأدبية : رفيعة المستوى، محدثة).

4 ـ **الحياة الاقتصادية** : المهن، التجارة، استعمال كلمة capitalisme (= رأسمالية) سنة 1759، وكلمة importation (= تصدير) سنة 1748، وكلمة commercial (= تجاري) سنة 1749، وكلمة comptabilité (= محاسبة) سنة 1753.

5 ـ **الأفكار الجديدة** :

أ) التحليل : موسوعة العلوم، المفاهيم الجديدة، الفن، التقنية، العلم، تثمين فكرة العمل، ظهور كلمة machinisme (= آلية) سنة 1742، وكلمة industriel (= صناعي) سنة 1770.

ب) تطور وتقدم : ظهور كلمة perfectibilité (= اكتمالية) في 1750، وكلمة perfectible (= قابلية الاكتمال) في 1767، وكلمة décadence (= انحطاط) في 1770.

ج) الفرد والمجتمع (فردانية، عبقرية) المجتمع : حياة سياسية، حرية، وطن، أمة، إنسانية.

د) خلاصة تركيبية : فكرة الحضارة civilisation سنة 1769[39].

وستجد في الملحق الثاني ملاحظات تتعلق بأعمال طبقت منهجا قريبا من منهجنا واستعملت تصنيفا قريبا من التصنيف الذي ندعو إليه.

(39) كلمة civilisation تعبر عن تصور للحركة وللتقدم لم يكن معروفا في القرن السابع عشر. هذه الفكرة التركيبية كان يعبر عنها في القرن السابع عشر بواسطة الألفاظ التحليلية التالية :
police (= نظام) وpolitesse (= أدب) وcivilité (= كياسة).
وانظر حول كلمة civilisation : (ل. فيبر. L. Febvre وموص. M. Mauss) : **الكلمة والفكرة** (Le mot et l'idée, rennaissance du livre, 1930)

الفصل السابع

منهج المعجمية (تابع)

أ ـ التحديدات العددية والتمثيلات الخطية[1]

لقد اقترحنا في السابق تصنيفا لمجموع أفعال المفردات، ولكن التصنيف كما يقول ميرسن «ليس هدفاً كافيا في حد ذاته، بل هو مجرد وسيلة للدخول إلى جوهر الواقع»[2] والمعجمية بعد أن تخطت المراحل المنهجية الثلاث : أ) مرحلة تقرير الواقع؛ ب) مرحلة التصنيفات المُهَيِّئة للبحث عن الأسباب؛ ج) مرحلة التفسير الاجتماعي، عليها أن تنتقل في أقرب وقت ممكن إلى معالجة المرحلة العليا؛ د) مرحلة التحديدات الكمية والتمثيلات الخطية.

كتب دوركايم في «**تقسيم العمل الاجتماعي**» (Division du travail social. éd. 1893, p. 8) يقول: «ينبغي اكتشاف عنصر موضوعي يحتوي على تحديد وإن أمكن على مقياس». إن العلم الحديث يطمح الى أن يعوض التسمية (désignation) بالمُنْحَنَى (courbe)، والمُنْحَنَى بالمعادلة، ولا يمكن للعلوم اللسانية والاجتماعية أن تظل بعيدة عن التقدم المنهجي. ولقد سبق لجيليرون (Gilliéron) أن رأى أن اللسانيات يمكنها أن تستعمل وسائل إيضاح أكثر إقناعا من وسائل العلوم الفيزيائية. ألم يُطبِّق حساب الاحتمالات على علم الدلالة في بحثه المسمى «**أصول الكلمات الدالة على النّحل**»؟ إلا أنه مع ذلك ينبغي الحذر من هذا التفاؤل المفرط. فالأفعال الاجتماعية

(1) هذا الفصل إعادة صياغة مع زيادة لمقالة بعنوان: **القياس في المعجمية** (La mesure en Lexicologie) نشرت في (Thalès, 1948. pp. 8 à 15)

(2) **مسيرة الفكر** (Cheminement de la pensée. p. 219)

التي تعبر عنها المفردات أكثر تعقيدا من أن نتصور أنه بالإمكان مستقبلا تعويض المفهوم القديم للعلة والأثر بالوظيفة الرياضية.

نحن في الوقت الراهن نتوفر، في اللسانيات وخاصة في الأسلوبية، على أعمال إحصائية عديدة. فبالاضافة إلى الأعمال الأسلوبية الأنكَلوسكسونية[3] وبالإضافة إلى جداول التردد لڤندربيك (Vander Beke)[4] ومؤلفات ج. ك. زيبت (G.K. Zipt) وإحصائيين آخرين، ينبغي أن نذكر الأطروحتين الجيدتين للسيد بيير جيرو وهما بعنوان : ''**شاعرية فاليري**'' و''**الخصائص الإحصائية للمفردات**''[5]. لقد سمحت أعمال جيرو القائمة على الرياضيات، بالكشف عن عدد من القوانين التي قد يخضع لها أسلوب كاتب من الكتاب.

وهكذا فإن تردد بعض الكلمات (باستثناء الأدوات) «يسمح بالتمييز بين ثلاث مناطق من المعجم : فهناك حوالي خمسين كلمة من الكلمات ـ المواضيع (les mots-thèmes) التي يكثر استعمالها، وما بين 3000 إلى 4000 كلمة أساسية أو عملية، ثم عدد قليل جدا من الكلمات النادرة». وقد استطاع السيد جيرو من جهة

(3) يطبق الأسلوبيون الأنجليز والأمريكان بشكل واسع وبطريقة غالبا ما تكون فعالة المناهج الإحصائية. وقد تم نشر عدد من المطابقات (concordances). وانظر حول هذا المنهج: يول. ج. أودني (Yule. G. Udny) في (**الدراسة الاحصائية للمفردات الأدبية** .The statistical study of litterary vocabulary) (Cambridge University, Press 1944 وانظر: ل. بونيرو (L. Bonnerot) في (**التقنية الجديدة في النقد الأدبي**) Technique nouvelle en critique littéraire (les langues modernes, 1951) وينبغي العودة في شأن الإحصائيات اللسانية إلى التقرير الذي قدمه السيد مارسيل كوهن إلى المؤتمر العالمي للسانيات (Paris, Klincksieck, 1948)، ولنفس المؤلف فصلة حول الإحصائيات اللسانيات مستخرجة من إحدى محاضراته في معهد اللسانيات بجامعة باريس 1950. واقرأ أيضا: (ج .ف. أنجليوز، **الاحصاء والأدب** J.F. Angelioz, Statistique et littérature, in, Mercure de France, oct. 1952, pp. 291-296 وعلينا أن نشير إلى أعمال السيد ر. ميشيا (R. Michéa) اللامعة جدا التي لم نتعرف عليها مع الأسف إلا في مرحلة متأخرة. فدراسته حول مفردات جوته التي نجدها في المقالة المنشورة بعنوان: **الاحصائيات والنقد الأدبي** (Stati.|et critique littéraire, étud. German, 1952) (ص. 149 وما بعدها) تستحق أن يقرأها باهتمام جميع الأسلوبيين كباقي مقالات السيد ميشيا، وهي: (**مدخل إلى الاحصاء اللغوي**) (Introduc. à une statis. du langage (langues modernes 1949, p. 173.
و(**علاقات التردد بشكل الكلمات ومعناها**) Rapports de la fréquence avec la forme, le sens des mots) — langues mod., 1952, p. 227
و(**المفردات بنية وتجربة**) (Le vocabulaire comme structure et comme expérience - Revue philoso, Avril 1952, p. 223

(4) French Word Book, New York, 1931

(5) نوقشت الأطروحتان في السوربون (باريس 1951). نص مرقون.

أخرى أن يستخرج نسبة الكلمات المنتمية إلى مختلف المقولات النحوية. وهكذا فقد أحصى عند ڤاليري 47% من الأسماء و24% من الأفعال و20% من الصفات و9% من الظروف والأحوال.

وهذه نتائج مهمة، ولكننا نستطيع أن نتساءل مع ذلك : هل المشكل المطروح على مفردات كاتب معين وكذلك على مفردات فئة اجتماعية، هو كما يعتقد السيد جيرو مشكل نسبة التردد ؟ إن الأمر في نظرنا يتعلق بالأهمية الخاصة بطبيعة الكلمات وكيفيتها. وبحثُنا قائم على أساس الأهمية المجتمعية لعناصر المفردات. فالكلمة المفتاح والكلمة الشاهدة لا تعنيان عندنا الكلمات الكثيرة التردد، ولكنها كلماتٌ لها أهميتها من الناحية المجتمعية. إن مفهوم التردد (= درجة الاستعمال) يوجد على رأس اهتمامات السيد جيرو الذي يميز بين الكلمات ـ المواضيع «التي يكثر استعمالها في اللغة ونجدها تتردد بنسبة عالية عند أغلب الكتاب» (مثل كلمة opinion [= رأي]) والكلمات ـ المفاتيح التي لا يكون ترددها مطلقا وإنما نسبيا، وهي الكلمات التي لا نجدها تتردد بنسبة عالية إلا عند الكاتب الذي ندرسه (مثلا كلمة fuir [= هَرَبَ] عند ڤاليري).

وفي اعتقادنا أن المعجمية لا يمكن أن تتأسس على معطيات عددية كما عند السيد جيرو. فالمشكل الذي علينا أن نحله معقَّدٌ، وعَدُّ الكلمات لا يقدم حلا لهذا المشكل أبدا. ونحن نلح على أنه في المفردات الاجتماعية تكون الأهمية المجتمعية للكلمة هي الوحيدة التي لها دلالة، وأنه في مفردات كاتب معين تكون الأهمية النفسية وحدها هي التي تقدم فائدة. ففي مجتمعنا نجد أن كلمة totalitaire (= شمولي) كلمة لا شك في أنها قليلة الاستعمال، وقد تضعها جداول نسبة التردد في مكان غير متقدم داخل المفردات، ولكنه من المؤكد مع ذلك أن هذه الكلمة تعبر عن مفهوم (ليس سياسيا فقط ولكنه اجتماعي وفني.. الخ) ذي فائدة معتبرة. فإذا تركنا مجال المعجمية إلى مجال الأسلوبية وفحصنا مفردات ڤِرْلين سنلاحظ أن كلمتي bercer (= هَدْهَد) وberceau (= مَهْد، أرجوحة) وكذلك كلمة bercement (= هَدْهَدَةٌ) التي يَنْدُر استعمالُها تقريبا، هي أكثر دلالة بشكل لا حدود له (قيمتها في التحليل النفسي واضحة) من كلمتي lune (= قمر) وarbre (= شجرة)... الخ اللتين تترددان بكثرة.

إن حل المشكل في نظرنا لا يكمن في عدِّ الكلمات ولكن في منحها أُسّاً قد يعبر عن أهميتها داخل البنية المعجمية المدروسة.

أما الرسوم التي ما تزال قليلة الاستعمال في مادتنا فقد تقدم على الخصوص فائدة تعليمية. وقد يكون استعمالها مفيداً لمعرفة كَمْ عدد الكلمات التي تتكون منها لائحة مفردات معينة ؟ وما هي كَمِّياً نِسَبُ الكلمات المتعلقة بالحواسِّ والكلمات التقنية... الخ داخل هذه المفردات ؟ وإليك على سبيل المثال تخطيطا تمت فيه المقارنة بين مفردات اللون عند شخصين (أ) و(ب) انظر ش 4).

أسود داكن أسمر بنفسجي أزرق أخضر أصفر برتقالي أحمر كاكي ذهبي فضي مفتوح أبيض

مجموع الكلمات

(ش 4)

إن المهمة الأساسية لهذا المِعْجَام [= المقياس المعجمي] (lexicomètre) الذي نستطيع من الآن أن نتنبأ بعدد من إمكانياته، ستكون هي تحويل الكيفّي إلى كميّ.

ولكن ترجمة العناصر المعجمية إلى منحنيات تواجه صعوبات هامة لا يمكن أن نتبجح بتجاوزها، وإذن سنكتفي بأن نجعل بين أيدي قرائنا مشروع رسمٍ وضعناه بتعاون مع صديقنا أ.ج. غريماس :

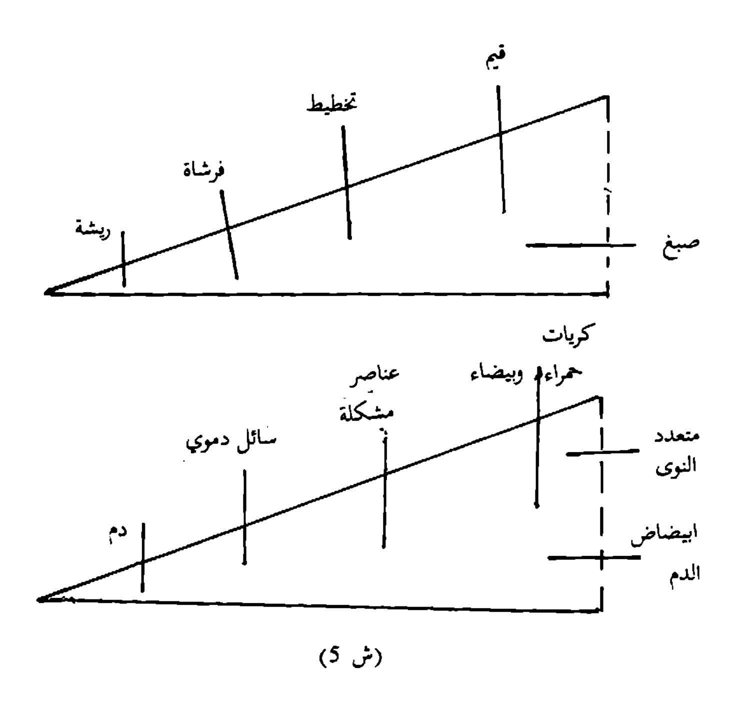
سنجعل، باستعمالنا لتصنيف مجموع الأفعال المعجمية الذي وضعناه سابقا، مختلف عناصر هذا التصنيف داخل دائرة تكون مساحتها الكلية هي التعبير بواسطة الرسم عن جميع المفردات في حقبة معينة. وسنكتفي هنا بالحديث عن نصف الدائرة التي تمثل الأنشطة التقنية والاجتماعية.

لنضع على مساحة كل قطاع، يمثل مهنةً أو فناً أو علْماً، عدداً من النقط تقابل كلَّ واحدة منها كلمةٌ متميزة من الكلمات المستعملة في النشاط المعني بالأمر. وهذه النقط ستنتمي إلى تقنية يرتفع شأنها شيئا فشيئا بقدر ابتعادها عن المركز. أما الكلمات القريبة من المركز فهي التي تنتمي إلى المفردات العامة، بينما تعبر تلك الواقعة في محيط الدائرة عن حد أقصى من التقنية.

لنأخذ على ذلك مثالين :

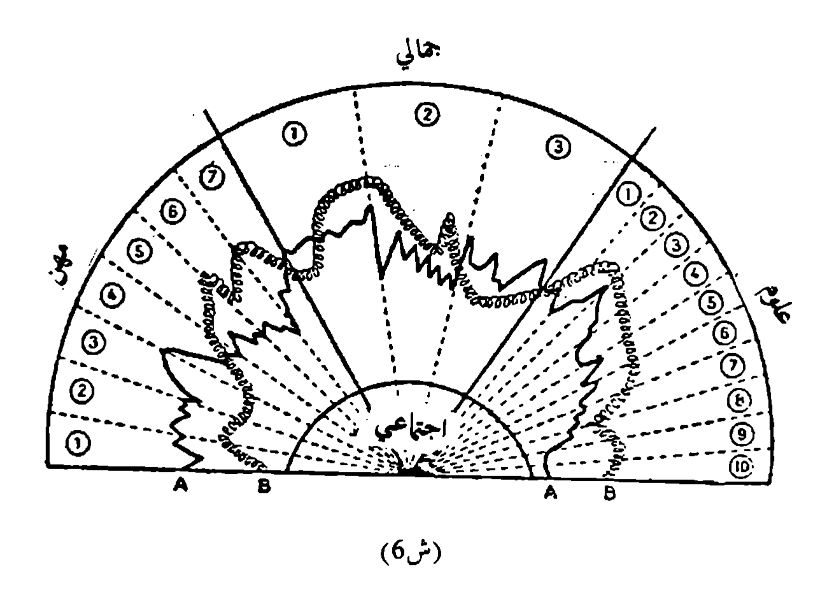
1) فـن الرسـم

2) بيولوجية الخلية (ش 5)



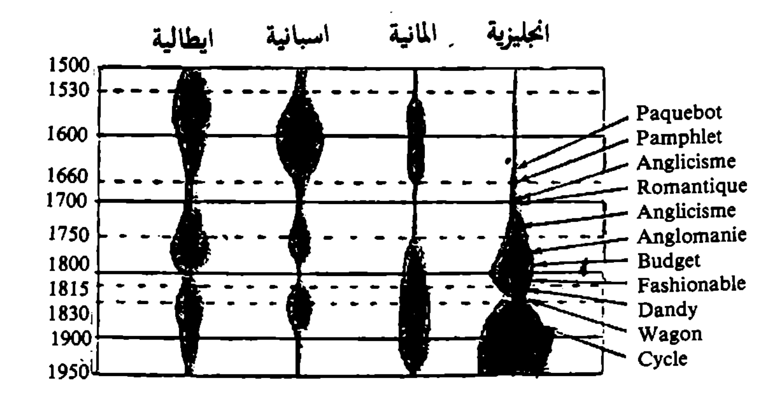
(ش 5)

وهذه الطريقة نفسها يمكن أن نسلكها في معالجة مجموع التقنيات التي يمكن تمثيلها بواسطة خطوط ورسوم. فسيكفي تجميع النقط التي تمثل الحد الأعلى من التقنية، مُسْتخرَجةً من البحث، للحصول على مُنْحنى المفردات التقنية المدروسة. وقد نستطيع بعد ذلك بسهولة عَقْد مقارنات بين المفردات التقنية عند شخصين أو عند فئتين اجتماعيتين (أ) و(ب). (انظر شكل 6).



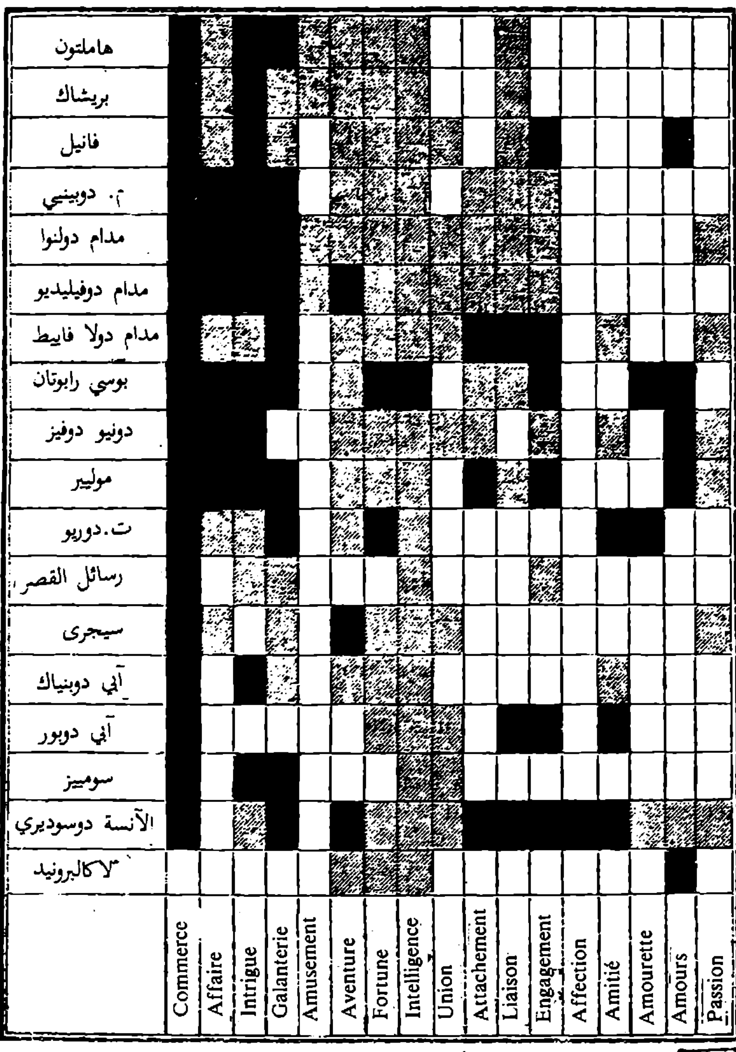
(ش6)

ويمكن لبعض الرسوم المؤسسة على معطيات رقميّة لم يتم تدقيقها بعد، أن تقدم مع ذلك فائدة تعليمية، وذلك كما في الحالة التي يمثلها الشكل (رقم 7) الذي يرسم تأثيرات الألسنة الأجنبية على المفردات الفرنسية منذ 1500.



(ش 7)

ولهذا الصنف نفسه ينتمي المخطط المقابل له (شكل 8) الذي استعرناه من أطروحة تلميذنا وصديقنا (ب. كيمادا)، وهو يمثل درجة استعمال وتردد بعض الكلمات من مفردات الأناقة والظرف عند بعض الكتاب في مرحلة ما بين 1640 و1700. والمعيار الذي استعمله السيد كيمادا من أجل تحديد ما إذا كانت هذه الكلمة كثيرة الاستعمال أم نادرة يظل معياراً تقريبيا. ومع ذلك فَجدولهُ هذا ليس قليل الأهمية :



استعمالات غير موجودة أو استثنائية — استعمالات نادرة

استعمالات شائعة

ب ـ البحث عن الأسباب

ضـرورة التـركيـب

لقد أشرنا عدة مرات، فيما سلف، إلى المؤلفات التي اختصت بدراسة المفردات الفرنسية وظهرت قبل المنهج الذي ندعو إليه. وهذه الأعمال التي لم تكن على يقين تام من الموضوع الذي تدرسه والعاجزة عن تصنيف الأفعال بطريقة عقلانية، أعمال لا جدوى منها عمليا، بحكم أنها لم تُولِ الناحية المنهجية المكانة التي تستحقها. وبالفعل نحن ننتقد هذه المؤلفات لأنها لم تقدم الفوائد المنتظرة: فلا يكفي في كتاب أو مقالة علمية أن يكونا فقط موثّقين ومؤلّفين تأليفاً محكما ومحرَّرين بعناية تامة، بل عليهما أيضا أن يقدما للعلم إسهاما مهما. ومعيارُ الفائدة أو الجدْوَى الذي نستعمله للحكم على عمل علمي، يقودنا إلى بحث الجانب الخاص بالتحليل والتركيب في المعجمية.

1 ـ التحليل بدون تركيب :

إلى عهد قريب، كانت المعجمية علما تحليليا خالصا، وكان بعض العلماء ينظرون نظرة تقدير خاص إلى البحث في الأشياء غير المألوفة، والتبحر العلمي الذي يُعْنى بتتبع أدق التفاصيل، والتحليل الذي ينتهي إلى أبعد مداه ويجعل غايته في ذاته : فكم كرَّسوا من عشرات المقالات للبحث في صيغة نادرة من نوادر (باطيلان) (Pathelin) أو شاردة من شوارد (فيلون) أو كلمة مرتجلة من كلمات (رابولي) الساخرة، وكم كتبوا من أسفار عديدة حول مفردات سخيفة لكتّاب منحطّين، والحال أن ثغرات علمنا ثغرات كبيرة : فمعجم الفيودالية مازال غير معروف بشكل جيد[6]، وأصول مفردات الغزل والملاطفة غير مدققة، واللغة الشعبية في القرن السابع عشر لم يهتمَّ أحد بالتنقيب فيها، ولغة الصالونات في القرن الثامن عشر لم تثر عناية أي باحث، كما أنْ لا أحد أيضا يعرف مفردات سان سيمون، ومفردات **الموسوعة العلمية** l'Encyclopédie[أ]، ومفردات غونكور (Goncourt) وزولا.. إلخ.

ويمكننا أن نُعدِّد أسباباً كثيرة لهذه الظاهرة، وأهمها فيما يبدو هو التخصص المفرط. وقد مضى قرن من الزمان على أوغست كونت الذي كان يتأسف على ضياع

(6) ومع ذلك علينا أن نذكر الأطروحة المهمة لهوليمان وهي بعنوان: **تطور مفردات الفيودالية** (مصدر مذكور).

(أ) يقصد موسوعة ديدرو (م).

الجهود نتيجة الأهمية المبالغ فيها التي تُعطى للبحث في التفاصيل. وكان يقول : «ينبغي تجنب الأثر الضار جدا للتخصص المبالغ فيه، دون أن يكون في ذلك مساس بالفصل بين البحوث الذي له تأثيره الحي... علينا أن نعلم أن الفكر الإنساني لا يكف عن الضياع في الأعمال التفصيلية» (cours de philosophie, po., 1er leçon).

وهناك سبب آخر أقل شيوعا، ويرجع عند بعض العلماء إلى النمو غير العادي للنقد الذاتي، وإلى الخوف المَرَضي من رأي الآخر.

وليست غايتُنا بطبيعة الحال أن نقوم بمحاكمة التوسع العلمي، فالتوسع العلمي أمر ضروري بكل تأكيد، ولا يمكن أن يتم أي تركيب بدونه. ولكن التحليل المفصل للأفعال والأحداث لا ينبغي أن يجعلنا ننسى أن هذه الأفعال والأحداث ليست لها في حد ذاتها دلالة أو معنى: فدراستها لا يكون لها مبررُ وجودٍ إلا إذا كانت مشفوعة بأعمال تركيبية. يقول كلود برنار: «إن مجرد ملاحظة الأفعال لا يمكن أبدا أن يؤدي إلى تأسيس علم. وسيكون من العبث مضاعفة الأفعال أو الملاحظات مادام ذلك لا يقدم جديدا»[7].

2 ـ التركيب بدون تحليل

كثيرا ما يُؤخذ على مُنَظِّري فلسفة التاريخ أنهم ينتهون إلى خلاصات تركيبية مغرية انطلاقا من تحليل غير تام. وهذا العيب على ندرته ليس مجهولا بين أوساط اللسانيين الذين ينشرون مؤلفات موجهة لعموم القراء. فهذه الكتب المبسطة التي لا تُنكر جدواها[8] (بل هي في نظرنا أكثر فائدة من بعض المقالات «المتبحِّرة») لها عيب خطير، وهو أنها تُبنى على أساس مجموعة من الأعمال التي تعكس أفكارا متباينة؛ ولذلك لا تستطيع إلا بصعوبة أن تقدم عملا تركيبيا. فعلى التركيب، إذن، أن يهمل أو يبعد كل ما من شأنه أن يكون عائقا في سبيل تحقيقه: كالتبسيط المبالغ فيه مثلا. يقول بحق ر.ل. فاجنر: «يقوم هذا النوع من المؤلفات ـ في مقابل الخدمات التي يؤديها ـ بتضليل القارىء وإغرائه بهذه الرؤية الخاطئة، وهي أن النحو

---

(7) مدخل إلى دراسة الطب التجريبي (Intro. à l'étu. de la médecine exp.)

(8) نذكر من بينها مؤلفي أ. دوزا (A. Dauzat) وهما: تاريخ اللسان الفرنسي (Histoire de la langue française) ولوحة اللسان الفرنسي (Tableau de la lang. française).

والفيولولوجيا علمان موضوعان ومحكومان بمنهج ثابت لا يتغير، وأن نتائجهما لا بد أن تسندها التمحيصات التفصيلية»[9].

3 ـ التركيب المسبوق بتحليل تام

كتب هنري بير (H. Berr) قائلا: «إن العملية التركيبية ولو كانت غير ناضجة أو مُتجاوزة حدَّها وبالتالي ذاتية، لها قيمتُها: فهي تُذَكِّر العَالِمَ بدوره الذي يجب أن يكون واعياً به. إن جمع طائفة من الأفعال ليس له قيمة علمية أكبر من القيمة التي تُعطى لجمع طوابع البريد أو جمع المَحَار»[10]. وبالفعل فإن دور التركيب لا ينبغي أن يبالغ في تقديره، ولا يمكن اعتبار الوثائق الأساسية التي يتم جمعها ذات طبيعة علمية إلا حين يقوم التركيب بإعدادها وتهيئتها. فالمعرفة المتبحرة ليست هي العلم، إنها فقط تمهد الطريق إليه.

وكما أننا نميز بين السُّلالة (éthnologie) وبين العِراقة (éthnographie)[ب]، يبدو من الصواب أيضا ألا نخلط بين **القاموسيَّة** (la lexicographie) أي الدراسة التحليلية لأفعال المفردات، وهي فرع من اللسانيات، وبين **المعجمية** (la lexicologie) التي هي مادة ذات طبيعة تركيبية، وتسعى إلى القيام بدراسة أفعال الحضارة[ج].

وتحتاج المعجمية، ربما أكثر من بقية العلوم، إلى عدد من الأعمال التفصيلية التي تم إنجازها عن طريق القاموسيَّة التحليلية. وهذه الأعمال ضرورية، بحيث لا يمكن للمعجمية أن تبني تفسيرها لمجتمع ما بدونها. والأطروحة التي خصصها أ. ج. غريماس

---

(9) **مدخل إلى اللسانيات الفرنسية**، (.Int. à la linguistique franç) إن القول ليس له فقط ذلك (الحد الأدنى من المعنى) الذي نمنحه إياه منذ الوهلة الأولى، فهذا المعنى الضيق والمحدود هو أيضا مُحاطٌ بما يشبه هالة واسعة جدا من الصعب تحديدها، ولكنها مع ذلك مهمة جدا. وهذه القيود هي التي ينبغي التضحية بها في حالة التعميم (ميرسن: **مسيرة الفكر**، ص. 567).

(10) **التركيب في التاريخ** (.Synth. en histoire, p. 19).

(ب) وظيفة السُّلالَة (الإثنولوجيا) هي ترتيب الشعوب حسب ألسنتها، والقيام بالدراسة الوصفية لمختلف المجموعات البشرية ودراسة طبائعها الانتروبولوجية والاجتماعية.. إلخ. وأما العِراقَة (الإثنوغرافيا) فهي الدراسة النظرية للأحوال والأشياء التي تصفها السلالة (عن قاموس بُوتي روبير) (م).

(ج) هذا التعريف الذي أعطاه المؤلف لكل من القاموسية والمعجمية يكاد يكون خاصا به، وإلا فقد أصبح من المعروف بين اللسانيين المحدثين ـ والمعجميين منهم خاصة ـ أن **القاموسية** هي علم صناعة القواميس أي الكتب المحتوية على رصيد لغوي مرتب ومشروح. **وأما المعجمية فهي** علم دراسة الألفاظ من جميع نواحيها والبحث في صيغها واشتقاقاتها ومعانيها (المترجم).

لـ «**مفردات الموضة سنة 1830**» تشير إلى ما لا يقل عن 3000 كلمة (من بينها 300 كلمة خاصة بالألوان، ومثلها من الكلمات الخاصة بأسماء الثياب... إلخ). وهناك من الأطروحات في موضوع المعجمية أطروحة ب. كيمادا التي استخدمت قراءات دارت حول أكثر من 300 نص اجتماعي من النصف الثاني للقرن السابع عشر. وأخيرا، إذا سُمح لنا بذكر أعمالنا، فإننا لا نعتقد أنها تتوفر على ثغرات كبيرة في مجال التوثيق. إن المعجمية، ولنكرر ذلك، تقوم على أساس التحليل التفصيلي لأفعال المفردات، ولكن علماء المعجمية عليهم، بأي ثمن، تجاوز هذه المرحلة وبذل مجهود يتم فيه الاهتمام أكثر فأكثر بعَقْلنة الأفعال المدروسة: فمهمة العلم هي الإشراف على عملية المطابقة (l'identification) والأخذ باختيارات[11] قادرة على القيام بتحديد بعض التفسيرات. وبواسطة التركيب وحده يصبح ما كان غير معقول من الأفعال ــ كما يبدو في الدراسات التحليلية ــ مفهوما شيئا فشيئا. إن شأن المعجمية هو شأن التاريخ الذي «لا يمكنه أن يأمل في صياغة قوانين، أي تحديد العلاقات بين الأشياء، بناء على مجرد التخمين وحده. فالتاريخ لا يمكن اعتباره علما إلا لكونه يجتهد في تفسير تحولات المجتمعات الانسانية»[12]. وحيث إن الدراسات المفرداتية عاجزة عن البحث في الشرعية[د] فإنها تجتهد إذن في سبيل تحديد السببية. فمفهوم السبب، أو العلة، الذي تُنحِّيه العلوم الفيزيقية والطبيعية المتقدمة على علمنا هذا، لا يمكن لعلماء المعجمية أن يغفلوه في هذه الآونة. ومن المعلوم أن «كلمة **علة** يجب أخذها بمفهومها الواسع كما هو في الاستخدام العادي، من أجل التعبير عن كل شيء يؤثر في إنتاج حدث ما، وليس فقط من أجل الدلالة على العلل البحتة أو العلل الفاعلة والعاملة حقا»[13].

---

(11) ميرسن (Meyerson): (**عن التفسير في العلوم**) (De l'explication dans les sciences)

(12) هـ. سي (H. Sée): **العلم والفلسفة من خلال نظرية ميرسن** (Science et philosophie d'après la doctrine d'E. Meyerson, p. 154)

(13) كورنو (Cournot): **بحث حول وظائف معارفنا** (Essai sur les fonctions de nos connaissances. Paris, 1912, p. 42) هناك نوع من التسلسل فيما بين الشروط المؤثرة في الظاهرة. فالأشكال تنتظم فيما بينها بما يجعل مجرد أقل عدد من هذه الشروط يمارس تأثيرا واضحا جدا، ويكون من الضروري أخذه بعين الاعتبار في أول مقاربة (ميرسن: **من التفسير في العلوم**، ص. 100)

(د) المقصود أن ليست مهمة المعجمية ودراسة المفردات بصفة عامة، إضفاء الشرعية على بعض الألفاظ والصيغ والدلالات أو الحكم عكس ذلك بعدم شرعية بعض آخر. بل يكفي أن نتعامل مع الظاهرة كما هي موجودة ونبحث في أسباب وجودها (المترجم).

ولا يمكن للبحث عن العلل في المعجمية أن يتأسس فقط على أعمال تفصيلية، فبمجرد ما تتجاوز الدراسات المعجمياتية المرحلة التحليلية القاموسية، ستبدأ في الاهتمام شيئا فشيئا، وهي تتقدم في سيرها، بالموضوعات الأكثر عمومية. ولنستشهد ببعض كلامنا مع الاعتذار فنقول: «إن مسلسل **التركيب ـ التحليل ـ التركيب** الذي نعزوه أحيانا إلى الفكر العلمي، ليس أمراً ينقصه التعقيد، فالتفكير العلمي يسلك طريق الطفرات المرحلية، وبعد كل دراسة تحليلية ينبغي الخضوع إذن لاختبار، أي لتركيب تجريبي، وبعده يستطيع الفكر، وقد تم شحنه من جديد، القيام بتحليلات جديدة تتوج هي نفسها بتركيبات جديدة»[14].

في كل مراحل البحث المعجمياتي، يكون على الباحثين أن ينظروا إلى عملهم على أنه جزء من كل[15]. ومنذ هيجل والاعتقاد سائد بأنه توجد بين الظواهر المختلفة لعصر من العصور رابطة قوية. فالكل يتماسك داخل المجتمع، وكل لائحةِ مفرداتٍ تُكوّن مجموعا عضويا[16]. لقد افترضنا أنه داخل مجموع معجمي تكون كمية الطاقة

(14) G. Matoré et J. Greimas, Méthode en Lexicologie (II). in. Romanische Forshange, 1950.

(15) «إننا لا نقوم بالتشخيص بناء على عَرَض واحد بل نحتاج إلى مجموع الأعراض» كما قال سينيوبوس (Seignobos) ولانجلوا (Langlois) في: **مدخل إلى الدراسات التاريخية** (Introduction aux études linguistiques, p. 225.

(16) كان ديدرو يزعم أن «الاستقلال المطلق لحَدَث معين لا ينسجم مع فكرة الكل» (Pensées sur l'interprétation de la nature. œuvres. 1875, T. 2, S. 2) وهذا ما عبر عنه سبنجلر بطريقة دقيقة جدا في نظرنا حين قال: «من يدري إذن أنه بين الحساب التفاضلي والمبدإ السلالي لعهد لويس الرابع عشر، وبين شكل المِقْلاة العتيقة والهندسة الإقليدية، وبين الرؤية المكانية للرسم الزيتي في الغرب وغزو المكان من قبل السكة الحديدية والهاتف والأسلحة النارية، وبين الموسيقى المعتمدة على الآلات الصاخبة والنظام الاقتصادي للقرض، هناك صلة عميقة في الشكل؟ (انظر: أ. سبنجلر: **سقوط الغرب**: (**O. Spengler**, Le déclin de l'occident, Paris, Trad. Tazerout, Gallimard, 1931, T. 1, p. 25 وكذلك هناك علاقة روحية بين مختلف مظاهر العصر الواحد كما بين ذلك لانسون في: (Le héros cornelien et le généreux selon Descartes) المنشور في (Revue de la France 1894). وانظر كاسيرر في: (Descartes, Corneille, Christine de Suède, Paris, 1942) وتوجد هناك مشابهات واضحة جداً ومستقلة في التأثير الشخصي المباشر بين الشخصيات الثقافية والسياسية للجزء الأول من القرن السابع عشر. إن عصرا من العصور هو بنية روحية. وانظر أيضا: (Dupréel, Deux essais sur le progrès, p. 23) وهناك بالتأكيد نصيب من الصحة في أطروحة الماركسيين المعاصرين أمثال لوكاكس (Lukacs) وجولدمان. فحسب هذه الأطروحة، تعتبر الأنظمة الفلسفية للعصر الرومنطيقي الألماني مثل فكر باسكال.. إلخ هي «الانعكاس المثالي للمشاكل المجتمعية» لكن ينبغي التأسف على التنميط المبالغ فيه لهذه الانتقادات. وحتى لو تبنينا وجهة النظر الماركسية، ينبغي أن نلاحظ أنهم لم يفهموا تعقيد الأفعال والأحداث وأنهم أهملوا تداخل البنيات الكبرى.

ثابتة، وأن كل تغيير جزئي تكون له انعكاسات على الجهاز كله. وإذا كان مفيدا وضروريا أن تجري داخل المادة المعجمية تحديداتٌ يمكن للبحث في داخلها أن يسير بشكل فعال، فإنه من الخطير إهمال العلاقات الموجودة بين مختلف قطاعات دراساتنا. وعدم الالتفات إلى هذه العلاقات معناه التعرض إلى إهمال العوامل الأكثر جدوى والعلل الأكثر شمولية، ومعناه أيضا التخلي عن تفسير التحولات المجتمعية التي هي موضوع دراستنا. ومن أجل أن تكون الدراسات المعجمياتية مؤسسة على تحليلات عميقة، ومن أجل النظر إلى الأشياء في علاقاتها المتشابكة، تستطيع هذه الدراسات أن تصبح مادة علمية ملموسة وتركيبية في وقت واحد: مادة علمية طالما رغب فيها بعض العلماء.

خـلاصـة

كثير من المؤلفين، يحددون مع شيء من المبالغة أحيانا، عند الانتهاء من كتاب علمي، أهمية الإسهام الذي يقدمه ذلك الكتاب إلى العلم. ولقد كنا نعتقد من قبلُ أننا نستطيع الاستغناء عن هذا النوع من التوضيح، ولكن شيئا من التخوف من أضرار السكوت راودَنا، فدعانا نحن أيضا إلى أن نقترح خاتمة على قارئنا.

وقد يبدو من باب الغرور، مع الوضعية الراهنة لعلمنا، أن نقدم هنا شيئا آخر غير الفرضيات. ومن باب التعميم كذلك أن نحاول، انطلاقا من مُعْطَى الأفعال، التكهن بالفائدة التي يمكن للعلوم الاجتماعية واللسانية أن تجنيها من المعجمية الاجتماعية بعد أن تستطيع تحقيق الأعمال التي تنتظرها وبعد أن تصبح علما مستقلا.

ولكن إذا صح أن النظريات ما هي إلا وسائل للعمل، وأن الحقيقة ليس لها سوى خاصية أداتية، فإن المنهج الذي ندعو له لن يكون قيامه عبثا. فبعد أن استعمله بالفعل عدد من الباحثين، يمكنه الآن أن يعتبر أداة فعالة من أدوات البحث الاجتماعي. وإن النتائج التي سبق أن توصل إليها المعجميون الذين استعملوه أمثال أ. ج. غريماس، لتسمح جيدا بتدشين أعمال مستقبلية في مجال المفردات، وذلك بعد أن يتم إعداد منهج يكون على الأقل ـ إن لم يكن نهائيا ـ متكيفا بشكل جيد مع موضوع علمنا[1].

---

(1) تستطيع المعجمية حين تنتج أعمالا مهمة أن تقدم مساعدة معتبرة إلى الدراسات الأسلوبية. ويمكن من جهة أخرى أن نتوقع الفائدة التي يمكن أن تنتج عن وجود معجمية مقارنة تستطيع بالاعتماد على المقابلة بين المفاهيم والمفردات في مختلف المجموعات اللسانيات (مثلا مفهوم الروح في الألمانية والانجليزية والفرنسية في نهاية القرن الثامن عشر) أن تغني معلوماتنا حول تاريخ الحضارة.

المعجمية الاجتماعية علم حديث السن وطموح، لكنه مع ذلك يأمل ألا يقتصر على تقديم فائدة عملية فقط، فهو عند من ينادون به، يبذل مجهودا لكي يقدم منهجا فعالا داخل قطاع من العلوم الإنسانية يمتاز على الخصوص بكونه لم يحدّد ولم يكتشف بما فيه الكفاية، منهجا قادرا على القيام بدور كان الفلاسفة ومؤرخو العلوم أمثال غ. باشلار وب. دوكاسيه أول من توقع فائدته.

هذه الخاصية الأصيلة لمنهجنا المعجمي، تأتي من كون هذه المادة العلمية التي يطبَّق عليها المنهج، هي نفسها مادة جديدة كانت حدودها قد وضعت دونما اعتبار للحدود النظرية التي رُسمت من قبلُ بين العلوم اللسانية والاجتماعية. فعلا، ليس بإمكان المعجمية أن تقدم موضوعا جديدا للبحث (فهو موضوع علم الاجتماع نفسه)، ولكنها تقدم رؤية خاصة لا يناسبها إلا منهج أصيل يتكيف مع الأفعال بشكل ملائم، ويحاول التخلص من المناهج ذات المنحى التجريدي في العلوم المجاورة.

لقد انتقد الماركسيون المبادىء والمناهج التي استوحى منها اللسانيون الغربيون، وانكبوا بصفة خاصة على تسجيل عيوب الأطروحة التي لها السيادة الكبرى هذه الأيام، وهي أطروحة اللسانيات الاجتماعية التي يمثلها سوسير وأتباعه. وهذا النقد صائب، لا من حيث الشكل الذي يكون مزعجا أحيانا ولكن من حيث العمق. أما اللسانيات الماركسية التي قامت على نظرية عامة جدا ولم تستطع أن تثبت فعاليتها بعد، فقد أسست عملا إيجابيا لكنه ما لبث هو الآخر، بالنظر إلى أصالته (عمل مار Marr مثلا)، أن سقط في أخطاء أخرى أكثر خطورة أيضا. ونعتقد أن الدراسات التي تم إنجازها حول المفردات انطلاقا من المعطى المعجمي وبناء على العلاقات بين المفردات والوسط المجتمعي، قد أوجدت منهجا ينجو من المؤاخذات التي تتبادلها كل من اللسانيات التقليدية واللسانيات الماركسية فيما بينهما.

إن المبدأ الذي يسمح بتحديد العلاقات بين الكلمة والتصور داخل الوعي من ناحية وداخل المجتمع من ناحية أخرى، سيستطيع ــ فيما يبدو ــ وبعد إنجاز عدد من الدراسات، حل مشكل طبيعة الفعل المعجمي، وبالتالي حل مشكل طبيعة الفعل الاجتماعي. إن المعجمية بتجاوزها للتصور الدوركايمي ولزاوية نظر علم النفس البَيْني (l'interpsychologie) الخاصة بطارد (Tarde)، لا تعتبر الأفعال الاجتماعية أشياء قائمة بنفسها وغريبة عن الفرد، كما لا تعتبرها وليدة الأحاسيس الخاصة. فالأفعال الاجتماعية

تظهر بمظهر الأشياء ولكنها أشياء مرئية ومحسوسة ويفهمها الناس. إنها إذن تنظر إلى الحقائق الاجتماعية التي تعد المفردات انعكاسا لها، في وقت واحد، نظرة موضوعية فتعتبرها حقائق مستقلة عن الفرد، ونظرة ذاتية بحكم أنها تعيش في وسط ملموس وداخل شروط اجتماعية واقتصادية وسياسية وفنية... إلخ. ولقد قادت وجهة النظر المثالية لعلم الاجتماع الدوركايمي واللسانيات المتأثرة به، عدداً من العلماء، بشكل غير متبصر، إلى التقليل من أهمية دور الشروط المادية ـ وخاصة الشروط الاقتصادية ـ في تطور اللغة وإشاعة فكرة غير سليمة وهي فكرة (العَقْد الاجتماعي). بل لقد ذهبوا ـ كما فعل سوسير ـ إلى ادعاء أن أفعال اللغة تتطور بشكل خاص داخل نظام له استقلاله الذاتي ومنفصل عن بقية الأفعال الاجتماعية. والمعجمية تنكر بشكل قاطع مثل هذا التصور : فهي ترفض أن تكون معزولة عن الدراسات الاجتماعية، وتزعم أنه لا يمكن أن نفسر المفردات دون الرجوع إلى الوسط الانساني الذي يحددها. إنها لا تهتم بالعمل ولكن بالتفسير، ولا تقوم على نظرية ولكن على حركة الأفعال. وهي، من أجل دراسة حقيقة اجتماعية متحركة، ترفض شرعية القالب الثابت الذي يقترحه الماركسيون. وعندها، بالفعل، أنه في كل حقبة وفي كل جيل، تحدث ـ حسب إجراء تتولى المعجمية أمر البحث في تحديد طبيعته، وتكون له علاقة ظاهرة بالتحولات العنيفة ـ وضعية اجتماعية جديدة تستدعي وضعية معجمية جديدة. أما الحقيقة التي سوف تظهر من خلال هذه التغيرات المختلفة، فسيقع ضبطها بشكل يختلف باختلاف هذه التحولات : فلن يكون الأمر أمر تصنيف اعتباطي لأفعال المفردات انطلاقا من معطىً ثابت ومن التسليم بالأسبقية الدائمة للمعطى الاقتصادي مثلا، بل سيتعلق الأمر بالبحث في كل حقبة عن العامل أو العوامل المهيمنة التي تؤدي إلى تناسق بين الأفعال الاجتماعية والمعجمية. وسيكون خطأً من أخطاء فلسفات التاريخ، كفلسفة سبنجلر، أن نقبل بوجود تناسق بين أفعال الحضارة دون أن تخضع هذه الأفعال لتصنيف تسلسلي. وأخيرا فإن المعجمية بحكم اهتمامها بالتفسير قبل كل شيء، ستكون قائمة على أساس مفهوم البنية.

إن المنهج الذي نتبناه، نظرا لارتباطه أساسا بتحديد التقطيعات التي تندرج داخلها دراسة المفردات (تقطيعات داخل المكان تقوم بتحديد حالة المجتمع، وتقطيعات داخل الزمان تقوم بإدخال فكرة التحول العنيف)، يفترض مراجعة الأطروحة السوسيرية. ذلك أنه من الصعب فعلا التسليم بأن أفعال المعجم تتطور

بشكل تدريجي كما يعتقد سوسير[2] كما أن وجود التغيرات داخل المفردات يقودنا أيضا إلى مراجعة تلك التفرقة التي أقامها سوسير بين التعاقبية والتزامنية : فالمعجمية تُدخل إلى اللسانيات السكونية مفهوم الزمن، ذلك أن دراسة الألفاظ لا يمكن أن تقوم على أساس فترة من تاريخ اللسان تكون من الناحية النظرية فترة آنية، بل عليها أن تكون محصورة بين تقطيعين يحددان حقبة معينة.

ولقد ألححنا عدة مرات سابقة، على أن دراساتنا ينبغي أن تؤدي بالضرورة إلى تفسيرات وخلاصات تركيبية، وذلك في الوقت الذي يقوم فيه علم الاجتماع الدوركايمي باقتراح نظريات مجردة أو أوصاف أو تصنيفات تمَّ وضعها دون البحث عن علية الأفعال، وفي الوقت الذي تجد فيه اللسانيات التقليدية[3]، بحكم أنها لا تتجاوز المستوى التحليلي، «نفسها قاصرة عن توضيح ما هي **أسس** اللغة **وعللها ومصادر** وضعها، وما هي طبيعة القوى المحركة لتطورها»[4]. وتريد المعجمية الاجتماعية قبل كل شيء ــ بمتابعتها المجهود المرموق الذي بذله ماييه ومحاولتها إقامته على أساس عقلاني ــ أن تقدم نفسها على أنها عبارة عن تفسير، والتفسير لا يمكن أن يكون إلا شاملا وتكوينيا : فباعتبار استحالة فصل الشكل عن المحتوى في اللغة، لن تقوم المعجمية على أساس الصيغ المنعزلة بعضها عن بعض، بل على أساس مجموعات من المفاهيم وعلى أساس بنية وعلاقات تفسرها الأفعال الاجتماعية التي تكون أفعال المفردات هي شرطها وانعكاسها في الوقت ذاته.

ومن أجل بلوغ الهدف المرسوم، على المعجمية الاجتماعية ألا تتبنى منهجا كافيا فقط، ولكن عليها أن تتبنى كذلك إجراءات عمل معقولة تسمح لها بإنجاز مهمتها بشكل سريع وفعال.

---

(2) **محاضرات في علم اللغة العام** (= C.L.G. p. 107)

(3) «اعتقد مار (Marr) أن نظريات المتخصصين في الهندوأروبيات (وكان بذلك يقصد النحاة الجدد بصفة خاصة) لم تكن قادرة على التحكم في غير الظواهر العارضة دون أن تستطيع مس الحقيقة العميقة للغة... وبالفعل، إذا نظرنا إلى هذه النظريات في صياغتها التي ما تزال شائعة في أغلب الأحوال، فسيبدو جيدا أنها تنحصر في تسجيل مجموعة الأفعال التي نلاحظ وجود علاقة متبادلة بينها، دون أن تفسر العلية.

ومن هذه الناحية فهي علم صُوري محض» (أ. سوفاجو A. Sauvageot): **لسانيات وماركسية**
Linguistique et Marxisme, in. à la lumière du marxisme, p. 16

(4) ريزنيكوف: Reznikov, in. cahiers int. de sociologie, 5 (1940), p. 157

والطريق التي ينبغي سلوكها لهذا الإنجاز يمكن فيما يبدو أن تكون كالآتي : فبعد وضع منهج على درجة كافية من الإحكام الذي يسمح له بإمكانية الاستعمال، على المتخصصين في المعجمية أن يبذلوا قصارى جهدهم لتطبيقه بصورة جماعية، ولا ينبغي أن يعملوا فرادى. وبالرغم من كراهية العلماء الفرنسيين الشديدة للعمل الجماعي عليهم أن يقبلوا بضرورته. وفي سنة 1948 سبق لرينان أن نبه لجدوى إصلاح الدراسات العلمية ودعا إلى عقلنة العمل وتبني منهج جماعي[5]، وقد حان الوقت لتحقيق هذه الرغبة. فبعد أن أصبح مفروضا على الدراسات المعجمية بصفة نهائية أن تقوم بنفسها في هيئة علم مستقل، ستعمل، مستوحية من مثال العلوم الفيزيائية والطبيعية، على وضع مخطط عام للعمل.

وسيتم البدء بتحديد الأولويات بين الأعمال التي ينبغي القيام بها. ومن المؤكد أن أفعال المعجم الحديثة هي التي ينبغي أن تثير الاهتمام قبل غيرها. فلقد خضع مجتمعنا منذ 1815 لتحولات ذات أهمية كبرى، الا أن المعجمية الاجتماعية ـ عكس علم الاجتماع الدوركايمي الذي كان يهتم خاصة بأنصاف المتحضرين ـ تقوم خلال محاولتها تفسير إنسان اليوم تفسيرا تاريخيا، بدراسة الماضي. وقد حمل إلينا فريق العاملين الذين انهمكوا منذ 1948 على جرد مفردات الحقبة الرومانسية وتفسيرها، كثيرا من المعلومات القيمة، وهذا المجهود ينبغي أن يستمر إلى الحقبة المعاصرة. إلا أن الانسان المعاصر ليس هو الموضوع الوحيد لدراستنا، وحتى لو كان ذلك كذلك لوجب اعتباره هو والحضارة التي يجسدها بمثابة نتاج للتاريخ. سيكون علينا إذن أن نحاول قبل كل شيء تحديد عدد من التواريخ التي تؤطر بعض الحقب الخاصة والمعروفة معرفة غير كافية، ثم القيام ـ انطلاقا من هذه التواريخ ـ بدراسة المفاهيم ذات الأهمية الكبرى والمفسّرة للمجتمع. فليس مقبولا أن تظل مفردات العصر الوسيط، بعد العديد من الأعمال التي جعلت من هذه الحقبة موضوعا لها، غير معروفة معرفة كافية : ولذلك على المتخصصين في المعجمية أن يبادروا ـ بالنسبة لهذه الفترة ـ باقتراح التواريخ المحدِّدة (بكسر الدال) التي سوف تدرج بينها الدراسات الأكثر

(5) «إن أكبر عائق يحول دون تقدم الدراسات الفيلولوجية فيما يبدو لي، هو هذا التشتت في العمل، وهذه العزلة القائمة بين المهتمين بنفس الموضوع... ولن نخرج من متاهة هذا العمل الفردي والمنعزل إلا بتنظيم علمي كبير يتم به إنجاز كل شيء دون تفريط أو إفراط في الجهود، مع صفة الجزم التي تجعلنا نقبل بثقة النتائج المتوصل إليها» (أ. رينان (E. Renan): **مستقبل العلم** (L'avenir de la science, pp. 122-132 et 248-249

استعجالا. ونفس البحوث ينبغي القيام بها ـ حسب مخطط موضوع من قبل ـ حول فترة نهاية القرن التاسع عشر، وحول بداية القرن الثامن عشر، وحول السابع عشر، ثم حول الحقب الواقعة بين ذلك(6). ومن المؤكد أن هذه الأعمال الأولى ـ نظرا لمساحة ثغراتنا الواسعة ـ لن تكون لها سوى فائدة مؤقتة، ولذلك ينبغي قبل كل شيء أن نقترح للدراسة موضوعاتٍ لا تتناول مفاهيم عامة ولكن مظاهر دالة ومحددة بدقة : مثل المفردات الجمالية، والحقل المعجمي للتجارة... وهلم جرا. وحول كل عمل من الأعمال المتوقعة سيتم إنجاز دراسة ذات طبيعة تحليلية ومعجمية. على أنه ـ وكما قلناه من قبل ـ ليس التخصص والتحليل غايتين في حد ذاتهما ولكنهما وسيلتان، فعلى دراساتنا أن تقوم بوظيفة التركيب التفسيري. ومنذ نصف قرن كتب مؤرخان لامعان يقولان : «التخصص أولا والتركيب بعد ذلك، تلك هي المسيرة التي تسلكها كل معرفة. ولكن الدراسات التخصصية والدراسات التركيبية ينبغي أن تتنافس وتتلاقح وتسير بخطى واحدة تقريبا، كما ينبغي أن تزود ببعض التوجيهات العامة

---

(6) هذه على سبيل التوجيه بعض الموضوعات (للرسائل والأطروحات) التي نقترحها:
أ) 1605ـ1690: دراسة المفردات التقنية (الطب ـ الطبخ ـ اللعب.. إلخ)، أعمال حول الموضة، والمفردات الجمالية، ومعاجم المؤلفين (أما معاجم «**سلسلة كبار كتاب فرنسا**» collection des grands écrivains de la France) فهي في الغالب ضعيفة. والمثال على ذلك معاجم موليير ولا برويير (La Bruyère) ومدام دي سيفينيه (Mme De Sévigné)، دراسة المفاهيم مثل مفاهيم (الرجل المستقيم، الاستحقاق، الظريف والغزل... إلخ). وبعض الأطروحات يمكن أن تكون حول المزاريين (Les Mazarinades) وحول مسرح (معرض غراردي) وحول اللغة الشعبية... إلخ
ب) 1690ـ1789: كثير من الأطروحات حول مفردات الحساسية : 1) قبل 1735؛ 2) من 1735 إلى 1765؛ 3) في نهاية القرن الثامن عشر. وأعمال حول مفردات الصالونات، وحول الألسنة التقنية (الرسم، الموسيقى، المهن اليدوية.. إلخ) وحول مفردات الاحساس (وهو موضوع هام جدا) ومعاجم الكتاب (سان سيمون ـ مونتيسكيو ـ فولتير ـ ديدرو ـ روسو ـ لاكلو، ولوحة باريس ليمرسيه Mercier) وحول اللغة الشعبية، واللغة السوقية، ومفاهيم الذوق والأصالة والعبقرية والتقنية... إلخ.
ج) 1789ـ1850: معاجم الكتاب: عشرات الشهادات العليا يمكن أن تخصص لمفردات الأعمال النثرية لهيجو (أما الشعر فليس له بالنسبة إليه إلا أهمية أسلوبية) وأكثر من ذلك لمفردات بلزاك، وأخرى لمفردات شاطوبريان وفوريه وسان سيمون، وستاندال، وميرينيه Mérinée، وفلوبير، وآل غونكور، وزولا، وباري Barrés ولوتي Loti وبروست، وجيد، وكثير من الكتاب الثانويين وأطروحات حول مفاهيم البورجوازي والفنان والداندي والبروليتاريا والفردانية والرأسمالية.. إلخ وأعمال حول مفردات الموضة: 1) حوالي 1845؛ 2) حوالي 1860؛ 3) حوالي 1880.. إلخ، وحول المفردات السياسية والاجتماعية، وحول المهن والصالونات .. إلخ، ومفردات الصحف ينبغي أن يتم جردها بشكل منظم. وأخيرا يمكن إنجاز بحث على نطاق واسع حول مفردات الفترة الحالية لا يعتمد فقط طريقة جرد النصوص ولكن يعتمد التسجيلات على الخصوص. ومنذ الآن ينبغي أن نتوقع صدور قاموس موسوعي للسان الفرنسي في القرنين التاسع عشر والعشرين.

حتى لا تكون المعالجة ناقصة أو تُدرس موضوعات أخرى دراسات متكررة، وحتى لا يكون هناك وقت أو جهد يضيعان سدى. ينبغي إذن أن يصبح العمل جماعيا، وعلى الباحثين ألا يعملوا منعزلين بل أن يتعارفوا أكثر، وأن يكونوا في كل لحظة على علم بما يتم عمله بجوارهم أو بعيدا عنهم. وعليهم أن يتضامنوا حقا بعضهم مع بعض... وأن يتجلى هذا التضامن وتظهر هذه الجهود الجماعية، كلما أمكن ذلك، في الأعمال المشتركة...»(7).

إن الدراسات المعجمياتية باستطاعتها، إذا هي سارت بشكل عقلاني، أن توصل بسرعة إلى أعمال تركيبية تحمل معها، شأنها في ذلك شأن الدراسات التاريخية والاجتماعية، عناصر جد مفيدة لتاريخ الحضارة. وينبغي أن يتجلى تعاون كل الباحثين قبل كل شيء وحسب اعتقادنا في جملة من الإجراءات الملموسة :

1) فيبدو لنا أنه من الضروري أن يتم في أقرب الآجال وضع رتّابة جماعية للمفردات، ويمكن لأعمال الجرد التي يديرها السيد ماريوروك تحت اسم (جَرْد اللسان الفرنسي inventaire de la langue française) أن تصبح بمثابة جنين لها. وينبغي بطبيعة الحال أن تكون هذه الرتّابة الجديدة رهن إشارة كل الباحثين.

2) يجب اتخاذ إجراءات للبدء في أسرع وقت ممكن، في الدراسة المنظمة لبعض العصور، وينبغي أن يتولى أساتذة التعليم العالي المسؤولون عن الدراسات اللسانية الفرنسية في كلياتهم، وضع مخطط عام للأطروحات وشهادات الدراسات العليا بشكل مشترك.

3) يمكن أن نعتبر من الأمور المستعجلة، إحداث كراسيّ للمعجمية الفرنسية بكليات الآداب المهمة. ولن يكون على أصحاب هذه الكراسي أن يعملوا فقط بتنسيق مع أصحاب كراسي النحو والفيولولوجيا الفرنسية والكلاسيكية وأن يتعاونوا معهم على تهيىء شهادتي الإجازة التعليمية، بل سيكون عليهم أيضا أن يضمنوا وجود تعليم متميز ومستقل ينتهي بشهادة لها برنامج يمكن تحديده بسهولة.

4) وسيكون ضروريا (في غياب دورية فرنسية خاصة بالمعجمية) أن يخصص لدراساتنا قسم مهم في مجلة فرنسية لسانية. إن المقالات التي تخصصها مجلة

(7) ب. كارون، و ف. سانيك (P. Caron et Ph. Sagnac): **الحالة الراهنة للدراسات التاريخية** L'état actuel des études de l'histoire (1902).

(الفرنسية المعاصرة Français Moderne) للمفردات الفرنسية لشاهدة أحيانا على المناهج الفاسدة، بالإضافة إلى كونها شديدة الاختصار ومغالية في التحليل.

5) يجب اتخاذ إجراءات تمنع صدور أية نشرة تحقيقية للنصوص الفرنسية دون فهارس[8] تشتمل على كل الألفاظ التي تقدم فائدة معينة وليس الألفاظ النادرة فقط. ومعلوم أن ليس المسؤول عن إنجاز كل هذه الفهارس هم مؤرخو الآداب بل هم المتخصصون في المعجمية الذين لهم علم بمشاكل المفردات المطروحة في العصور التي تنتمي إليها النصوص المنشورة.

وقد أضاء بعض الناشرين السبيل في هذا المجال فينبغي احتذاء مثالهم. كما بات من المؤكد أنه يوم سنملك قدرا كبيرا من الفهارس الجيدة سيكون بمستطاع دراساتنا أن تحقق تقدما ملموسا.

---

(8) نذكر على سبيل المثال فهرس أوكاسان ونيكوليت (Aucassin et Nicolette) الذي وضعه السيد ماريو روك (انظر سلسلة : Collection des classiques français du moyen âge) وهو يجمع ويشرح كل كلمات النص بجميع صيغها. ومع أن معاجم بعض الأعمال المنشورة في هذه السلسلة ناقصة جدا. وعلى العكس فإن أغلب معاجم سلسلة (littéraires français. chez Droz) موضوعة بشكل جيد.

ملحق[1] - 1 -

الحقل المفهومي للفن والفنان فيما بين 1827 و1834

1 - قبل 1765-1765 : ديدرو ووِينْكِلْمان

ظلت كلمة «art» (= فن) مدة طويلة تحتفظ بدلالة عامة جدا. وحين كان الأمر يقتضي بعض الدقة والتحديد كان يتم استعمال عبارة «arts mécaniques» (= فنون آلية) (أي المهن)، أو عبارة «arts libéraux» (= فنون حرة). وهذه الفنون لم يدخل ضمنها الرسم والنحت وفن العمارة إلا ابتداء من منتصف القرن السادس عشر[2].

ولم يحصل «الفن» على استقلاله الحقيقي إلا في القرن السابع عشر[أ] (وميلاد لفظ «beaux-arts» = فنون جميلة، حوالي 1640 شاهد على ذلك)، ولم يحتل مكانة مرموقة في سُلّمية القيم إلا مع بداية القرن الثامن عشر. ومع ذلك ظل هنالك التباس وخلط في المعنى بين كلمتي «artiste» (= فنان) و«artisan» (= صانع، ماهر، حرفي). ففي 1719 نجد القس دِيبُوس يصف ميشيل أنْج بالصانع «artisan» وفي

(1) تم نشر جزء كبير من هذا الملحق في أبريل — سبتمبر 1951 بمجلة (Revue des sciences humaines = مجلة العلوم الانسانية. الفصلة 62 — 63، ص. 120 إلى 137)

(2) يذكر برينو في (**تاريخ اللسان الفرنسي**) ج 6، ص. 180 نصا يعود إلى 1542

(أ) يقصد المؤلف أن كلمة (art = فن) لم تستقل بمعناها الخاص إلا في ذلك التاريخ، إذ كان معناها من قبل عاما ومشتركا (المترجم).

سنة 1765 كان شابير ما يزال يتحدث عن الفنانين «artistes»[ب] الذين عهد إليهم بمهمة حراسة الأبقار[3].

وعلة هذا التطور الذي حصل في مفهوم **الفن** كامنة بكل تأكيد في إحلال الشعور، ليكون أساسا في إثبات الوجود، محل العقل : فعلى هاوي الفن أن يتحرك شعوره وأن يتأثر. وقد كان القس ديبوس ينفي سنة 1719 أن تكون للفن غاية أخرى سوى المتعة، ولكن أصواتاً أخرى قد ارتفعت مبشِّرة بأخلاقية الشعور وذهبت إلى تأكيد الدور التربوي للفنون الجميلة. وذلك هو الرأي الذي عبر عنه القس بريفو في (Avis aux lecteurs de Manon Lescaut) (**إعلان إلى قراء مانون ليكوط**) (1731)، ورأي ديدرو الذي ادعى وهو ينتقد الرسوم العارية لبوشي، أن الشعر والرسم ينبغي أن تكون لهما «أخلاق». وقد تأكد انتصار الشعور فيما نالته الفنون الأقل ذهنية من الأدب، أي الموسيقى وخاصة الرسم، من حظوة خلال القرن الثامن عشر. وأهمية الرسم في حياة العصر أهمية كان القس ديبوس[4] قد لاحظها من قبل وسجلها أيضا كل المنظرين. وقد دعا ديدرو الرسامين إلى قراءة الشعراء ودعا الشعراء إلى رؤية أعمال كبار الرسامين : «فالأولون سوف يعودون من ذلك بالذوق والأفكار وسمو المشاعر، والآخرون سوف يعودون بالدقة والحقيقة. فكم من لوحات شعرية تثير إعجابنا ونحس بأنه من العبث تحويلها إلى رسوم»[5]. وإذا كانت الفنون التشكيلية قد أجهدت نفسها في القرن السابع عشر لكي تخضع لموضوعها القواعد الخاصة بالفن الأدبي، فإنها الآن تفرض قوانينها أكثر فأكثر على الأدب. وفي كل الفنون يسود الذوق القائم على الشعور، إنه «الشعور بالأشياء الجميلة والأشياء المعيبة» كما يؤكد مونتسكيو وڤولتير، وهو الشيء الذي **يؤثر**، كما يوضح ديدرو[6]. والذوق يمكن أن يكون طبيعيا، ولكنه بصفة عامة مكتسب، وفي هذه الحال يتكيء على التقاليد

(3) نفسه ج 6، ص. 682

(4) **تأملات نقدية** (Réflex. crit. éd. de 1733. T. 1, p. 392)

(5) **موسوعة** ديدرو، مادة (composition)

(6) الذوق هو «القدرة المكتسبة بالتجارب المتكررة، على إدراك ما هو حقيقي أو طيب مع المناسبة التي تجعله جميلا وتجعلنا نتأثر به سريعا» (Essais sur la peinture, T. 10, p. 519)

(ب) يقصد أن القس ديبوس كان عليه أن يستعمل (artiste) عوض (artisan) في : حين كان على شابير أن يفعل العكس. والسبب هو أن الكلمتين المذكورتين لم يكن معنياهما قد استقلا بعضهما عن بعض عند بعض كتاب القرن الثامن عشر نفسه. (م).

والقواعد : فنحن مستمرون في تقليد القدماء وتقليد «**الطبيعة الجميلة**»[7] (la belle nature)، ولكن الفكرة التي تسود هي أن «**الطبيعة الجميلة**» يمكن فهمها بطرق مختلفة، وهذا ما يقبله ديدرو وكونديياك. وقد كتب هذا الأخير قائلا : «كثيرا ما نتحدث عن **الطبيعة الجميلة** حتى كأن ليس هناك شعب مهذب لا يتباهى بتقليدها، ولكن كل شعب يعتقد أنه يجد نموذج هذه الطبيعة في طريقة شعوره هو. فعلينا ألا نعجب إذا كانت تعترض سبيل التعرف عليها كثير من الصعوبات. فهي في الغالبية العظمى من الأحوال تغير وجهها أو على الأقل تمتزج كثيرا بهواء كل بلد»[8].

وتتجلى فلسفة الشعور في الأهمية التي تُعطى للفرد في الإبداع الفني. لقد ظهرت كلمة «originalité» (= أصالة) سنة 1690، وكلمة «individualité» (= فردية) سنة 1760، وكلمة «plagiat» (= انتحال) في 1762، وتركت كلمة «imitation» (= محاكاة، تقليد) مكانها لكل من «traduction» (= ترجمة) و«rendu» (= أداء، تعبير) و«création» (= إبداع، خلق)، ولكن القيمة المكتسبة عن طريق مفهوم العبقرية هي التي ميزت بوضوح الصفة الجديدة التي أصبح عليها الفن في منتصف القرن الثامن عشر. ولقد قام كل من القس ديبوس[9] وكونديياك[10] بفصل العبقرية عن الموهبة فصلا تاما، ولكن ديدرو[11] هو الذي أعطى للعبقرية

---

(7) ظهرت عبارة (belle nature) لأول مرة في (La gloire de val de grâce) سنة 1668. وفي سنة 1716 كتب فينلون (Fénelon) (نقل ذلك موستوكسيدي في : (Syst. esthét. en F., p. 56) يقول : «إن أحسن طريقة للانتصار على القدماء هي الحرص أكثر منهم على متابعة أفكارهم حول تقليد الطبيعة الجميلة». والطبيعة الجميلة في ق. 17 هي قبل كل شيء الجسم البشري الذي يتم إصلاحه بالقديم. وفي ق. 18 لم تعد الطبيعة الجميلة هي الانسان فقط.

(8) Essai sur l'origin. de conn. hum. 1946. (= **بحث حول طبيعة المعرفة الانسانية**) القسم الثاني. فرع 1 فصل 8. نقلا عن موستوكسيدي (مرجع سابق)

(9) «نسمي عبقرية تلك القابلية التي يأخذها إنسان من الطبيعة للقيام بشيء على نحو جيد وجميل لا يقدر آخرون على القيام به إلا بشكل رديء جدا. وهذه الصفة التي أتحدث عنها لا تكسب أبدا ولا نحصل عليها أبدا ما لم نحملها معنا منذ الولادة» (**تأملات نقدية** : Réflex. crit., p. 759)

(10) مرجع سابق. ج 1–2، ص. 104 لكن كما يشير إلى ذلك لوجان بيرسال سميث الذي يذكر نص كونديياك، فقد «كان ربط الخيال بالعبقرية قد تم اقتراحه لأول مرة في انجلترا، وأما في فرنسا فقد تم ربطه بالروح (Words and idioms studies, p. 118)

(11) انظر في هذا الموضوع : المقالة الطويلة لديكمان **H. Dieckmann** : Diderot's conception of genius, in journal of the Histo. of. ideas. 1941, p. 151 à 152 والكلمة كثيرة الاستعمال في (Le Neveu de Rameau).

صفتها الحديثة بعد النقاد الأنجليز. فالعبقرية مُبْدعة[12]، إنها بحماس تبدع **الجميل**، بل تبدع **السامي** الذي هو «الجميل لدرجة عالية» وهو الجميل ذو الأصل السحري أيضا. ولقد تم بالفعل في القرن الثامن عشر اكتشاف الطبيعة الصوفية للنشاط الجمالي، وهناك كتَّاب أمثال ديدرو يتحدثون كثيرا عن سِحْر[13] الفن. وقد كانت الحالة النفسية لمن قبل المرحلة الرومانسية قريبة من الشعور الديني. على أن تصور الفن على هذا النحو ليس ثابتا، فخلافا لما كان عليه ليسينغ الذي نجده في (Laokoon = لاوكون) (1766) يفضل الجمال المثالي على التعبير، ويريد أن تقوم الفنون التشكيلية بترجمة ال : (elde einfalt und stille grösse) (= البساطة في سموها وعلوها والعظمة في هدوئها)، نجد ديدور يعطي للتعبير أهمية كبيرة، ونجد طريقة التعبير الخاصة بالفن الفرنسي قبل 1760 قائمة على كلمتي «joli» (= جميل) و«grâce»(ج). و«الجمال المتحرك» الذي هو المثال بذاته عند ديدور يرتبط بشعور الحركة أي بالحياة[14] وما الفن سوى مظهر للحياة. وبعضهم أمثال كونديياك يرى أنه ليس ترفا بل له أساس نفعي مثله مثل اللغة، وقد ولد نتيجة الحاجة العميقة التي اضطرت الإنسان للتعبير عن نفسه. ويؤكد آخرون من أمثال هيوم أن الجميل مسألة ذاتية[15] غير موضوعية. إن الفن ليس سوى عنصر داخل نظام من القيم : إنه مظهر من مظاهر **الأنوار**، ويتجلى كما رأينا من خلال **الذوق** الذي لم يكن سنة 1760 شاملا بل كان تعبيرا عن مشاعر فئة مجتمعية وعما نسميه بكلمة جديدة (ظهرت سنة 1766) وهي كلمة «civilisation» (= حضارة).

لكن المكانة المرموقة التي يحتلها الفن هي التي عملت بالتحديد على إبراز جانبه اليدوي، حيث لم يكن أصحاب الموسوعات العلمية يحتقرون الأعمال الآلية

---

(12) كلمة (création = إبداع) مستعملة من قبل عند فوفنارج (Vauvnargues)

(13) هذه الخاصية السحرية (بالمعنى الحقيقي للكلمة) للفن أكدها في عصرنا هذا علماء التحليل النفسي الذين أعادوا تناول فكرة كان س. ريناش قد عبر عنها من قبل بكلمات : (Cultes) (= طقوس، عبادات) و(mythes) (= أساطير) و(religion) (= دين). انظر : فرويد في : (Totem et Tabou, Payot, p. 127).

(14) إن الجميل المثالي الذي كان يقول به ديدرو في موضوع اللوحة، ينبغي أن يتطابق مع حساسية القرن، أي أن يكون مثيرا للعواطف وأخلاقيا.

(15) «ليس الجمال صفة للأشياء في ذاتها، ولكنه فقط صفة للنفس التي تتأملها، وكل نفس ترى الجمال بطريقتها المختلفة» نص 1746 في (Essays. (I). 256)

(ج) من معاني الكلمة : الفضل، النعمة، العفو، اللطافة، الأناقة، المنة.. إلخ (م).

[المهن]. وسوف يتفكك المفهوم الشمولي للفن. وأما **الجميل المثالي** الذي سوف يحتفظ بقيمته الرفيعة إلى غاية المرحلة الرومانسية، فقد اعتبرته الذهنية العملية لرجل مثل ديدرو في الوقت نفسه إنجازا من الإنجازات.

ومن أجل التعبير عن هذا المظهر من مظاهر النشاط الفني سوف تولد كلمة «technique» (= تقنية)، أما الفنون التشكيلية كالرسم والنحت التي كانت تعتبر حينذاك وبصفة عامة، بمثابة الأشياء الأكثر دلالة، فقد أصبحت عبارة عن «**فنون للترجمة**» لا تستطيع إعادة إنتاج الطبيعة مثل الفنون الأدبية ولكنها تستطيع فقط أن تترجمها(16). إنها فنون صعبة ولا يمكن التغلب على صعوباتها إلا **بالتقنية**. «ومن هنا كانت **المُلَوِّنة**(د) الخاصة، **وطريقة العمل** الخاصة، **والتقنية الخاصة**، بكل رسام. فما هي هذه التقنية؟ إنها فن إزالة مجموعة من أشكال التنافر، وتجنب صعوبات الفن الكبرى»(17). ولقد كانت الفنون بالفعل إلى غاية 1765 تحتل مكانة متوسطة بين العلوم والمهن، فهي مرتبطة بالعلوم من الناحية النظرية (انظر **الخطاب الافتتاحي** لألمبير Alembert) ومرتبطة بالمهن من الناحية الآلية والتقنية.

ويبدو أنه في الوقت الذي تأسس فيه علم الجمال (الاستطيقا) (1752) وتحرر المفهومان الجماليان لكل من (فن) و(علم) من التصورات التحليلية للفنون والعلوم، تم ميلاد لفظ «technique» (= تقنية) الذي لا تخفى أهميته. وقد عانى هذا اللفظ الجديد من صعوبات جمة من أجل فرض نفسه: فقد عانى لمدة طويلة من منافسة لفظَي «mécanique» و«mécanisme» وعملهما. أفلم يكن سبب هذا التأخر راجعا إلى تطور الفن نفسه بعد 1765 أي إلى رد فعل **الجميل المثالي** الذي كان ضد التقنية وكان روحانيا وضد الرومانسية في وقت واحد؟

---

(16) ديدرو : صالون 1765، ج 10، ص. 233.

(17) صالون 1765، ج 10، ص. 167. ويستعمل ديدرو عبارة (sublime du technique) (= سمو التقنية) التي يضعها في مقابل (sublime de l'idéal) (= سمو المثالي) (Salon 1767. T. 14, p. 498) نقلا عن قاموس ليطري. مادة : (sublime). ومن الممكن أن ديدرو قد اعتقد ضرورة تعويض كلمتي (mécanique) (= آلي، آلة) و(mécanisme) (= آلية) اللتين أصبحتا تدلان على عقلية رياضية وديكارتية بكلمة (technique) (= تقنية) التي يرتبط استعمالها بذهنية جديدة تشبعت بالعقل التجريبي والطبيعي واستعملت منهجا عضوانيا.

(د) لوحة صغيرة يضع عليها الرسام ألوانه. (م).

ولأسباب معقدة، ينبغي أن نذكر من بينها اكتشافات هِرْكيلانوم (Herculanume) (1738) وبومبيري (1765)، ترك مفهومُ **الطريقة الخاصة** «la petite manière» الذي كان يطبع الفن الفرنسي، مكانَه لمحاكاة القديم، وظلت الأعمال المعمارية لغابرييل هي نفس الأعمال التي كانت موجودة منذ لويس السادس عشر قبل حالتها النهائية. ولكنه ابتداء من 1765 على الخصوص وقع تحول في الفن: فالاتجاهات الجديدة في الرسم تتأكد بشكل واضح، بفضل دور مراقبي «الفنون الجميلة» في نشر الأفكار الكلاسيكية الجديدة، وأيضا بفضل الأكاديميات التي تنشر تعليما ينحو إلى القديم وإلى تهذيب الأخلاق[18]. وينبغي أن نضيف تأثير وينكلمان الذي ظهر كتابه المسمى: **أفكار حول محاكاة أعمال الاغريق** سنة 1755 وكتابه المسمى: **تاريخ الفن في القديم** سنة 1764. وقد انتشرت أفكار وِينْكِلْمَان الحديثة بسرعة، وما لبثنا أن وجدناها عند ديدرو في (**المدخل إلى صالون 1767**) وبصفة خاصة في نظريات سويزر ونظريات فارس شاسطولوكس (Le chevalier de Chastellux). ولا يسعنا المكان هنا لدراسة قيمة عبارة (le beau idéal = الجميل المثالي) كما تفهم من أعمال وِينْكِلمان والفرنسيين المعجبين به، ولذلك يكفينا أن نشير إلى أن **الجميل المثالي** هو «اختيار لأجزاء جميلة مأخوذة من أفراد متعددين»[19]، والجميل في حالته الخالصة هو الجميل الهادىء.

و«فكرة الجمال السامي لا يمكن أن تولد إلا في أحضان التأمل عندما تنطوي النفس على ذاتها وتبعد عنها كل الصور الفردية»[20].

والفن هو الذي سوف يحقق التفاهم بين **الجمال** (الذي كان مهيمنا على التأليفات القديمة): وبين **التعبير**: «فمن فعل هاتين الصفتين ورد فعلهما، يولد الجميل المؤثر والجميل الذي يثير الاهتمام»[21].

وفنُّ 1785 إلى 1815 يعبر بطريقة دقيقة عن المثال الوِينْكِلْمَاني، وذلك أولا في فن العمارة الذي كتب عنه غيومو (Guillaumot) قائلا: «إنه الفن الذي يتجلى

---

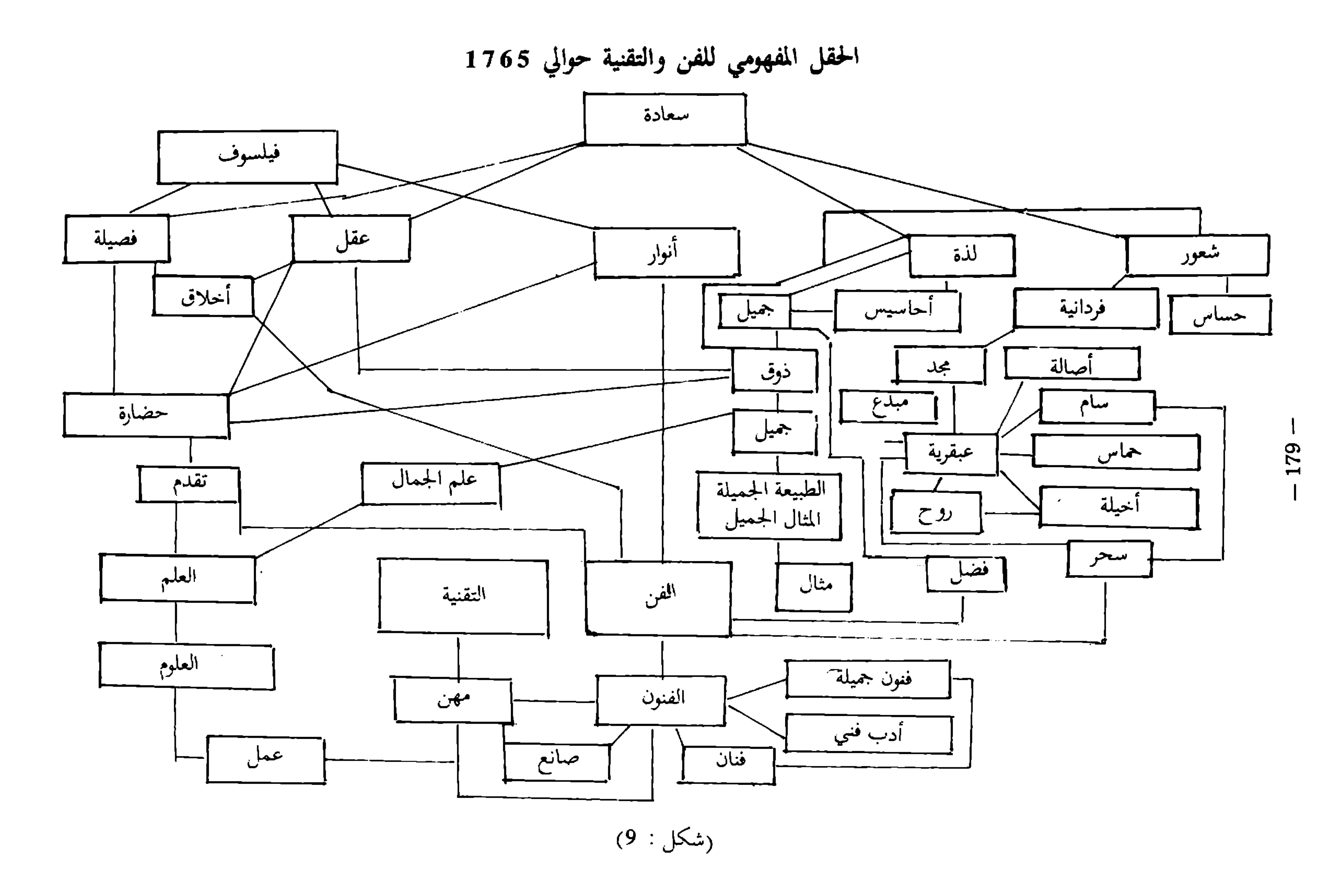
(18) ل. ريان (L. Réan) ضمن : تاريخ الفن لمؤلفه أ. ميشال، ج 17، ص. 486.

(19) **تاريخ الفن**، ترجمة هوبر (Huber)، 1780، ج 2، ص. 41.

(20) نفسه، ص. 92.

(21) نفسه، ج 2، ص. 94.

الحقل المفهومي للفن والتقنية حوالي 1765



(شكل : 9)

فيه الجمال من بين باقي الفنون الأخرى في أكمل صوره المثالية»[22]، ثم بعد ذلك في النحت الذي اختار أن يستمد نماذجه من الأعمال[هـ] التي مهدت لظهور المدرسة الرمزية وقام وِينْكِلْمان بتمجيدها مثل أبولون دي بيلفيدير (Apollon du Belvédère)[و]، وأخيرا في الرسم الذي أصبح على يد **داود**[ز] (David) فنا شبيها بالنحت[23]. ألم يكن وِينْكِلمان يُدين بَريقَ الألوان باسم نبل جوانب الموضوع وحدوده الخارجية؟ والأدب من «**أناكرسيس**» (Anacharsis) (1788) إلى «**الشهداء**» (Martyrs) (1809) يعكس اتجاهات مشابهة، لكن تأثير كل من وِينْكِلْمان والكلاسيكية الجديدة في الأدب والفنون الجميلة تأثير مُتساوٍ: فهنا ذكريات المدرسة الفرنسية للقرن الثامن عشر واللوحات السويسرية والفلامانية لمتحف نابليون، وهناك التجليات الأولى للرومانسية.

2 ـ 1815ـ1823 : كلاسيكية أم رومانسية؟

تستمر جماليات وِينْكِلمان إلى بداية **الإصلاح**، كما يستمر الأسلوب الامبراطوري في الفنون والآداب. ولكن أفكارا جديدة، تنتشر وتكاد تقضي على الجماليات القديمة.

وقد أحس كاطرونيير دي كينسي (Quatrenière de Quincy) بالخطر، فنشر سنتي 1815 و1823 كتابين[24] بهدف النضال ضد الحركة الرومانسية. ويعتقد

---

(22) نقلا عن : أ. ميشال، مرجع مذكور، ج 8، ص. 6

(23) بعد اختفاء الفن العتيق أخذ الرسامون في محاكاة النحت الاغريقي والروماني. ونحن نعلم أن الأعمال المسماة (هوراسات داود) (Les Horaces de David) قد تم رسمها انطلاقا من وجوه جبصية.

(24) وهما :
- اعتبارات أخلاقية حول توجهات المؤلفات الفنية (1815)
- **بحث حول الطبيعة، هدف محاكاة الفنون ووسائلها الجميلة** (1823)

(د) لوحة صغيرة يضع عليها الرسام ألوانه. (م).

(هـ) يُقصد بها اتجاه في الأدب يسمى (المدرسة المنهارة l'école décadente) وهو اتجاه أدبي متشائم مهد للمدرسة الرمزية. ويقال انه ظهر مباشرة بعد أن كتب فيرلين سوينتة (Sonnet) توحي بصور الانهيار الروماني، وتعبر عن النفور من العمل (المترجم).

(و) أبولون (Apollon) هو أجمل الآلهة عند الاغريق، فهو إلـه النهار والشمس. وقد أقيمت له تماثيل عدة في جهات مختلفة، منها تمثال بيلفيدير (Apolton du Belvédère) المذكور (المترجم).

(ز) لوي داود (Louis David) رسام فرنسي مشهور. ولد بباريس وتوفي في بروكسيل (1748ـ1825) وإليه تنسب مدرسة الكلاسيكية الجديدة المسماة «مدرسة داود» (L'école de David) (المترجم).

كاطرونيير، مثله مثل أغلبية معاصريه، أن هدف الفن هو المتعة ولكن متعة الروح لا متعة الحواس: فالفن مفيد إذن[25]، وعلى الفنان من أجل أن يعبر عما هو شامل وعام، أن يحقق ـ كما يدعو لذلك وِينْكِلْمان ـ **الجميل المثالي**، أي أن عليه أن يعمم النموذج المثالي وينقله ويصل إليه[26]. ونفس الأفكار نجدها عند ف. كوزان (V. Cousin) الذي يضع **الجميل الواقعي** الفردي في مقابل **الجميل المثالي**.

كتب كُوزان يقول: «المثالي بالنسبة للجميل وبالنسبة لكل شيء هو نفي الواقع، ونفي الواقع ليس وهما بل هو فكرة، والفكرة هنا هي العام الخالص والمطلق المتحرر من الجزء الفردي»[27].

ورغم هؤلاء الجماليين احتلت الرومانسية الميدان، وبدأت أفكار الجماليات الرومانسية الألمانية في الانتشار، وكان المهاجرون من أمثال فيلرز (Villers) والرحالون أمثال بنيامين كونستان (Benjamin Constant) قد قاموا بدور مهم في الوساطة لها: وهكذا فقد كان كونستان أول من استعمل عبارة (**الفن للفن**) وذلك في صحيفته المسماة (جورنال أنتيم) الصادرة في وِيمار عقب حوار دار بينه وبين أحد تلامذة شيلينج وهو كراب روبنسون. وفي وِيمار التقت مدام دي ستاييل عند بداية 1804 بكل من جوته وشيلر وويلاند وروبنسون.. إلخ. وفي سنة 1817 يذهب كوزان إلى ألمانيا حيث أقام كينيه أيضا إقامة طويلة ابتداء من 1826. فهؤلاء الفرنسيون تعرَّفوا فيما وراء نهر الرَّاين على جماليات جديدة وهي جماليات كانط وشيلينج وهيجل وشيلر التي هي الأصل في التصور الذي نشأ عند الرومانسيين في مرحلة 1827ـ1834. وكان الدرس الذي يلقيه ف. كوزان خلال سنة 1818 بجامعة السوربون حول **الحقيقي والجميل والطيِّب** قد أظهر، بجانب الآراء التي تعود إلى وِينْكِلْمان، أفكارا جد رومانسية. ألم يكن كوزان قد كتب يقول مثلا: «علينا أن نقتنع جدا بالفكرة القائلة إن الفن هو أيضا في حد ذاته نوع من الديانة. إن الإلـٰه يتجلى في فكرة الحق وفكرة الطيب وفكرة الجميل»؟[28].

---

(25) كتبت مدام دي ستاييل (Mme de Staël) : «الجميل حقا هو ما يجعل من الشخص شيئا ممتازا» (De la litt. 1800, éd. de 1838. T. 2, p. 373).

(26) انظر : موستوكسيدي، مرجع سابق، ص. 129

(27) Du beau réel et du beau idéal (1818). in. frag. philos. éd. 1826, p. 248

(28) Du vrai, du beau, du bien, éd. de 1826, p. 299

وقبل دراسة كلمة **الفن** (l'art) ومفهومه عند من يُسمَّون بـ «رومانسيِّي اللون» أمثال هيجو وغوتييه، علينا أن ندرس حالة كاتب كان ناقداً للفن، ورغم ارتباطاته بالرومانسية الأولى للاصلاح، ظل من الزاوية التي تهمنا منعزلا، ألا وهو ستاندال.

وتشتمل مجموعة الأعمال الفنية لستاندال أساسا على كتاب: **تاريخ الرسم في إيطاليا** (1817)[29]، وعدد من كتب الرحلات التي قام بها لكل من روما ونابولي وفلورنسا، وكتاب **مذكرات سائح**.

وقد نظر ستاندال باحتقار إلى المهتمين بالجماليات من الألمانيين أمثال وِينْكِلْمان وليسينج وشليجل، ولم يظهر إلا تعاطفا قليلا تجاه كاطرونيير وكوزان. فهل يعني هذا أنه لم يقتبس أي شيء من الألمان؟ إن هذا غير صحيح بالتأكيد، ولكن يظهر أنه قد تأثر بأصحاب الإيديولوجيات بصفة خاصة ودفعه هذا إلى أن يفكر تفكيرا عميقا في المشاكل التي يطرحها الفن. والفكرة المركزية في جماليات ستاندال هي نسبية الجميل. وكل الناس يعرفون الصفحات التي كتبها ستاندال عن هذا الموضوع في دراسته عن (راسين وشكسبير)، وكذلك في كتابه **تاريخ الفن** نجده يعبر عن نفس الفكرة ويقول: «الجمال في الفنون هو التعبير عن فضائل مجتمع ما» (الفصل 12).

فالجميل إذن ليس سوى المفيد، ولكن «بالاضافة إلى كون الجدّي في الفن المتوحش يُعْجِب لفائدته، فإنه في المجتمع المتحضر يعجب لتملقه. فإذا كان هذا الرأس الجميل له بالنسبة لي كثير من الجوانب الساحرة وهو في عمق جدِّيته، فماذا سيكون عليه الأمر لو تفضَّل وهَشَّ في وجهي؟» (الفصل 83).

أليس الجميل هو «الوعد بالسعادة»[30]؟ و إذا كان الجميل أمرا نسبيا، فالنتيجة هي أن **الجميل المثالي** لا وجود له. وقد استمر ستاندال في استعمال هذه العبارة (عبارة الجميل المثالي) التي تعني عنده: «غامض جدا» (الفصل 30)، ولكنه يقرن بين **الجميل المثالي القديم** (من الإغريق إلى ميشيل أنج الذي يقلد الجمال

---

(29) كتب ديليكلوز (Délécluze) عن هذا الكتاب بأنه «قرآن الرسامين المعروفين بالرومانسيين»

(30) (De l'amour, chap. 17) وهي فكرة سبق أن عبر عنها شيلر : (**رسائل حول التربية الجمالية**. الرسالة 27).

المادي)، **والجميل المثالي الحديث**، ويقول: «العبارة التي لها طبيعة أخلاقية هي التي تطبع الجميل المثالي الحديث بطابعها». وهذا الأخير يتألف من الحيوية والرقة واللطف (الفصل 119) وخاصة الأناقة (الفصل 127). والجميل المثالي يتعلق أمره بالطباع (الفصل 83) وتوجد منه أنواع كثيرة، لكل بيئة نوع على الأقل. بل يمكن أن نذهب إلى حد القول بوجود واحد لكل فنان. وبعد ديبوس وديدرو أصبح ستاندال بدوره يعطي مكانة مهمة للتعبير.

«التعبير هو الفن كله، ولوحة من غير تعبير ليست سوى صورة تداعب الأعين لحظة معينة. وعلى الرسامين بلا شك أن يمتلكوا رَوْنق الألوان، أن يمتلكوا الرسم والرؤية .. إلخ. ولكن إذا توقف المرء عند حدود إحدى هذه الكمالات الثانوية واتخذ واسطة بينه وبين الوصول إلى الهدف، فذلك معناه أنه يضيع مستقبله الفني» (الفصل 20).

إن كلمة «expression» (= تعبير) هي بالتأكيد **الكلمة ـ المفتاح** في جماليات ستاندال. وهو يستعملها في الحديث عن وجه الانسان أكثر من كلمة «caractère» (= خاصية، طبيعة)، ويستعمل كلمة «Physionomie» (= ملامح، هيئة) للحديث عن الجسم الانساني خاصة كأن يقول مثلا «Physionomie de détails» (ملامح تفصيلية) (الفصل 45) وأن يقول: «la physionomie des muscles» (= هيئة العَضَلات) (الفصل 87). ولم يكن ستاندال يستعمل مفردات ذات تقنية دقيقة[31]، ولعل سبب ذلك أنه لم يتردد قط على معامل الرسامين، وأن مصادره كانت من الكتب خاصة، وكلها ترجع إلى القرن الثامن عشر، ولذلك نجده يفضل ـ عوض كلمة «technique» (= تقني) ـ أن يستعمل النعتين «matériel» (= مادي) أو «mécanique» (= آلي) والاسم «mécanisme» (= آلية)[32]، ويستعمل باستمرار كلمة «beaux-arts» (= فنون جميلة). وتعبر مفرداته، خاصة النفسية منها (مثل: formes hardis: أشكال جريئة، وgrandioses = فخمة، وvoluptueuses = مثيرة،

---

(31) ألفاظ الألوان نادرة في نقده للفن، وليست لها أي طبيعة تقنية.

(32) وهذا مثال على ذلك حين يقول: «L'art redevient un pur et simple mécanisme, comme chez les ouvriers égyptiens. Les nôtres pourraient se sauver par le coloris» (Hist. peint, ch. 133) = يصبح الفن مجرد آلية بسيطة، وكما هو الأمر عند **العمال** المصريين، يستطيع عمالنا أن يختبئوا وراء ألق الألوان).
=

و élégantes = أنيقة) عن المشاعر بصفة خاصة وليس عن الأفكار: **الفن يثير الروح الحساسة، والخيال الناعم الذي يحس بالجمال والسمو**[33]، **ويعيد الإحساس باللذات** حتى يصل هذا الإحساس إلى درجة التمجيد والانتشاء: إن إحساس الشخص الذي له موهبة الخيال هو قبل كل شيء حركة من حركات الروح أكثر منها حركة من حركات الحواس، ولذلك ينظر ستاندال بالفعل إلى عناصر العمل الفني على أنها عناصر أخلاقية أكثر من كونها عناصر مادية، ونراه، على عكس وِينْكِلْمَان وكوزان، لا يتذوق الرسم كثيرا ويفضل عليه اللون، وخاصة اللونين الفاتح والقاتم لما لهما من قدرة على التعبير، هذا التعبير الذي إذا أردنا ترجمته علينا «أن نجعل المحاكاة أكثر وضوحا وجلاء من الطبيعة بعد حذف التفاصيل» (الفصل 30). وهذا ما سوف تسميه **رومانسية اللون** بالبحث عن الخاصية، أما التفاصيل التي سوف تبقى فينبغي أن تكون تفاصيل محببة[34]. ويستعمل ستاندال أخيرا المفردات الكلاسيكية (مثل: الفنون الجميلة، الجميل المثالي...) التي تعود إلى جماليّي القرن الثامن عشر مع إعطائها محتوى رومانسيا خالصا.

3 ـ 1824ـ1834

سجل الفن الداودي (l'art davidien) انتصار جماليات النحت والرسم في فرنسا، ولكن الفن الحقيقي لم يكن قد مات على كل حال: فأعماله من طراز (**موبوؤويافا**) (Pestiférés de Jaffa) في 1804، وطراز (**عَامَة المِيدُوزا**) (le Radeau de la Méduse) في 1819، تدل على ذلك بشكل واضح. ولكن يبقى أن التاريخ الأساسي هو التاريخ الذي سجله صالون 1824 ووقعت فيه المواجهة لأول مرة بين

= فقد استعمل هنا كلمة (ouvrier = عامل) بمعنى فنّان. وقد أظهر ستاندال احتقارا دائما للآلية، ولم يكن يتذوق في العمل الفني إلا العنصر الأخلاقي خاصة والمتعة الناعمة السامية التي تمنحها موسيقى موزار ولوحات كوريج (Prom. dans. R. 11, p. 215) ويفضل عمل كروس المسمى (**موبوؤو يافا**) الذي لا هدف من وراء قبح المشهد فيه سوى الإعجاب ببطولة بونابرت، على عمل دولاكروا المسمى (**مذابح سئُو**).

(33) «وأنا غارق في تأمل الجمال في سموه.. أكاد أقول إني لامسته. كنت قد وصلت إلى هذه النقطة من التأثر حيث تتلاقى المشاعر السماوية التي تهبها الفنون الجميلة والمشاعر المشبوبة بالعاطفة» (Rome. N. et Flor., éd. du Divan. T. 2, p. 94).

(34) «هذا هو الفن الشغوف بالتفاصيل، وانتصار الأرواح السامية» (**تاريخ الرسم**، الفصل 34) وانظر الفصل 82: «لنقفز على كل هذه التفاصيل السيئة التي يمكنها أن تحجب جانبا من الانتباه، وبهذا أستطيع أن أعطي الوجوه التي أراها كثيرا من الخصائص التعبيرية»

أنْجر (ingres) ودولاكروا، وفيه قام الرسامون الأنجليز من أمثال كونسطابل وبونينطون (Bonington) بفرض أنفسهم.

لقد تأكد انتصار الرسم الرومانسي بشكل سريع، وسوف تتجلى جماليات الرسم في فنون أخرى وخاصة الفنون الأدبية[35]. ومن الناحية التاريخية كان دولاكروا ودولاروش وإ. ديفيريا أسبق من هيجو وبلزاك وغوتييه الذين جعلوا من أنفسهم، في كثير من الحالات، تلامذة لهذا الجيل السابق لهم من رسامي 1824[36].

إن الشهرة التي نالتها كلمة «couleur» (= لون) في اللغة الدارجة وخاصة في لهجة المجتمع المدني، لها دلالتها. وكان جوي (Jouy) سباقا إلى الإشارة لهذه الموضة سنة 1817 في (هرميت دو لاغيان) (Hermite de la guiane)[37] كما لاحظ بلزاك أن الجمهور يريد اللون[38]. وسوف يذهب الكتاب إلى الإسراف في استعمال ما أصبح يطلق عليه حوالي 1835 اسم **اللون المحلي**[39]. وإن دخول كلمات من مثل «dépaysement» (= تهجير) و«orientalisme» (= استشراق) اللتين لوحظتا سنة 1842 وبالرغم من وجودهما قبل ذلك بكل تأكيد، لهو دليل على وجود ذوق موحد

---

(35) انظر: (Matoré, introduction à la préface de Melle de Maupin) (= ماطوري: **مدخل إلى مقدمة الآنسة دي موبان**) (éd. Droz. p. 34).

(36) كتب بلزاك يقول: «في الأدب نجد الصورة والفكرة تقابلان ما نسميه في فن الرسم بالرسم واللون» (Etude sur M. Bepte. Œuv. div. éd. Conard. III, p. 372)
وقد زادت الروابط الموجودة بين الرسم والأدب إحكاما حوالي 1831. وكتب صحافي في جريدة الفيغارو (30 غشت 1831) يقول: «ولدت قصة **جون فرانس** في اليوم الذي ارتبط فيه فن الرسم بالأدب الرومانسي». وهذا ما نجد غوتييه يؤكده في **تاريخ الرومانسية** (ط. فلاماريون، ص. 16) حين قال: «إن هذا التدخل الذي يقوم به الفن في الشعر كان وسيظل أحد الدلالات البارزة للمدرسة الجديدة، وهو ما يفسر السبب الذي من أجله يحسب هؤلاء المريدون الأولون على الرسامين أكثر مما يحسبون على رجال الأدب».

(37) ج 3، ص. 224. وقد لاحظ جوي من قبل أنه في سنة 1814 كان يمكن لمثل هذه العبارات التالية: (أسلوب لا لون له ـــ رسم غير صحيح ـــ غياب الفروق الدقيقة والاختلافات ـــ ..) أن تقال أيضا في مجال نقد قصيدة شعرية أو لوحة فنية أو قطعة موسيقية على حد سواء (.Herm. Chaussée d'Antin (II, p. 129.

(38) De la mode en litté. Œuv. div. II, p. 39 (**من الموضة في الأدب**).

(39) كانت عبارة (اللون المحلي = Couleur locale) في البداية اصطلاحا خاصا بالرسم (انظر: برينو. **تاريخ اللسان الفرنسي**، ج 6، ص. 738. وانظر أيضا: ماطوري: **المفردات والمجمع في عهد لوي فيليب**، الفصل 3). وتوجد العبارة بمعنى قدحي في (**مقدمة كرومويل**: .La préface de Cromwelle, éd (Définit, p. 49.

في مجال الرسم. وعلينا أن نشير أيضا إلى أن بعض الكلمات التي كانت من قبل تنتمي للغة الرسامين فقط، قد أصبحت منتشرة في اللغة المشتركة مثل «zapin» (= رسام فاشل) و«croquade» (= رسم أولي سريع) و«pachade» (= رسم مخطط) و«sépia» (= رسم بحبْر السِّيدج)(40).

ولكن الرسم حتى الرومانسي منه، ليس لونا فقط، إنه خط أيضا، وملامح جانبية، وانحناءة متناسقة (galbe) كما كان يقال في 1830: فكلمة «galbe» التي لاحظ بلزاك(41) أنها كانت من كلمات الموضة، أصبحت من العناصر الأكثر دلالة في مفردات (جون فرانس)(42).

وأخيرا، إذا لم يكن تأثير فن الرسم هو الذي أدخل ـ فيما يبدو لنا ـ إلى مفردات الفن مفهوما على قدر كبير من الأهمية،وهو مفهوم الخاصية (caractère)(43)، فإن الذي قام بذلك هو تأثير الفنون التشكيلية على الأقل.

وهذا المفهوم نجده ضمنيا عند ستاندال، ولكن آخرين ممن يذكرونه بوضوح يعطونه قيمة كبيرة لا تُضاهَى. وقد كتب هيجو في **مقدمة كرومويل** (44): «إذا كان على الشاعر أن يختار من بين الأشياء شيئا ـ وعليه أن يفعل ذلك ـ فليس عليه أن يختار الجميل ولكن **الخاصية** والصفة المميزة». وبالفعل، ينبغي على الدراما التي هي التعبير عن الأدب المعاصر، أن تقوم باتهام الملامح الخاصة وأن تكون هي: «المرآة التي تركّز الخيوط الملونة فتجمعها وتكثفها ولا تعمل على إضعافها»(45). وفي مقالة نشرت بعدد 29 مايو 1833 من (لوروب ليطيرير = l'Europe littéraire) نجد هيجو يضع كلمة «caractère» (خاصية) الموروثة عن الأساليب القوطية، في مكان كلمة «style» (= أسلوب) الموروثة عن الفن الإغريقي. وقد حبذ هيجو ـ كما نعلم ـ من أجل التعبير عن هذه الخاصية التي تبدو له عنصراً أساسيا من عناصر الفن،

---

(40) غريماس: **بعض انعكاسات**... (Quelques reflets... p. 31).

(41) **كلمات في الموضة** (Mots à la mode). Œuv. div. T. 2, p. 49

(42) ماطوري: مرجع سابق. (انظر فهرس ألفاظ الكتاب).

(43) (غريماس: **بعض انعكاسات**. ص. 35)، وهو يذكر بعض صحف الموضة لسنة 1823 و1825. فالكلمة كانت إذن من كلمات الموضة.

(44) (ط. ديفيني، ص. 49) وهي بتوقيع هيجو.

(45) **مقدمة كروموبل**، ص. 48.

استعمال كلمة «grotesque» (= مثير للضحك والسخرية) التي توضع بمقتضى ثنائية أساسية، في مقابل كلمة «sublime» (= سام، جليل، مهيب)، تماما كما يقع التقابل بين الله والخَلْق، وبين الخير والشر... الخ.

ويقول: «بما أن الشعر الحقيقي، والشعر المكتمل هو الذي يوجد في تناسق المتضادات، فإن كل ما هو موجود في الطبيعة موجود في الفن»[46].

وسوف يعيش هذا الذي يثير الضحك والسخرية حياة مستقلة في أعمال ت. غوتييه الذي رأى فيه دافعا يكمن وراء الجميل[47]. فالشعر الحقيقي ــ سواء أكان شعرا مثيرا للسخرية أم شعرا بَشِعاً ــ تصدق عليه تماما تلك العبارة التي كانت شائعة ما بين 1830 و1835 وهي: «يوجد شعر ها هنا» (il y a de la poésie là-dessous)[48].

وقد استعمل أبطال **(جون فرانس)** (Jeunes-France) كلمة «Physionomie» (= ملامح، سيماء) غالبا بمعنى قريب من معنى كلمة «caractère» (= خاصية، طبع). قال أحد أبطال غوتييه: «التفاصيل هي كل شيء... على أن ذلك يعد من من قبيل اللون المحلي. وهذا اللون المحلي هو الذي يعطي سيماء الوجه وملامحه»[49]. وغوتييه نفسه سوف يؤكد أن الأمر لا يتعلق «في الفن بإعادة إنتاج الطبيعة ولكن بمحاكاة مظاهرها وملامحها، فكل الفن موجود هنا»[50]. إن البحث عن **الخاصية** ينبغي أن يقود إلى تبني **النموذج**: فبينما يحاول الدانديون (les dandys) أن يبحثوا لأنفسهم عن طريقة ونموذج[51]، سيعمل الكتاب على تركيب الحقائق المعقدة التي ينبغي وصفها اعتمادا على نماذج رمزية. أما كوزان فكان يرى أن «كل شيء في الفن

---

(46) نفسه، ص. 31. وقد أدان لامونيه (Lamenais) بشدة نظرية المثير للسخرية. واقرأ نص 1843 الذي استشهد به لوهير وهو بعنوان: (لامونيه كاتبا)، ص. 9. واقرأ حول تاريخ كلمة (grotesque): **G. Matoré**, Grotesque, in. études romanes dédiées à M. Roques, p. 217).

(47) انظر الهامش السابق.

(48) بلزاك: **كلمات في الموضة** (Mots à la mode, Œuv. div.: 2/36).

(49) انظر: (Jeunes-France)، ص. 12. وانظر أيضا بلزاك في (Bal. de sceau. éd. Mauz, p. 151) ولكن بلزاك يستعمل في العموم الكلمة بمعنى (الشعور في علاقته بالخصائص) انظر: (La Mode. 16 Avril 1830. in. œuvres. div. T. 1, p. 17)

(50) نقلا عن سانت بوف في: (Nouv. lundis. 2, p. 322) وانظر: ج. ماطوري في: (**مفردات**...) ج2 الفصل 2

(51) غريماس: **بعض انعكاسات** (Quelques reflets. p. 35).

رمز»، وأما الرومانسية فقد كشفت الأسطورة. (تعود كلمة mythe [= أسطورة] إلى 1818).

لقد استعملت الرومانسية الأولى كلمة «nature» (= طبيعة) وأفرطت في ذلك إخلاصا منها لأصولها الطبيعية التي كان قد أشار اليها البارون سيير (Seillère)، وهو ما لاحظه أيضا جوي سنة 1817. ولكنه منذ 1817 أصبحت الطبيعة متعلقة بالفن.

كتب ديجليني (Dégleny) يقول: «إن الطبيعة اليوم كئيبة مهملة. وكانت معامل الرسامين هي التي عملت على نشر عبارة (إنه طبيعي) «c'est naturel» وتلك هي العبارة التي كان على الفنانين أن يقولوها وهم أمام بعض الأعمال التي حاولت أن تجيد تقليد آثار وجمال الطبيعة. وظلت الكلمة ملكا للموضة التي لم تدع موضوعا من الموضوعات إلا واستعملتها فيه» (Nouv. Table. de Paris, 1834, T. 4, p. 307).

ويضاف إلى تأثير جماليات الرسم تأثير الجماليات النظرية عند الألمان. ولا يسعنا المكان لإظهار العلاقات الموجودة بين تصورات شخص مثل هيجو أو غوتييه حول الفن وتصورات شيلر، خاصة في كتابه (**رسائل حول التربية الجمالية للانسان**) وكتابه (**الفنانون**)[52]. وابتداء من 1825 تقريبا صار الجناح الفعَّال من الرومانسيين الفرنسيين ـ مثل الألمان ـ يتحدث عن القيمة الرفيعة لكل من الشاعر والفنان[53].

وبعد شاطوبريان الذي كان يقول إن الشاعر هو مختار الله، جاء هيجو ليعلن عن ذلك بقوله:

«الشعراءُ العظامُ رؤوسٌ بَارَكَها الإلـٰـه
تـمد إلينا أشعةَ نُورِ جباهها المُلْهَمَة»[54].

---

(52) وعلينا أن نشير أيضا إلى رسالتيه اللتين كتبهما لكورنر (Corner) في 25 دجنبر 1788 و30 مارس 1789 وفيهما يقدم شيلر العمل الفني الذي يعكس العالم على أنه كل في نفسه وكائن مستقل لا يخضع إلا لقانونه الخاص. فالجمال مستقل بنفسه عما له من فائدة وأخلاقيات.

(53) استطاعت أفكار سان سيمون كما لاحظ ذلك إيجلي (Eggli) (انظر: Schiller et le Romant. Franc. T. 2, p. 224) أن تسهم في قبول النظرية الجديدة.

(54) (**أصوات داخلية**.1.) الفن طريق للمعرفة مثله مثل الدين وذلك عكس كلاسيكي 1827ـ1834 الذين رأوا أن الفن متعة.

إن الشاعر الذي يستحق هذا الاسم ليس شخصا مسلّيا، وإبداعُهُ الذي ألهمه الله إياه هو فلسفة وفكر. وقد نعت هيجو في (**الأصوات الداخلية**) الشاعر بأنه **مفكر**[55]، وهو **شخص محترم، وعبقري**[56]، **وراع للأرواح، وفنان ينشر التمدن**[57]. وفي الحقيقة ليس الفنان مجرد ذلك الشخص الذي يختاره الله ويصطفيه[58]، فالعمل الفني يسعى لتجاوز الجميل، الجميل في مرحلته البشرية، وتحقيق مجموع صفةٍ «لا تطابق الانسان وحده ولكن تطابق الإبداع في كليته»[59]. وهكذا سوف يقوم قصاص مثل بلزاك بمنافسة الحالة المدنية، وأما الشاعر والرسام المتواضعان فسيعملان على منافسة الخالق المبدع.

والفن هو خلاصة[60] وتركيب لأنشطة جد مختلفة لا جامع بينها سوى الموهبة **الخلّاقة**.

«إن الأشياء القائمة على الذكاء كلها ذات قيمة متساوية، ولذلك فنابوليون هو أيضا شاعر كبير مثله مثل هوميروس»[61].

سوف تفقد كلمة «artiste» (= فنان) إذن قيمتها الجمالية لتصبح على ألسنة الكتّاب والرسامين وأقلامهم مرادفة لكلمة «créateur» (= مبدع).

وقد كتب بلزاك يقول: «الفنان يتحكم في قرون بكاملها... وهكذا فكل من جوتمبرغ وكولمب وشوارتز وديكارت ورفائيل وفولتير وداود، كانوا فنانين لأنهم كانوا يبدعون»[62].

وهذا أيضا ما عبر عنه فيليكس بْياط[63] بكلمات قريبة مما سبق حين قال:

---

(55) نفسه، 1. وفي نفس الديوان انظر: (Sunt. Lacrymae rerum)

(56) Feuilles d'aut. préface (= **أوراق الخريف**. مقدمة)

(57) Les rayons et les ombres. préf. (=**الأشعة والظلال**. مقدمة)

(58) «الفنان هو المبشر ببعض الحقائق واللسان الذي يعبر به الإله» (**Balzac**, Des artistes, la silhouette. 22 Avril. 1830. in œuv. diver. T. 1, p. 357).

(59) **مقدمة كرومويل**، ط. ديفيني، ص. 23

(60) **Balzac**, Des artistes, I, p. 356

(61) نفسه، 354/1

(62) نفسه، 351/1

(63) Les artistes, Nouv. Tableau de Paris. 1834. T. 4, p. 7

«إذا كان الإلٰـه فنانا، فالفنانُ إلٰـه لأن الفن هو الحياة. وهو بعث للحياة، وهو الإبداع. واسم الفنان لا ينطبق فقط على الشعراء والرسامين والنحاتين والموسيقيين والمعماريين والمسرحيين ورَبَلات ساقَيْ الراقصة، بل ينطبق أيضا على كل من له عبقرية خلاقة. أليس الطبيب بروسيه (Broussais) فنانا كبيرا وهو الذي اخترع علم إحيائه العجيب؟».

وقد داعب التصور الذي كانت تترجمه كلمة «artiste» (= فنان) غرور عدد كبير من الناس. فما لبث أن ذاع وانتشر. ولأسباب لا تبدو لنا واضحة، «أخذت كلمة «artiste» من مفردات الثورة الفرنسية ما منحها توسعا في المعنى مثيرا للدهشة»[64]. وقد أتى كل من ميرسيه (Mercier) في كتابه (التوليد) (la néologie)[65] سنة 1801، ودانطيل (Dhantel) في قاموسه المسمى (**قاموس اللغة المُنحرفة**) (Dictionnaire du bas-langage) سنة 1808، على ذكر أمثلة شاهدة على شهرة هذه الكلمة التي قال عنها جوي سنة 1814 إنه «وقع الإفراط في استعمالها بشكل غريب»[66]. وقد اتضحت هذه الخطوة على الخصوص بعد إحداث الكلمة المركبة منها وهي «artistique» (= فنّي) التي لوحظ ظهورها سنة 1820 وربما وجدت قبل ذلك التاريخ.

ويزداد نجاح كلمات (art. artiste, artistique) أيضا في سنة 1830: فمن المستحيل أن نذكر هنا عدد المقالات التي خصصت لكلمة[67] «artiste» في الصحف والمؤلفات الجماعية. وقد حاول بلزاك أن يضع لها تعريفا عدة مرات، وفي (**مُلْهمة الإقليم**) (La muse du département)[68] نجده يحاول أن يظهر لنا بطولتها في مجالات «الفن والشعر والرسم والنثر والتماثيل والأثاث والأوبرا»، كما أن ف. بْياط نفسه نجده سنة 1834 يسجل لنا الشهرة العجيبة للكلمة فيقول: «إن الطاغية الذي

---

(64) Nouv. Tabl. de Paris, T. 2, p. 86

(65) يقول: «فنان راقص، فنان مسرحي، فنان الكمان، وكدنا نستعمل أيضا: الفنان مونتسيكيو، والفنان بيغون، ولكن سلطة كلمة (artiste) قد انتهت منذ الدعوى التي أقامتها فرقة (فناني أروقة لا فليش) ضد فرقة (فناني أروقة مانس).

(66) Herme, Ch. d'Antin. T. 2, p. 116. De la mode en litté., ibid. T. 2, p. 39

(67) **الفنانون**، أعمال مختلفة. ج 1، ص. 251 ـ **بحث في الحياة الأنيقة** (Traite de la vie élégante) ج 2، ص. 152.

(68) **الكوميديا الإنسانية**: ط. بليلاد، ج 4، ص. 64.

يستبد اليوم هو كلمة «artiste». فليس هنالك من مَلِكٍ شرعي له مثل هذا العدد من الرعايا، ولا عاهرة كان لها أكثر من هؤلاء المتوددين. إنها فينوس القواميس... كأن الفن طقس من الطقوس وديانة جديدة جاءت في وقت مناسب جدا حين غادر الآلهة والملوك أيضا. والمال نفسه الذي هو سلطة عصرنا، مضطر ليعترف بسلطة أخرى منافسة»(69).

الفن في كل مكان.

و«بَدَل الفنون الجميلة التي كنا نعرفها جميعا باسمها العائلي أو باسمها الخاص، أصبح ــ اليوم ــ عندنا **الفن**... إن الفن هو المسألة التي يجري الحديث عنها في كل شِعرية جديدة، وفي القصص الخاصة، وفي المقدمات ــ مقدمات الكتب ــ التي لا تقرأ. إنه الفن الذي لم يعد يسمح إلا بالتثاؤب أمام مسرحيات المدرسة الجديدة... وأخيرا، لقد وجد من جراء ذلك مَنْ أخذهم فجأة ولع احتقار رفيع لأشياء هذه الدنيا، فتساءلوا جادين: ألا يجدر بالمناسبة أن يكون هنالك فن من أجل الفن؟»(70).

لقد أصبح لكلمتي (فن) و(فنّان) عند من يسمون بـ «شبان فرنسا» (les Jeunes-France) قيمة شبه خفية. ففي قصة غوتييه يقوم شاب رومانسي بإطلاع زميله في الطفولة (دانييل جوفارد) على أسرار مهنة الفنان:

«علّمه وسائل تملُّك الأسلوب، ومعرفة الخاصية، وأوحى إليه المعنى الخاص للأرغة المستعملة خلال هذا الأسبوع، وقال له ماذا كانت تعنيه كلمات: «ficelle, chic, art, galbe, artiste, artistique»(ح)(71).

أن يكون المرء فنانا فذلك ما كان يعني بالنسبة لكثير من الشباب أمثال جورج ساند وغوتييه حوالي 1830-1834:

1) أن يكون له مثال يتعلق به (تصورٌ رفيع للفن والحب) وتذوق للغرابة، وحنين إلى ماض ساحر.

(69) **الفنانون**، ضمن: لوحة باريس الجديدة (1834)، ج 4، ص. 4.

(70) ديجليني (Dégleny): **لغة في الموضة** (Langage à la mode, T. 4, p. 308)

(71) **جون ــ فرانس**، ص. 871.

(ح) وهي على التوالي: حيلة أو أسلوب ــ أنيق ولطيف ــ انحناءة متناسقة ــ فنان ــ فني (م).

2) أن يمارس مبدئيا نشاطا جماليا، كأن يكون رساما أو نحاتا أو موسيقيا أو شاعرا. على أن هذا الشرط ليس ضروريا، فما يجب أن يكون عليه الفنان قبل كل شيء هو:

3) أن يعيش حياة بوهيمية، وأن يكون له سلوك مخالف للسلوك البورجوازي: احتقار المال والمعتقدات والعادات التي يفرضها المجتمع (الزواج مثلا)، وارتداء الملابس بكيفية غريبة، واستعمال لغة خاصة، وجعل مدينة باريس بالضرورة إطاراً لهذا الوجود الفنان.

وقد كان كل الناس، من بين الرومانسيين، متفقين على إعطاء (**الفن**) قيمة عالية، وإنما بدأوا يختلفون في الرأي، حينما حاولوا أن يضعوا محتوى محددا لهذا اللفظ الذي انتشر بشكل مفرط وأصبح معناه عند العامة وعند الفنانين أيضا غامضا جدا.

وحوالي 1832ـ1834 كانت هنالك وضعيتان (وما كنا نستطيع أن نقول إذ ذاك: نظريتين) متعارضتان في مجال الجماليات وهما: **الفن النفعي، والفن من أجل الفن**.

وابتداء من 1825 وخاصة بعد 1830، أصبحنا نلمس وجود اهتمام كبير بالنظريات الاجتماعية مع ما نعلمه من الحظوة التي نالتها الأنظمة والطوبويّات في هذا العصر. وأصبح مشكل التقدم، أو ما كان يسمى وقتئذ بمشكل التقدمية[72]، يطرح على كل أولئك الذين ينظرون ــ وما أكثرهم ــ إلى مستقبل المجتمع بشيء من القلق. لكن إذا كان دور المجتمع بالأساس هو تحقيق التقدم، فهل سوف يرفض الفن أن يتعاون مع هذا العمل المقدس؟ وهل سيرفض أن يكافح ضد الظلم الاجتماعي؟ وقد اتهم أتباع سان سيمون وأوائل الاشتراكيين، المدرسة الأدبية الجديدة بكونها تتيه في قضايا الشكل وتهمل تربية الطبقات الشعبية، وبذلوا جهدهم لدفع شيوخ الرومانسيين إلى اعتناق مذهب الفن النفعي، والكثير منهم ــ كما نعلم ــ قد استجاب لهذا النداء، ومن بينهم ينبغي أن نذكر هيجو[73] الذي تبنى من غير أن يتخلى عن تصوره الصوفي للشاعر المختار، ومن دون أن يقطع الصلة بالقسم الأكبر من جماعاته

(72) دخلت كلمة (progressivité) (= تقدمية) إلى الفرنسية حوالي 1750 ولكنها أصبحت في 1830 من كلمات الموضة.

(73) انظر: **مقدمة الأدب والفلسفة** L'introd. de litt. et philos. mélées (1833)
ومقدمة أنجيلو (La préface d'Angelo, 1833)

التي كانت تنتمي إلى ما يمكن تسميته باليسار الرومانسي، وضعيةً أصبحت شيئا فشيئا في صالح التقدم الاجتماعي. وقد كانت لـ (النادي الصغير) (le petit cénacle) الذي قام فيه الرسامون بدور هام، ردةُ فعلٍ، كما نهض غوتييه في (**مقدمة الآنسة دي مُوبَّان**) دون أن يستعمل عبارة الفن للفنِّ، ليؤكد أن الفن لَعِبٌ وثراء وليس له غاية في نفسه(74).

وكما لاحظنا من قبل، فإن الفن لم يكن منعزلا عن باقي ظواهر حياة العصر، ولم يكن الإجراء المعقد الذي أدى إلى مراجعة مفهوم (الفن) ليسلم من الانعكاسات التي كانت كثيرة بالطبع في المجالات المجاورة. ونحن لحد الآن لم ندرس سوى الأسباب التي لها أصل جمالي، ولم تكن الأسباب الأخرى، غير الظاهرة، أقل عمقا من ذلك.

وهي قبل كل شيء أسباب اجتماعية. فالبورجوازية التي أصبحت أكثر طموحا وتكالبا على الربح من الطبقة الأرستقراطية، صارت في عهد الإصلاح تحصل كل يوم على سلطة اقتصادية جديدة. وكثير من البورجوازيين الذي أصبحوا من الأغنياء الجدد(75) هم من أصل متواضع: فخشونتهم وقلة أناقتهم والثغرات الموجودة في ثقافتهم كانت تستدعي السخرية منهم في مختلف الأوساط المدنية وليس بين الفنانين فقط. ولكن الفنانين كانوا أكثر عداء لهم، وكان لفظ «البورجوازي» على ألسنتهم يعبر عن قمة الاحتقار كما يقول ف. بياط. إنهم «يسمون بورجوازيا كل من ليس له حق المواطنة مثلهم في ذلك مثل الرومانيين في إطلاقهم كلمة «البرابر»(76). والبورجوازي في نظر الفنان الذي يفضل استعمال ملابس غريبة الشكل، هو قبل كل شيء ذلك الشخص الذي يرتدي ثيابا تفتقر إلى الأصالة: «منذ زمن طويل وأنا أقول فنا دون أن أبتلع ريقي، وأسمي بورجوازيين كل أولئك الذين لهم ياقة قميص». هكذا قال غوتييه

---

(74) انظر: ماطوري: **مقدمة الآنسة دي موبان**، ص. 33، وفي أعمال مثل (الآنسة دي موبان) و(ماكس دي لوجوقي) لا تعتبر الطبيعة والأشخاص إلا بمثابة مشاهد: «عندما أكون قرب امرأة ... غالبا ما أتوقف وسط هذا الشعور بالمتعة من أجل أن أؤطره داخل كتاب... أنا لست طيبا، ولا محسنا، ولا مجرما، بل أنا فنان... العالم كله موضوع أمامي، وأنا في الحياة كأني أمام مشهد» (E. Legouvé. Max 112)

(75) غريماس: **بعض انعكاسات**، ص. 17، وهو يستشهد بـ (لادي بليسينطون Lady Blessington) ويذكر عبارة بلزاك «ديموقراطية الأغنياء».

(76) **لوحة باريس الجديدة** (Nouv. T. de P.) 4، ص. 9. وحول المفردات القدحية التي استعملها الفنانون في نعت البورجوازيين (مثل: rococo = قديم، بال – fossile = متحجر – Perruque = رجعي... إلخ) انظر: ماطوري: (**مفردات**...) 1. الفصل 3. وغريماس في المرجع السابق، ص. 2.

في مقدمة (**جون فرانس**). فالفنانون يعطون بالفعل أهمية للأناقة واللطافة والموضة[77]. وللرومانسية جانب يتعلق بالأزياء كان أ. ج. غريماس قد لاحظه في أطروحته المرموقة حول الموضة سنة 1830 حيث يذكر صحف الموضة في 1824-1825 التي تبيِّن لنا الرومانسي وهو يقوم في عربة لاندو أنيقة بعرض زينته[78] المختلفة الألوان. ويشير غريماس إلى عدد الألبسة الثانوية، مثل القبعة وربْطة العنق بالإضافة إلى تَقْطيعة الشعر، التي أصبحت لها أسماء تتحلى هي الأخرى بنعت «الرومانسي». وفي إحدى قصص غوتييه (ص 88) نجد شاباً فرنسيا يرتدي «ثيابا كاملة على آخر ذوق رومانسي».

والفنان يمكن أن يكون فيه جانب يتعلق بالألبسة. فالداندي[79] لا يوجد إلا بواسطة الموضة ومن أجل الموضة. والموضة تقوم بدور سهم في المجتمع منذ 1815. وقد علَّل بلزاك سبب ذلك بأن قال:

«حين يتمتع كل من الابنُ الطبيعي لصاحب حمَّام ثريّ ورجلٍ صاحبِ مواهب بنفس الحقوق التي يتمتع بها ابنُ مستخدَمٍ بسيط، لا يبقى إذ ذاك ما يميز بعضنا عن بعض إلا ما نملكه من قيمة ذاتية. إذن، لقد اختفت الفروق في مجتمعنا، ولم تعد هنالك سوى اختلافات جد ضئيلة»[80].

بالفعل، إن الداندية (le dandysme) هي نتيجة التفرقة والاختلاف[81]. وكلمة «démodé» (= بالٍ، متجاوز في الاستعمال) التي ظهرت سنة 1827 ـ أي في لحظة محددة كانت الداندية خلالها قد انتشرت بفرنسا، وهي نفس السنة التي كتب

---

(77) **جون ـ فرانس**، ص. 73.

(78) **بعض انعكاسات**، أطروحة تكميلية، ص. 36
كلمة (déclassement) (= تخفيض رتبة) كما في عبارة (déclassement général de la société) = انخفاض عام في مستوى المجتمع، توجد عند ش. دي برنارد في (Ailes d'Icare) (= **أجنحة إيكار**)، ص. 65 سنة 1840. وينبغي أن يكون وجودها سابقا لهذا التاريخ. وعند كثير من الفنانين مثل جورج ساند يعتبر الفن نمطا وأسلوبا في الحياة أكثر منه مهنة. (انظر: L'Hôpital, la nation d'artiste, chez G. Sand, pp. 67-72).

(79) انظر حول الداندي والداندية: أ. غريماس، المرجع السابق.

(80) **بحث في الحياة الأنيقة** (ص 161) ج2. (Traité de la vie élégante, œuvres diverses)

(81) كلمة (distinguer) (= فرق، ميز) و(distinction) (= التفرقة، التمييز) من كلمات الموضة. انظر: غريماس، المرجع السابق (الفهرس) وانظر: ج. ماطوري: (**مفردات...**) الفهرس.

فيها فيكتور هيجو **مقدمة كرومويل** ـ هي خير شاهد على الجيل الجديد. والداندي مثله مثل الفنان يقف ضد سوقية[82] البورجوازي، ويعجب بالأصالة[83] بل بالغرابة والشذوذ. وهو مثله كذلك في إحساسه بالكآبة والسأم[84]. ولكن الداندية تفترض وجود الثراء وتقتضي الترف والبذخ. إن الداندي ينتمي إلى الأورستقراطية أو إلى رجال المال (أمثال فوبورج أو سان جرمان أو شوصي دانتان). وبما أنه أقل ثقافة من الفنان فهو «لا يرى إلا الموضة في الموضة»، ويقضي حياته في ملاحقة متطلبات الزينة، وذلك ما يعني عند بلزاك أن الداندية هي «بدعة الحياة الأنيقة» و«تكلف الموضة»[85].

والأورستقراطية بدورها تكره البورجوازي. ويبدو من بعض الاستطلاعات التي قمنا بها في أدب العصر، أن كلمة «بورجوازي» غالبا ما كانت تدل فيما بين 1829 و1834 على معنى قدحي حين يستعملها أشخاص يعدون أنفسهم أعلى من الطبقة البورجوازية (الفنانون والدانديون والأورستقراطيون)[86]. على أنه بالإمكان أن نلاحظ أن كلمة «bourgeoisie» (= بورجوازية) كانت أقل استعمالا من كلمة «bourgeois» (= بورجوازي). وهذا يعني أن تصورنا لمفهوم **الطبقة**[87] لم يظهر قط إلا في ظل مَلَكِيَّة يوليوز(ط) (la monarchie de juillet). ويبدو أن البورجوازية في سنة 1830 لم يكن ينظر إليها على أنها طبقة واحدة، إذ لا شيء بالفعل كان يجمع ما بين صاحب أبناك شوصي دانتان الذي ينتمي إلى **المجتمع** وإلى **رجال المال**[88]، **وصغار**

(82) كلمة (Vulgarité) (= سوقية) بدورها كانت من ألفاظ الموضة. انظر: بلزاك في (**كلمات الموضة**) ضمن: أعمال مختلفة 37/2.

(83) غريماس، المرجع السابق.

(84) نفسه.

(85) **بحث في الحياة الأنيقة**، ج 2، ص. 277.

(86) **Balzac:** Bal de sceaux. éd. Manz. p. 129 (2 fois) 137, 138, ... etc.

(87) استعملت عبارة (classe sociale) (= طبقة اجتماعية) عند بلزاك سنة 1842 في (Un début dans la vie. éd., Robert et Matoré, chez Droz, p. 10).

(88) يقال أيضا: (le haut commerce) (= التجارة الكبرى) في مقابل (le petit commerce) (= التجارة الصغرى). وحول مفردات التجارة (مثل: client = زبون ـ magasin = متجر ... إلخ) يمكن الرجوع إلى: ماطوري في (**مفردات** ...) الفصل 1.

(ط) تميز شهر يوليوز 1789 بفرنسا بأحداث كبرى غيرت مجرى البلاد، منها قيام المجلس الوطني التأسيسي (9 يوليوز) الذي عمل على وضع دستور للبلاد يحد من سلطة الملكية ويدخل إصلاحات على نظام الحكم. (المترجم).

البورجوازيين أو**الطبقات المتواضعة**. وعلى العكس من ذلك، فإن عامة الشعب من عمال وخدم وسائقي العربات... إلخ الذين يغبطون البورجوازي على حياة اليُسر التي يعيشها، نجدهم يعطون للكلمة الدالة عليه قيمة تشريفية.

اكتسبت كلمة «bourgeois» (= بورجوازي) إذن، وبصفة خاصة، قيمة ذاتية غير موضوعية. وهو ما يعطينا فيما يبدو صورة عن مكانة البورجوازي في نفسية أعدائه. وهذه القيمة هي قبل كل شيء احتقار التفرقة، والتعلق الخاص ببساطة الحياة، وبما هو **إيجابي** (positif)، وقد كانت هذه الكلمة الأخيرة من كلمات الموضة.

يقول بلزاك: «نحن أناس نهدف إلى ما هو **إيجابي**، ونفضل كثيرا **قطعة** من الحلوى الجيدة على طقم من البُورْصُولين المُذَهَّب»[89].

وهكذا لم يعد لذوق الموجة التي كانت قد ظهرت مع بداية الإصلاح[90] وجود إلا في الأشكال الخارجية للألبسة. وسوف يكون باستطاعة صاحب (رسول الصالونات) (mercure des salons)[91] أن يكتب أنه في يوليوز 1830 حل **الإيجابي** محل **المثالي**، كما استطاع **المُريح** أو **المُرفّه** (confortable) الذي تحول فيما بعد إلى **راحة ورفاهية** (confort)، أن يصبح هو السيد المالك. وحل **مُحِبٌّ اللذات** (viveur) ـ فيما كتب ف. بياط ـ محل **المَسْلول**(ي) (poitrinaire)[92]، وصارت **الشهوانية** (sybaritisme)[93] سلطانا.

* * *

لقد حاولنا خلال الصفحات السابقة أن نبين انطلاقا من المفردات الجمالية، تزامنية مختلف الحركات التي أبانت عن نفسها فيما بين 1827 و1834 في سائر

---

(89) (Les deux amis, œuvres div. 5. II, p. 230) وحول كلمة (Positif) (= إيجابي) انظر: ماطوري في المرجع السابق؛ وغريماس في (Quelques reflets. p. 22).

(90) غريماس، المرجع السابق، ص. 37.

(91) نقلا عن غريماس، مرجع سابق، ص 22.

(92) Les artistes, Nouv. Tableau de Pa., 1, 4, p. 20

(93) انظر: ماطوري (**مفردات**) الفصل 3. وانظر أيضا بلزاك في: (.Maison du chat qui pelote, éd (Manz, p. 31).

(ي) لعل ما يجعل لفظ (محب اللذات) يوضع في مقابل (المسلول) هو أن الأول يحب الحياة الطويلة العريضة، والثاني محكوم عليه بالحياة القصيرة لمرضه القاتل (م).

مجالات الحياة الفرنسية. وكان بإمكاننا أن نمدد حقل عملنا أكثر ونسجل التلازم الموجود بين الأفعال الجمالية والاجتماعية والاقتصادية وغيرها من خلال الحقبة التي درسناها، ولكن المكان لا يتسع لذلك. وعلينا الآن أن نضع الخلاصة:

ما هي العناصر الأساس والمفاهيم المفاتيح التي بمقتضاها يبدو تناسق البنية المجتمعية (والمعجمية) لسنوات 1827-1834؟. ليس حل المشكل بسيطا، ولا نعلم أن هذا السؤال قد حصل على جواب لحد الآن. وبجانب ذلك فإن نتائج بحثنا التي سنضعها بين أيدي قرائنا ليس لها إلا قيمة افتراضية.

إن ما يبدو لنا هو أن الأفعال الاجتماعية للحقبة التي خصصناها بالصفحات السابقة، تدور حول مفهومين متناقضين وهما: **الفردانية والتنظيم**.

إن وجود الفردانية الرومانسية ما كان أحد ليجحده قط: فالمعاصرون للحقبة قد سجلوا ظهور الكلمة «individualisme» وتأسفوا على الظاهرة التي تترجمها هذه اللفظة الجديدة. فقد كان ف. شاسط يتراجع أمام «هذا الشعور المرعب بأن تكون اللغة قد اعتقدت أنها أهل لكلمة متوحشة مثل كلمة (**فردانية**). إن الفرشاة لم تعد لها مدرسة، والريشة لم يعد لها أي قانون»(94). وكان ديليكلوز هو الآخر يشير إلى هذا التبرير للعزلة الأخلاقية أو الجمالية عندما كان يضع في مقابل عقلية العائلة «عقلية العَزَب التي تدفع بالرجل داخل المجتمع مثلما تدفع المطرقةُ مسماراً»(95). أما ما كان كتّاب العصر يطلقون عليه اسم فَردية «individualité»(96) فإنه لا يدل إلا على مظهر من مظاهر الفردانية «individualisme» عملت العبقريةُ على الإعلاء من شأنه تقريبا. وكانت العبقرية منذ القرن الثامن عشر قد تم ربطها بالفردية والأصالة والمجد. وحين سيقوم رومانسيو 1830 بالمناداة بحرية الفن والفنان، لن يصنعوا أكثر من إعادة استعمال أحد موضوعات ما قبل رومانسية 1770. ولكن التطور الاقتصادي والاجتماعي قد أعطى لهذا الإحساس نبرة جديدة: لقد أحس فنان

---

(94) **دراسة حول الأخلاق والعادات**، ص. 254. واقرأ في: (ماطوري: **مقدمة الآنسة دي موبان**) نصا مهما كتبه أحد القضاة يعود إلى سنة 1836. والكلمة موجودة قبل ذلك عند بيير لورُو في (Revue encycl., nov. 1833).

(95) **شيء من الأدب سنة 1832** (De la politesse en 1832. T, 13 p. 92)

(96) هيجو: **مقدمة أغاني الشفق**: (Préface des chants de crépuscule) وبلزاك يستعمل كثيرا لفظ (Sommités) (= قمم، أقطاب).

1830 بأنه في عزلة: عزلة عن الوسط الشعبي والحِرَفي الذي منه قد خرج في الغالب، هذا الوسط الذي كان شخص مثل ديدرو يحتفظ بروابطه معه، ولكن الآلة في كل يوم تعمل على تغييره أكثر. وعزلة عن باقي الفنانين الذين يجرون وراء أهداف متعارضة في الغالب حتى وهم داخل مدرسة أو قل داخل جماعة موقتة، وعزلة أخيرا عن جمهور غير متجانس، ومتقزز، ومتعب، ولا يُقَدِّر إلا الفن الجذاب اللاذع.

هل كانت الحركة التي تطور أمرها ابتداء من 1827 مجرد بلبلة وفوضى وفردية؟ لا نظن ذلك، فليس للرومانسية مظهر أدبي وتصويري فقط: إنها تعبر أيضا عن حركات فكرية وعن رأي في الحياة الاجتماعية والاقتصادية يؤدي إلى خلق أنظمة مثل أنظمة فورييه وسان سيمون، ويقود إلى حركات اشتراكية. إنها تتجلى في أعمال فلسفية معتبرة مثل أعمال أوغست كونت. وحتى لو لم نهتم إلا بالأعمال الأدبية، هل يمكننا أن ننكر أن شعرية هيجو ونظرية الفن للفن و**الكوميديا الإنسانية** كلها شواهد على إرادة فعالة لتوجيه الأفعال والوقائع وتجاوز المستوى الفردي والتلقائي؟

ويبدو أن فكرة **التنظيم** (l'organisation) ــ مثلها مثل الشعور الفرداني ــ هي محور من محاور رومانسية 1827ــ1834. وقد أفاد بيير دوكاسي[97] بأن أوغست كونت كان قد استبدت به أدبياً كلمةُ وفكرةُ تنظيم «organisation» سنة 1826. وقد دعت اشتراكية 1830 هي الأخرى إلى تنظيم المجتمع، ولهذا السبب أدانها بيير لُورُو في مقاله بـ (المجلة الموسوعية) (Revue encyclopédique) (نوفمبر 1833) وفيها وضع الفردانية التي تنفي المجتمع مقابل الاشتراكية التي تنتهي بـ «دفن كل حرية وكل تلقائية تحت ما تسميه بالتنظيم»[98].

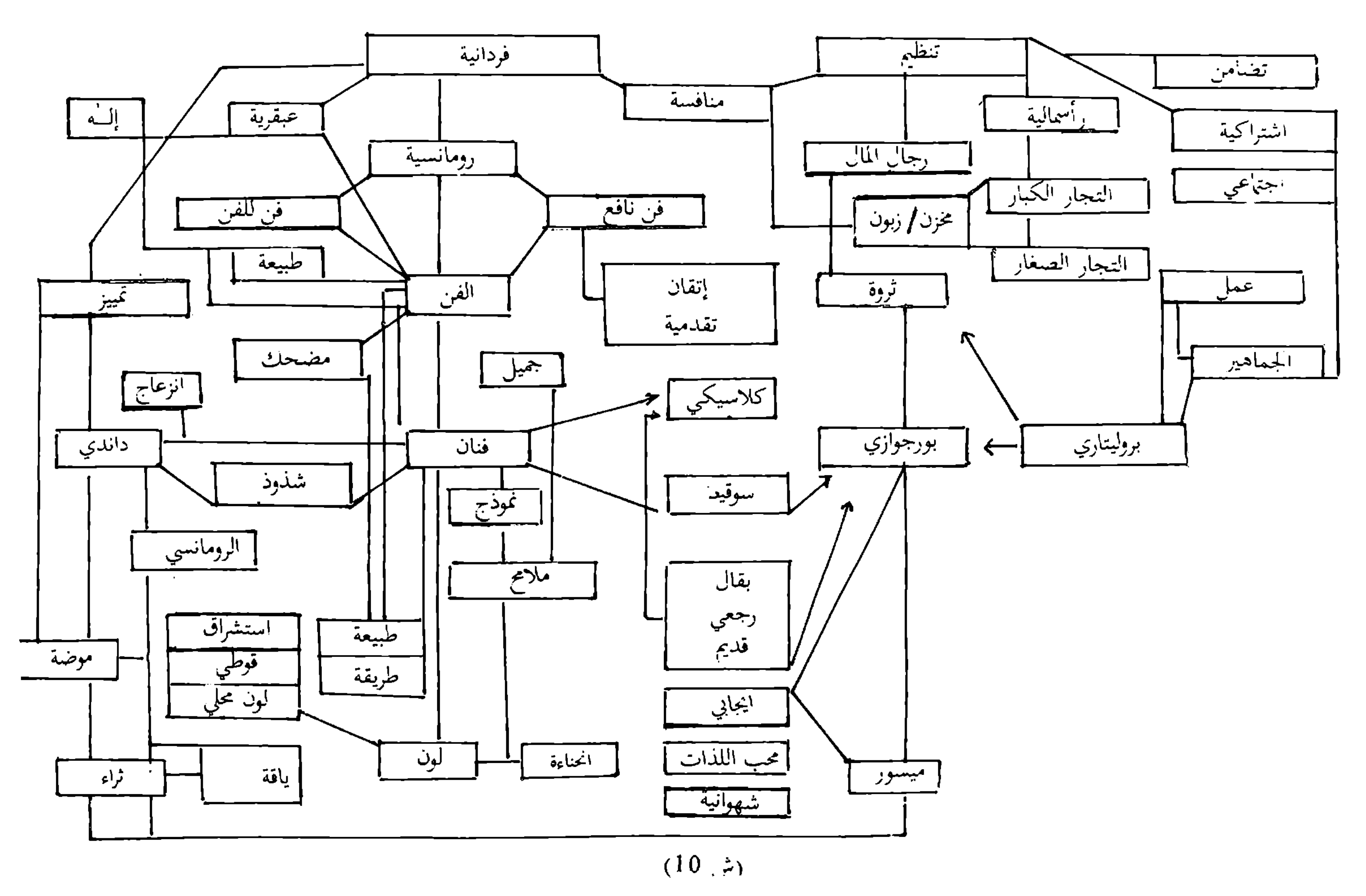
وليس هذا الانشغال خاصا بكونت والاشتراكيين، ففي 1827 نجد هيجو في (**مقدمة كرومويل**) يتصدى لروح نظام أولئك الذين يريدون ــ سواء كانوا رومانسيين أم كلاسيكيين ــ «أن يثبتوا دائما شيئا ما» و«أن يَتَّبعوا قوانين أخرى غير

---

(97) انظر: كتيبات الفلسفة الاجتماعية، وخاصة الكتيب الخامس: **تأملات السلطة الروحية**. مارس 1826) ونشكر بحرارة بيير دوكاسي الذي أشار علينا بهذه النصوص. وقد كانت كلمة (organisation) شائعة من قبل عند سان سيمون. وعلينا كذلك أن نسجل أهمية كلمة (solidarité) (= تضامن) التي أشار علينا بها السيد ويكسلر والتي نجدها خاصة عند أ. كونت (انظر قاموس لالاند).

(98) ج 60، ص. 107 نقلا عن: قاموس لالاند.. الملحق.

الحقل المفهومي للفن والفنان حوالي 1827 ـ 1834



(ش. 10)

القوانين الخاصة بتنظيمهم وطبيعتهم»[99]. فالمأساة ـ حسب هيجو ـ ينبغي بالفعل أن تترابط وتُستنبَط كما يحدث في الواقع الحقيقي[100]. وهذا ما نجد بلزاك يعبر عنه بشكل أدق. ففي التقديم الذي كتبه لـ (**الكوميديا الانسانية**) يعيب على وليام سكوط أنه لم يحقق نظاما معينا بل اكتفى فقط بضبط إجراء تجريبي لدراسة المجتمع، وأما (**الكوميديا الإنسانية**) فهي في نظر مؤلفها نظام صالح لإعادة إنتاج الحقيقة المحيطة بنا وذلك بتبسيطها عن طريق تبني نماذج مختارة جدا. وفعلا فإن الأمر بالنسبة لقصة بلزاك يتعلق بإظهار الحقيقة والمغزى العميق للأفعال والوقائع، وليس بالتعبير عن الحقيقة العارضة أو «النزوع نحو الجميل المثالي». وبعد أن استعمل بلزاك أفكار الطبيعيين وآراء بعض الصوفية أيضا، نجده يؤكد «وحدة تكوين» العالم ويقول: «إن الخالق لم يستخدم في صنع كل المخلوقات التي أنشأها سوى مثال واحد»، والمجتمع يشبه الطبيعة، «لذلك وجدت وسوف توجد في كل زمان أجناس مجتمعية مثلما توجد أجناس حيوانية»، والمشكل هو في تكييف المبادىء، التي سبق استعمالها من قبل في دراسة أجهزة بسيطة، مع ذلك الجهاز المعقد الذي هو المجتمع. وعلى مجهود الكاتب إذن أن ينصب على التنسيق بين مختلف العناصر المكونة للحقيقة الموصوفة وتنظيمها.

لقد أصاب بعض الرومانسيين الأكثر وعيا بحاجات عصرهم ـ إذا لم نقل الأكثر ذكاء ـ الذعر من الورطة (والتعبير لسانت بوف) التي حتمتها الفردانية الأدبية. فمن المؤكد أن الفن النفعي هو محاولة للتنظيم ونظرة إلى علم الجمال باعتبار وظيفته في خدمة المجتمع. وقد تطورت مدرسة الفن للفن من جهتها ـ وهي فردانية في بداياتها ـ نحو تَقَبّل قواعد لن تكون أقل حتمية من قواعد الكلاسيكية لكي تحظى بالرضى والقبول.

وإذا كان التنظيم ـ حسب اعتقادنا ـ له مقابل الفردانية دور مهم في سُلّمية المفاهيم خلال 1827ـ1834، فإن مشكل العلاقات القائمة بين الرومانسية والوسط الاقتصادي والاجتماعي الذي يؤثر فيها على نحو كبير، مشكلٌ يمكن معالجته. ولكن مثل هذا العمل قد يتجاوز بكثير حدود محاولتنا.

---

(99) **مقدمة كرومويل**، ص. 38.

(100) نفسه، ص. 32.

ملحق ـ 2 ـ

ملاحظات حول أطروحات جديدة في معجمية الفرنسية الحديثة

ـ 1 ـ

أ. ج. غريماس: الموضة سنة 1830[1]

* **محاولة لوصف مفردات اللباس من خلال صحف العصر الخاصة بالموضة.**

(أطروحة دكتوراه دولة في الآداب. باريس 1948. نص مرقون 431 صفحة)

* **بعض انعكاسات الحياة الاجتماعية سنة 1830.**

(أطروحة ثانوية. باريس 1948. نص مرقون 147 صفحة)

يتألف هذا العمل المهم من حيث الكم من قسمين: الأول وهو الأكبر حجما، عبارة عن وصف لمفردات الألبسة. والثاني عبارة عن دراسة ذات طبيعة اجتماعية قائمة على المفردات التي تمت دراستها.

القسم الأول: لقد طرحت مسألة تحديد الموضوع مشكلا بالنسبة للسيد أ. ج. غريماس الذي تصور ـ بعد أن تبنى التفرقة التي جاء بها سوسير بين التزامنية والتعاقبية ـ عمله على أنه عمل سكوني (statique). كان الأمر إذن يتعلق برسم حدود لعملية الوصف. وقد طبق أ. ج. غريماس تقطيعا محددا لمنطقة داخل الواقع الاجتماعي، إذا لم تكن مستقلة فهي على الأقل قابلة لكي تدرس على انفراد بطريقة غير اعتباطية. ويؤلف القطاع الذي اختاره غريماس ما سوف أسميه بـ «الحقل المعجمي» لموضة اللباس. وهو حقل قد حدده التصور المزدوج: (اللباس، الأناقة)، وتلك وضعية متميزة لأنها سمحت لغريماس بأن يؤسس دراسة قائمة على الوقائع أي على الواقع الملموس للباس دون أن يمنع نفسه ـ لأجل ذلك ـ من اقتحام المجال الأكثر مثالية لعلم جمال اللباس.

والدراسة التي اقترحها غريماس على نفسه كانت ذات طبيعة تزامنية. وهذا التصور بالتأكيد بالنسبة للحالة غير المتقدمة لعلمنا تعتبر فرضية مفيدة للعمل، لكن بشرط أن تكون محددة. وقد أجرى غريماس الذي كان يفهم ذلك، عملية تقطيع في حقبة زمنية قصيرة جدا، إذ حصر دراسته في الأفعال المعجمية التي لوحظت في عام 1830 وحده. وفي الحقيقة يمكننا أن نناقش شرعية هذا الاختيار : ذلك أن التقطيع

---

(1) هذه الدراسة لأطروحة غريماس كانت قد نشرت سنة 1948 في (رومانيش فورشانج = Romanische Forschange).

داخل المفردات ينبغي فيما يبدو أن يكون حوالي 1825. وهذا الأمر لم يغب عن غريماس الذي لم يؤخر دراسته إلى تاريخ 1830 إلا بغرض التبسيط. ففي 1825–1830 نشأت بالفعل عدة صحف حررها بروح جديدة كتاب موهوبون، فكان هذا مساعدا على الدراسة المنظمة للاتجاهات الخاصة بجماليات اللباس التي ظهرت حينذاك. وقد تم التعبير عن هذه الاتجاهات في هذه الرائعة المجهولة من روائع بلزاك المسماة (**بحث في الحياة الأنيقة**) (Traité de la vie élégante). وقد صنع أ. ج. غريماس خيرا حين أعاد نشرها وهو المؤهل لذلك أكثر من غيره.

ولننتقل الآن إلى تحليل سريع لهذا العمل: فبعد أن عرض غريماس موضوع دراسته والمنهج الذي أشرت إليه، قام في مدخل بسيط بدراسة تصورات الأناقة الملبسية حوالي 1830، واستعرض عددا من التراكيب التي تعبر عن مفهوم قولهم: «chose à la mode» (= شيء في الموضة)، ملاحظا بالمناسبة ذلك الأمر الغريب الذي يبدو في كون اللسان الفرنسي «لم ير من المناسب أن يُوجِد صيغة من الصيغ الوصفية للدلالة على صفة مهمّة جدا مثل صفة «être à la mode» (= أن يكون في الموضة)». ولا شك أن اللسان الفرنسي أراد أن يتجنب اصطداما جناسيا: فكلمة «mode» بمعناها العام الذي هو (طريقة)، تتوفر على مشتقات من مثل «modal» و«modique»... إلخ. ولكن أية كلمة واحدة من هذه الكلمات المشتقة لا يمكنها أن تترجم، في الوقت الواحد وبشكل واضح، المفهومَ المختلف جدا الذي يعبر عنه تركيب «à la mode» (= في الموضة).

وبعد ذلك يبيّن غريماس، عن طريق المعجم، كيف أنه «ينبغي أن يجتمع عنصران في الشيء الذي عليه أن يصبح موضة حقا، وهما: الجدة والقبول من الجمهور الأنيق. والعنصران ضروريان لخلق نوع من الرغبة الحادة في الشيء الذي يحترمه المغرمون بالموضة وهالةٍ تمجيدية حوله» (ص 13). ولا يتسع المكان هنا لكي أقوم بتلخيص دراسة تلك العبارات التي من قبيل: «bien porté» (= ملبوس بشكل جيد)، و«bien» (= جيد)، و«comme il faut» (= كما ينبغي)، وكذلك العبارات المهمة جدا من مثل: «élégant» (= أنيق)، و«distingué» (= متميز)، و«recherché» (أنيق جدا) (ص 16 و17) التي انكب عليها أ. ج. غريماس. هذا وإن «كلمات الموضة» التي يدرسها بلزاك على سبيل المثال في (**الموضة سنة 1830**) هي في الغالب من ألفاظ الموضة. وإلى هذا الصنف أيضا تنتمي العبارات ذات الأصل الأنجليزي (مثل: faschionable = مُوضي، أنيق – وdandy = داندي – وconfortable = مريح، مُرَفَّه) وبعض التراكيب ذات الطبيعة الأكثر تلقائية والمعبرة عن الإفراط في المشاعر الرومانسية: أي الألفاظ التحسينية المتسمة

بالغلو (مثل: adorable = فاتن، merveilleux = عجيب، écrasant = ساحق، مهلك، pyramidal = هَرَمي، هائل)، أو القدحية (مثل: rococo = بال، متجاوز ـ arriéré = متخلف ـ perruque = رجعي... إلخ). ولنلاحظ أيضا ظهور كلمات مثل (vulgarité) (= سوقية، خشونة)، هذه الكلمات التي كانت مدام دي ستاييل قد جازفت بها والتي تدل على أن قلة الذوق واللباقة عند الطبقات الاجتماعية الجديدة المتولدة عن الثورة، قد حكم عليها الفنانون وأصحاب الذوق الممتاز في هذا العصر أحكاما قاسية. وحول هذه الألفاظ العامة يلاحظ غريماس بالفعل أن «عدد الألفاظ الدالة على المرأة العصرية أقل كثيرا من الألفاظ المخصصة لتسمية الأنيق»، وهذا أمر صحيح، خاصة «وأن الأناقة الخارجية باعتبارها طبيعية عند المرأة تثير قليلا من الاستغراب وقليلا من السخرية، ومن ثم قلما يتغير اختيار الألفاظ الدالة عليها».

وتأتي بعد ذلك دراسة الألفاظ الآتية: «élégante» (= أنيقة)، «merveilleuse» (= ساحرة، عجيبة)، «grande dame» (= سيدة محترمة) إلخ... ثم يعالج غريماس المفردات الجمالية للموضة، وبعدها يقوم باستعراض كلمات مثل: «luxe» التي تعطي معنى «mode» و«recherché» (= أناقة كبيرة)، وكلمات أخرى على درجة كبيرة من الأهمية مثل «originalité» (= أصالة) و«caractère» (= خاصية، طبيعة) و«distinction» (= تمييز). وحين نقرأ هذا الفصل الغني بالأفعال والأفكار نتساءل: أما كان للسيد غريماس أن يمدد في هذا المجال حقل بحوثه أكثر مما فعل، ويقوم في مقابل ذلك بالتقليص أحيانا من الحيز المخصص لتعابير من معجم اللباس لا مستقبل لها؟ هناك مشكل يطرح نفسه إزاء الركام الكبير من الوثائق التي جمعها السيد غريماس: فإذا كان علينا أن نقبل بأن عملية التركيب التي يقوم بها المعجمياتي لا ينبغي أن تبنى إلا على تحليل كامل تماما، وعلى عمليات فحص وجرد مهمة، أفلا يكون مناسبا إذّاك أن نمنح بعض عناصر المعجم (وعناصر الحياة المجتمعية) مكانة متميزة ونترك عناصر أخرى في دائرة الظل؟ إن جهود العاملين في المعجمية ينبغي ـ فيما نعتقد ـ أن تعنى أكثر فأكثر بعقلنة[أ] الأفعال المدروسة، «فالعلم بالشيء لا قيمة له. بل ينبغي الفهم. والمهارات العقلية القائمة على أسس جيدة لا تكون الحاجة إليها أكثر ضرورة من الحاجة إلى البحث عن السبب في وجود الظواهر وربطها بتفسيرات عامة»[2].

---

(2) ش. ف. لانجلوا (Ch. V. Langlois) **مسألة التاريخ** (Quest. d'histoire) نقلا عن هـ. بير (H. Berr): **التركيب في التاريخ** (La synthèse en histoire, p. 21)

(أ) يقصد إعطاء الأفعال والظواهر المدروسة مضمونا وتفسيرا عقليين وفكريين (م).

وبعدما قام غريماس بدراسة هذه المفردات الفنية، انتقل إلى الوصف المجرد للباس 1830. وإن الكلمات الدالة على الألبسة والكساء لذات أهمية خاصة: فإلى جانب اللفظ العام وهو «costume» (= لباس، ثوب، كساء...)، هنالك سلسلة من الكلمات المعبرة بفروق دقيقة جدا عن الطريقة الخاصة بالمجتمع في اللباس. يقول بلزاك: «البهيمة تتغطى، والغني أو الأحمق يتزينان، والرجل الأنيق يرتدي».

ويقوم غريماس أولا بدراسة الزينة الخاصة بالذكور، ويعطي لمحة سريعة ولكن موحية، عن أقسام الزينة. ثم يستعرض بشيء من الثراء في التفاصيل التي تختلط على القارىء، مختلف العناصر المكونة للباس، مبتدئا بالعناصر التي كان الوعي الاجتماعي للعصر يعطيها أهمية كبرى. ذلك أن المعجمية لا تنظر إلى الأفعال المجتمعية باعتبار أنها أشياء في ذاتها، لأن المعجمية ليست مجرد علم اجتماع بل هي علم نفس أيضا.

وبعد دراسة مناسبة للياقة (cravate) التي «جيء بها لتعيد ما تم محوه نهائيا من فروق دقيقة في الزينة... حتى أصبحت هي المعيار الذي به قد نتعرف على الرجل الجيد والرجل الذي لا تربية له» (بلزاك)، يقوم غريماس بتحليل المفردات الدالة على جَمَّة الشعر («وقد انتهت سنة 1830... بالنصر الكامل للرومانسيين» في هذا المجال)، وعلى القبعات، ومختلف أصناف الألبسة من رِيدِينْغُوتات(ب) وملابس مِعْطفية (habits-vestes) وصُدْرات وسراويل، وعلى المعاطف الخارجية والأحذية... وأما الفصل المخصص للملابس الداخلية فهو يثير الفضول بشكل خاص: «فذلك الداندي الذي يظل طوال النهار غارقا في ألبسة فُصِّلت عليه تفصيلا، هو نفسه الذي نجده، في المساء يتزينَّ على الطريقة التركية أو الإغريقية، ويجهد نفسه، وهو بين دخان سيجارته، كي يظهر في أشكال شاذة غريبة» (ص 103).

والقسم الثاني من الأطروحة الأساسية خصصه المؤلف للزينة النسائية. وبعد أن لاحظ غريماس أن الفرق في الأعمار كان في سنة 1830 يميل نحو الاختفاء على الأقل داخل الطبقة البورجوازية ـ إذ نجد الأمهات يَتَزَيَّن مثلما تَتَزَيَّى الشاباتُ الصغيراتُ (ص 127) ـ يقوم بدراسة زينة الرأس (وهي عنصر مهم من عناصر الزينة عامة، لأن الأوصاف الخاصة بزينة الرأس تحتل ثلثي عُروض الموضة الجديدة في صحف الموضة). وفي هذا الصنف يفرق بين حلاقة الشعر، وهو العمل الذي يتولاه «فنان الشعر»، وبين العَمَّة (القبعة، العمامة، البِيرِيه... الخ) التي تستعمل لمدة

(ب) جمع (ريدنغوت) (redingote) وهو معطف نسائي كبير (م).

طويلة. وأما الفصل المخصص للفساتين فقد سمح لغريماس بأن يحدثنا عن «الأكمام المنتفخة» التي تميز الموضة الرومانسية والتي سيعمل ظهورها على «إطلاق ثورة تقضي على كل ما تحظى به الموضة في الأمبراطورية» (ص 178). ثم ينتقل غريماس بعد ذلك إلى المكمِّلات واللواحق مثل الكانِيزْوات(ج) والألْفِعَة والأصَلِيَّات(د)... ثم ينتقل إلى المعاطف والملابس الداخلية وملابس المناسبات (ينبغي قراءة وصف لباس القصر في ص 225)، ثم إلى الحليِّ، وأدوات التطيّب. وبعد أن درس المواد الداخلة في صناعة الأزياء (الأقمشة والأفرية) التي خصص لها ما يقرب من أربعين صفحة، والعطور ودهون التجميل والمساحيق، قدم غريماس إلى القارىء في خلاصة قصيرة ولكنها غنية بالأفعال والأفكار، لوحة عن تشكيل مفردات الموضة.

القسم الثاني: تدرس الأطروحة التكميلية «بعض انعكاسات الحياة الاجتماعية سنة 1830 على مفردات الموضة في الصحف العصرية». وقد وضع غريماس في هذا الجزء الثاني من الأطروحة، «باستعمال الوثائق الأساسية التي جمعها خلال مسيرة عمله» تخطيطا لدراسة العلاقات بين الموضة والأفعال الاجتماعية التي أوجدتها: أي الظروف الاقتصادية والاجتماعية الجديدة والحركات والأفكار والمشاعر المستجدة. ومع الأسف فقد اكتفى غريماس الذي كان بإمكانه أن ينكب على بحث اجتماعي معمق حول هذا المشكل، بدراسة مظاهره البارزة فقط، فبيَّن كيف أن تقدم الصناعة والتجارة أوجد طبقة جديدة يسميها بلزاك «ديموقراطية الأغنياء»، وفي مواجهتها سوف يستمر قيام الطبقة الاورستقراطية لضاحية سان جرمان، وفي مقابل «المثالي» عند هذه سوف نجد «الإيجابي» عند تلك: عالمان قائمان ولا يلبث أحدهما أن يختفي.

وسيتوقف غريماس طويلا عند فعلين مهمين، بعد إهمال بقية الجوانب الأخرى، وينظر إليهما في ضوء المعجمية المدروسة سابقا، وهما: الرومانسية والأنجلومانية(هـ). ففي عصرنا الذي يسيطر عليه «التاريخ المُؤرِّخ» للأدب الذي لا يهتم إلا بالتراجم الشخصية، يكون من المفيد أن ينغمس المرء ثانية ـ دون أن تغيب عن عينه الحقائق المعجمية المتينة ـ في مناخ الجماليات الرومانسية ومشاعرها. فما

(ج) جمع كانيزُو (canezou) وهو صدار نسائي بدون أكمام (م).

(د) جمع أصَلِيَّة (boas) وهي ما تضعه النساء على أعناقهن مصنوعا من ريش أو فراء. والأصلية منسوبة إلى الأصَلَة (بالتحريك) وهي ثعبان كبير من فصيلة الأصَلِيات، وقد شبه هذا النوع من الفراء بها (م).

(هـ) الأنجلومانية (l'anglomanie) نزعة تقليد الأنجليز والإعجاب بهم وبطريقة حياتهم (م).

بين: «nature» (=طبيعة) و«romantique» (=رومانسي)، وما بين «aérien» (=جوي) و«mystérieux» (غامض)، وما بين «délireux» (=يَهْذِي) و«moyen-âge» (=عصر وسيط)و shall ←châle (=شال) يكمن كل تاريخ هذا العصر الذي ينصرم أمام أعيننا اللاهية التي لا تبالي إلا قليلا.

وبعد ذلك يدرس غريماس انطلاقا من الألفاظ الأنجليزية الدخيلة وقتذاك على الفرنسية، التأثير العميق الذي مارسته الأنجلومانية على المجتمع الفرنسي خلال ذلك العصر. وتتجلى هذه الأنجلومانية في محاكاة طرق الحياة الخارجية: ففي الوقت الذي تنتشر فيه الرفاهية (confort)(و) يقوم المطبخ الأنجليزي بإدخال **البانش** (punch)(ز) والسَّانْدويشّات (sandwiches) التي يتم استهلاكها في **اللاّنش** (lunch)(ح)، بينما يُتَرْجم الذوق الأنجليزي الخاص بالعَرَبات الأنجليزية بنجاح عربات التِّيلْبُورِيز (tilburys) والستانْهُوبز (stanhops).. إلخ. ولكن لعل ما يميز الأنجلومانية بصفة خاصة هو وجود التقليد الشديد. وهنا يقدم لنا غريماس قائمة بأصحاب الأناقة والداندين المقلدين للموضة اللندنية الذين ضجروا مما ألفوا وتعلق حبهم بما هو غريب ونادر. وهنا يكمن ـ ولنكرر ذلك ـ علم اجتماع أدبي رائع.

ـ 2 ـ

برنار كيمادا : العلاقات الغرامية في القصص الاجتماعية (1640 ـ 1670)

(أطروحة دكتوراه من جامعة باريس 1949 ـ مرقونة)

إن الاستطلاعات الأولى التي قام بها السيد كيمادا عندما كان يشتغل بالبحث في معجم الظَّرف والغَزَل للغة القرن السابع عشر(3)، هي التي قادته بمهارة كبيرة لكي يدرج بحوثه ضمن مفهوم واحد للسانِ فئة اجتماعية واحدة من خلال الوثائق التي يقدمها نوع أدبي واحد (من فنون النثر) وخلال مدة جيلين تقريبا، دارساً ألفاظ علاقات الغَزل في لسان المجتمع المدني ما بين 1640 و1670. ولقد كان هناك ما يبرر تبريرا كاملا أيضا الوقوف عند القصص التي يُعرف تأثيرها على لغة الصالونات في ذلك العصر. كل هذه التفاصيل المنهجية كانت تفرض نفسها

(و) هذه الكلمة وما بعدها ذات أصل أنجليزي (م).

(ز) شراب مسكر مؤلف من كحول وتوابل مختلفة (م).

(ح) وجبة خفيفة تقوم مقام وجبة الغداء (م).

(3) وهكذا، وكما قلنا سابقا، فإنه من المستحيل في الحالة الراهنة من معلوماتنا، اعتبار الدراسة «النهائية» لمفردات مهمة خلال حقبة طويلة دراسة قابلة للإنجاز. وقد بين ب. كيمادا الذي لم يدرس سوى عشرين =

ولاسيما أن النتائج المحصل عليها تهدف إلى تغيير معلوماتنا عن التاريخ الاجتماعي والنفسي للقرن السابع عشر.

وتعيين الحدود التاريخية يضع مشكلة مهمة : ذلك أن كلا من تاريخي 1640 و1670 لا يقابل أي تقطيع من التقطيعات التي اقترحناها. فلماذا هذا الاختيار ؟ وكيف نبرِّره ؟ إن المؤلف بعد أن توصل إلى وجود حل لمشكلة الاستمرارية في المعجم المدروس ـ تطور المعنى الذي استمر في كل الألفاظ إلى غاية القرن الثامن عشر[4] ـ عمل على تحديد تاريخ هذا التحول. ولما كان عليه أن يدرس التمظهر الاجتماعي لأي فعل من الأفعال الشعورية والثقافية، فقد قادته التصورات الخاصة بالغَزَل والملاطفة وكيفية استعمالهما، إلى أن يجعل من مرحلتي التطور المدني المتميزين في القرن السابع عشر حدودا لدراسته، وهما : مرحلة المجتمع المتحذلق والظريف في منتصف القرن، ومرحلة المجتمع الماجن الذي أعلن عن دعارة القرن الثامن عشر. وحوالي 1640 يختفي أسلوب التفخيم من النثر الذي جرت به العادة إذذاك، وتتخلى القصص عن أسلوبها الروائي الحربي ليحل محله ما هو شعوري وإحساسي، ويصبح الحب المتحذلق مقننا. وفي 1642 كانت كَسَنَّدرا لاكالبرونيد (Cassandre de la Calprenède) قد «تعلمت كيف تحب»[ط]. وتميزت نهاية القرن بالاختفاء النهائي للحذلقة والتصنع والمداعبة الغَزَلية، لتحل محل ذلك المغامرات الواقعية والقصص الإباحية. وبعد بَطلات قصص النساء اللَّائي يؤخرون الزواج، تأتي النساء اللواتي يفضلن الزواج مع شرور الخيانة الزوجية.

إنه من المفيد أن نستنتج أن مفردات الحقل المعجمي الدالة على علاقات الغَزَل والملاطفة مثل: (commerce, affaire, intrigue, fortune, intelligence, engagement)[ي]... إلخ تتطور مع المجتمع الذي يستعملها. وإن ترتيب العدد الكبير

= كلمة خلال فترة نصف قرن، وأتى على ذكر أكثر من ألفي نص شاهد، مرة أخرى، تشابك القضايا المطروحة، ونوع الاحتياطات التي ينبغي للباحثين اتخاذها.

(4) انظر: A. François. in. H.L. IV, p. 10-95

(ط) (كسندرا) هي أحد أعمال الكاتب الفرنسي (Gautier de la Calprenède) المتوفى سنة 1663. ويلمح المؤلف هنا إلى الاسطورة الاغريقية التي تحكي أن (كسندرا) كانت قد رفضت حب أحد الالهة فانتقم منها وانتهى أمرها إلى أن تصبح أمة مملوكة ثم تقتل. (المترجم).

(ي) يمتاز كل لفظ من هذه الألفاظ بكونه صالحا لأن يستخدم في حقل العلاقات الغرامية وملاطفة النساء كما في حقل التجارة، بحكم معانيه المزدوجة أو المتعددة، وذلك على النحو التالي: =

من الكلمات التي تمَّ جردها ليسمح بتحديد تطور نظام الدوال (signifiants) فيما بين 1665 و1670. على أن هذا التغير الدلالي يفترض وجود تحول للمجتمع المدني فيكون تعبيرا عنه : تحولٍ مجتمعي معروف بشكل سيء جدا ولا يتطابق مع التاريخين اللذين يضعهما له المؤرخون بصفة عامة، وهما : 1660 أو 1680. أما التاريخ الذي يتوسط ذلك وهو 1670 فيبدو أن عليه أن يترجم تقطيعا أكثر أهمية من تقطيعات الأجيال الكلاسيكية وأزمة الوعي الأوربي. فهو يسجل بداية ثورة الأفكار والعادات. وهذه الخلاصة التي هي أكثر من افتراض، تتطلب أعمالا جديدة تقوم بتأكيدها، وما ذلك سوى مثال من أمثلة النتائج التي يحق لنا أن ننتظرها من دراسة الأفعال الاجتماعية عن طريق المعجم.

---

1) commerce = التجارة، المتاجرة، التجّار/العلاقة التي يكتسبها المرء في المجتمع، طريقة التصرف إزاء الآخر ... معاشرة، مخالطة، زنا..

2) (affaire) = شغل، معاملة تجارية أو غيرها/صلة وعلاقة.

3) (intrigue) = مكيدة، مجموع الحيل التي تستخدم في ربح معاملة تجارية أو خسرانها/علاقة حب خفية غير دائمة، مغامرة، عقدة، قصة...

4) (fortune) = ثروة،/حظ، نصيب، ربة الحظ...

5) (intelligence) = ذكاء، عملية التفاهم المتبادل، قابلية التكيف مع الأوضاع/التواصل بين أشخاص يتفاهمون...

6) (engagement) = التزام (وهو إما مادي وإما معنوي عاطفي)

وعلاقة العاطفة بالتجارة ومشاعر الحب بمشاعر المادة المزيفة هي التي أراد المؤلف أن يبينها عن طريق دراسة هذا النوع من المفردات، وهذا ما جعله أيضا يختار لأطروحته عنوانا فيه تورية وهو (le commerce amoureux) الذي يمكن ترجمته إلى (التجارة العاشقة) وليس هو المعنى المراد، وإلى (التجار العاشقين) أو (العلاقات الغرامية) (المترجم).

مصطلحات مستعملة في الترجمة

آلي	Mécanique
آلية	Mécanisme
آني	Instantané
تأثيل (ايتيمولوجيا)/اشتقاق	Etymologie
أداة	Article
أدبية	Littéraire
لغة ـ :	Langage — :
كلمة ـ :	Mot — :
تأريخ (ج. تأريخات)	Datation
أرغة	Argot
أس	Exposant
أكاديمي	Académique
لفظ ـ :	Mot — :
أناني	Egocentrique
أنانية	Egocentrisme
انبثاق	Emergence
مفهوم الـ ـ :	Notion d'— :
مبدع/خلاق	Créateur
إبداعية	Créativité
استبدالي	Paradigmatique
محور ـ :	Axe — :
بذيئة	
كلمة ـ :	Mot grossier
باعث/موجه/مرسل	Emetteur
جهاز/جهاز عضوي	Organisme
مجاز مرسل	Métonymie
حُبْسة	Aphasie
حبيس (مصاب بالحبسة)	Aphasique
حدث/واقعة	Evénement
مُحدَث/مستحدَث/مولّد	Néologisme
حشو	Redondance
تحديد	Détermination

بعث/توجيه/ارسال/بث	Emission
بنية	Structure
تتابعي	Successif
تتابعية	Successivité
ثنائية	Dualité
تجريبي	Empérique
جرد/تفريغ/فحص	Dépouillement, inventaire
مجرد/تجريدي	Abstrait
جشطالطية/جشطالتية	Gestaltisme
جماعي/جمعي	Collectif
جَمْعَن (ف)	Socialiser
تَجَمْعنٌ	Socialisation
اجتماعي/مجتمعي	Social
مجموعة/مجموع/كل	Ensemble
جماعة لغوية	Communauté linguistique
جمال/علم الجمال	Esthétique (n)
جمالي/فني	Esthétique (adj)
جانب/مظهر	Aspect
تجنيسات	Calembours
متجانس/منسجم	Cohérent
اللاتجانس/عدم الانسجام	Incohérence
التجانس اللفظي/ الاشتراك اللفظي	Homonymie
خاصية/طبيعة	Caractère
خطاب	Discours
خطاطة	Schéma
خلاصة تركيبية/تركيب	Synthèse
خلط	Confusion
خلاق/مبدع	Créateur
خلق/إبداعية	Création
داخلي/ذاتي	Intrinsèque

Hiérarchie	تدرج/تسلسل/تراتبية/سلمية
Perception	إدراك
Signifiant	دال
Sémantique	دلالة/علم الدلالة
Signification	دلالة/معنى
Connotation	ـ بالتضمن
Dénotation	ـ بالتعيين
Signifié	مدلول
Nomenclature	مدونة (معجمية)
Subjectif	ذاتي
Subjectivité	ذاتية
Conjonction	رابطة (ج. روابط)
Associatif	ترابطي
Rapport — :	علاقة ترابطية
Fichier	رتابة
Hiérarchie	تراتبية/سلمية
Classement	ترتيب/تصنيف
Fréquence	تردد/توارد
Emission	إرسال
Message	رسالة
Emetteur, destinateur	مُرْسِل
Destinataire	مُرسَل إليه
Fonds	رصيد/ذخيرة
Charabia	رطانة
Syntaxe	تركيب
Synthèse	خلاصة تركيبية/تركيب
Synthétique	تركيبي
Verbal	شفوي
Etymologie populaire	اشتقاق شعبي
Forme	شكل/صورة/صيغة
Uniforme	موحد الشكل
Formalisation	شَكْلَنَة/صَوْرَنَة/تقعيد
Configuration	تشكل خارجي
Familier	شائع
Mot —	كلمة ـ ة :

Article	حرف محَرَّفة
Bas-latin	لاتينية ـ :
Geste	حركة/إشارة
Sens	حس/حاسة
Sentiment	إحساس/شعور
Sentimental	إحساسي/شعوري
Epoque	حقبة/فترة/عصر
Catachrèse	حَقيقة عُرْفية
Champ	حقل
— Lexical	حقل معجمي
— Linguistique	ـ لغوي
— Notionnel	ـ مفهومي
— Conceptuel	ـ تصوري
— Sémantique	ـ دلالي
Analyse	تحليل
— Componentielle	ـ إلى المكونات الدلالية
Adverbe	حال/ظرف
Cas	حالة
Changement, transformation	تحول/تغير
Contenu	مُحْتَوَى
Contenant	مُحْتَوٍ
Traits	خصائص/سمات
— Distinctifs	ـ، سمات مميزة :
— Pertinents	ـ ملائمة :
Combinaison	تركيبة (ج. تركيبات)/ تأليف
Syntagme	مركب
Réactif	ارتكاسي
Symbole	رمز
Code	نظام رمزي/اصطلاح
Symbolisme	رمزية/منظومة رمزية
Codification	ترميز

Encodeur	مرمِّز
Décodeur	مُرَمَّز إليه/محلل الرمز
Temps	زمن
Synchronique	تزامني (سانكروني)
Synchronie	تزامنية (سانكرونية)
Affixe	زائدة
Cause	سبب/علة
— Et effet	ـ ومسبَّب
Statique	سكوني
Style	أسلوب
Stylistique	أسلوبية
Chaîne parlée	سلسلة كلامية
	تسلسل (نظ. تدرج)
Ethnologie	سِلالة (اثنولوجيا)
	سلّمية (نظ. تسلسل)
Contexte	سياق/مقام
Sémiologie	سيمياء (علم)
Ressemblance	مشابهة/تشابه
Sujet parlant	شخص/فرد متكلم
Anomalie	شذوذ
Condition	شرط/ظرف
	اشتراك لفظي (نظ. تجانس لفظي)
Commun	مشترك/عام
Mot —	لفظ ـ :
Populaire	شعبي
Mot —	لفظ ـ :
Sentiment	شعور
Lexique	معجم
Lexicaliser	مَعْجَم (ف)
Lexicalisation	مَعْجَمَة
Lexical	مُعْجَميٌّ
Lexicaliste	معجمي (متخصص في الدراسة المعجمية)
Lexicologie	معجمية
Lexicologue	مُعجَميَّاتي (متخصص في المعجمية)

Citation	شاهد (ج. شواهد)
Mot témoin	كلمة شاهدة
	إشارة/(نظ. حركة)
Puriste	صَفَائي (يدعو إلى صفاء اللغة)
	صفة (نظ. وصف)
Terme	مصطلح/لفظ
Terminologie	مصطلح (علم)
Consonne	صامت
	تصنيف (نظ. ترتيب)
Son	صوت
Phonétique	علم الصوت
Voyelle	صائت
Concept/conception	تصور
Conceptuel	تصوري
Image	صورة
— Mentale	ـ ذهنية
— Acoustique	ـ إصغائية
Forme	صيغة/(نظ. شكل)
Hapax	ـ نادرة
Pronom	ضمير
— Personnel	ـ الشخص
Présupposition	تضمن
Sémantisme	مضمون دلالي
Implication	تضمين
Expression	عبارة/تعبير
Arbitraire	اعتباطي
Interjection	تعجب
— Intrinsèque	ـ داخلية
Cause	علة/سبب (نظ. سبب)
— Efficiente	علة فاعلة
Causalité	علية/سببية
Signal	علَامة
	عالمة
Mot savant	كلمة ـ :
Usage/Utilisation	استعمال
Usuel	مستعمَل

Mot —	لفظ ــ
Elément	عنصر
Sens	معنى
— Cognétif	ــ معرفي
— Performatif	ــ إنجازي
— Descriptif	ــ وصفي
— Affectif	ــ عاطفي
Structure componentielle :	بنية الـ ــ
Polysémie	تعدد المعاني/الاشتراك المعنوي
Métaphore	استعارة
Vulgaire	عامي/شعبي/دارج
Désignation	تعيين/تسمية
	الدلالة بالتعيين (نظ. دلالة)
Confus	غامض
Confusion	غموض/التباس/خلط
Changement	تغير/تحول
— Sémantique	ــ دلالي
— Linguistique	ــ لغوي
Individu	فرد
Individuel	فردي
Individualité	فردية
Individualiser	فَرْدَنَ (ف)
Individualiste	فرداني
Individualisme	فردانية
Vocabulaire	مفردات
Distinction	فرق (ج. فروق)/تفرقة/تمييز
Valeur	قيمة
	مقام (نظ. سياق)
Ecriture	كتابة
— Figurative	ــ تصويرية
— Hiéroglyphique	ــ هيروغليفية
Adéquation	كفاية
Adéquat	كاف
Ensemble	كل/مجموع

Lexicomètre	مِعْجام
Polysémie	متعدد المعاني/مشترك
Equation différentielle	معادلة تفاضلية
Flexion	إعراب
Désinence	علامة إعرابية
Incompatibilité	تعارض/تنافر
Opposition	معارضة/تعارض
Définition	تعريف/تحديد
— Ostentive	ــ إشاري
Ethnographie	(عِراقة. اثنوغرافيا)
Organique	عضوي
Organisme	جهاز ــ/(نظ. جهاز)
Organiciste	عضواني
Organicisme	عضوانية
Affectivité	عاطفية
Donné	معطى
Diachronie	تعاقبية
Diachronique	تعاقبي
rationaliser	عَقْلَن (ف)
rationalisme	عقلانية
Rationalisé	مُعَقْلَنٌ (مف)
Intellectualisation	عَقْلَنة
Rationnel	عقلي/معقول
Rapport	علاقة
— Associatif	ــ ترابطية
— Syntagmatique	ــ نظمية
Explication	تفسير/شرح
Physiologie	فَسْلَجةٌ (فسيولوجيا)
Physiologique	فَسْلَجِيٌّ
Littéral	فصيح
Articulation	تمفصل
Verbe	فِعْل
Fait	فعل/حدث
Faits de langage	أفعال اللغة

Totalité	كلية
Parole	كلام
Verbal	كلامي/لغوي/شفوي
	سلسلة كلامية (نظ. سلسلة)
Parler	تكلم (ف)
	شخص متكلم (نظ. شخص)
Mot	كلمة/لفظ
— Chef	ـ رئيسية
— Héréditaire	ـ قديمة/متوارثة
— Thème	ـ موضوع
— Clé	ـ مفتاح
— Témoin	ـ شاهدة
— Réactif	ـ ارتكاسية
— Savant	ـ عالمة
Sociogenèse	تكوين اجتماعي
Génétique	تكويني
Adaptation	تكيف
Pertinent	ملائم
Désinence	لاحقة
Inconscience	لا وعي/لا شعور
Langue	لسان
— Maternelle	ـ أصلي
Linguistique (n)	لسانيات
Langage	لغة
Linguistique (adj)	لغوي
	جماعة لغوية (نظ. جماعة)
Idiome	لُغَيَّة
Sémème	ـ دلالية مركبة
Lexème	ـ معجمية
Archilexème	ـ معجمية شاملة
Sème contextuel	ـ دلالية سياقية
Sème nucléaire	ـ دلالية نووية
Uniforme	وحيد الشكل أو الصيغة
	توارد/تردد (نظ. تردد)

— — Vocabulaire	ـ المفردات
— — Lexique	ـ المعجم
— Sociaux	ـ المجتمع
— De civilisation	ـ حضارية
Sujet	فاعل
Emotif	انفعالي
Idée/Notion	فكرة
Compréhension	فهم/مفهوم
Notion	مفهوم
— De poids	ـ الوزن
— d'émergence	ـ الانبثاق
Interrogation	استفهام
Phylologie	فيلولوجيا
Préverbal	(ما) قبل الكلام
Antériorité	قبلية
Aptitude	قَبُول/قابلية
Acceptabilité	مقبولية
Emprunt	اقتراض/استعارة
Discontinu	متقطع/غير متصل
Coupe	تقطيع (ج. تقطيعات)
Formalisation	تقعيد
Dictionnaire	قاموس
Lexicographe	قاموسي (مؤلف القواميس)
	قاموسية (تأليف القواميس،
Lexicographie	صناعة القواميس)
Locution	قول/عبارة
Catégorie	مقولة نحوية
Vocable/mot	لفظ
Syncrétique	تلفيقي
Récepteur	متلقي/متقبل
	متلقي الرمز (نظ. محلل الرمز)
Concret	ملموس
Dialecte	لهجة

لهجة محلية	Patois
تمثيل	Allégorie
مدة	Durée
أمراض اللغة	Pathologie de langage
مورفيم (وحدة صرفية)	Morphème
تمييز/فرق/تفرقة	Distinction
نظمي	Syntagmatique
علاقة نظمية/مركبية	Rapport —
نظام/نسق	Système
نظام رمزي	Code
النظام الرمزي للغة	— Linguistique
تنظيم/نظام	Ordre/Organisation
نعت/صفة	Adjectif
نفسي	Psychique
نفسية	Psychisme
نفساني	Psychologique
نقيض الأطروحة	Antithèse
نقل	Transmission
هُدب الكلمة	Frange du mot
هالة الكلمة	Halo du mot
وحدة	Unité
ـ دالة	— Significative
ـ دالة على الماهية	Sémantème
ـ دالة على الصنف	Classème
ـ دلالية مفردة/سيم	Sème
وزن	Poids
مفهوم الـ ـ :	Notion de —
اتساع/توسع	Extention
صفة/نعت (نظ. نعت)	
متصل	Continu
تواصل	Communication
وضع	Situation
وضعية	Attitude
مواضعة	Convention
موضوعي	Objectif
موضوعية	Objectivité
وَضْعَنْ (ف)	Objectiver
مُوَضْعَنْ (مف)	Objectivé
وظيفة	Fonction
ـ انفعالية	— Emotive
ـ معرفية	— Cognétive
ـ طلبية	— Conative
ـ انتباهية	— Phatique
ـ تأكدية	— Métalinguistique
وعي/إحساس	Conscience
توافق/تطابق	Concordance
توليد/إحداث ألفاظ	Néologie
مولد (نظ. محدث)	

المحتوى

تقديم 5
مقدمة المؤلف للترجمة العربية 23
مقدمة الطبعة الثانية 27
مقدمة الطبعة الأولى 53

الفصل الأول
مدخل

أ ـ موضوع العلم غير محدد 58
ب ـ المنهج غير محدد 62
ج ـ المعجمية وعلم الاجتماع 63

الفصل الثاني
موضوع المعجمية
اللفظ ومحتواه التصوري

1 ـ أصول الرمزية اللغوية 67
2 ـ وجود الكلمة 70
3 ـ الكلمة والفكر 77

الفصل الثالث
موضوع المعجمية (تابع)
الكلمة ومحتواها التصوري (تابع)

1 ـ قيمة الكلمة 87
2 ـ المستوى النفسي 90
3 ـ من النفسي إلى المجتمعي ـ الكلمة تبلور التصور؟ 92
4 ـ الكلمة والمجتمع : المستوى المجتمعي ـ الكلمة تجمعن وتعقلن التصور 93
□ الكلمة تنقل التصور 96
5 ـ تفاعل النفسي والمجتمعي ـ ميلاد المحدث وانتشاره 98
6 ـ حدود الكلمة 104

الفصل الرابع
وجهة نظر المعجمية

المعجمية والعلوم المجاورة 107

الفصل الخامس
منهج المعجمية

1 ـ المعجمية التاريخية والمعجمية السكونية 113
2 ـ تحديد موضوع الدراسات 117

الفصل السادس
منهج المعجمية (تابع)

أ ـ الكلمة ومجموعتها ـ التصنيف 127
الحقل المفهومي 128
الكلمة الشاهدة 130
الكلمة المفتاح 132
ب ـ تصنيف مجموع الأفعال المعجمية 137
تطبيقات التصنيف 141
المعجم خلال 1660 ـ 1670 143

الفصل السابع
منهج المعجمية (تابع)

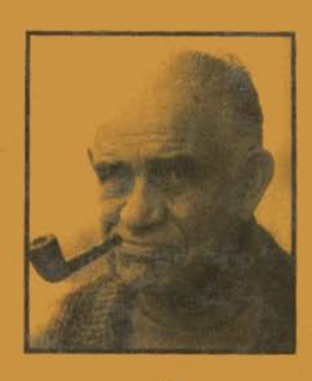
أ ـ التحديدات العددية والتمثيلات الخطية 151
ب ـ البحث عن الأسباب : ضرورة التركيب 158
خلاصة 165

ملحق ـ 1

(الحقل المفهومي للفن والفنان فيما بين 1827 و1834) 173

ملحق ـ 2

(ملاحظات حول أطروحات جديدة في معجمية الفرنسية الحديثة) 201
مصطلحات مستعملة في الترجمة 211
المحتوى 217



المؤلف

هذا الكتاب

مع ما يصاحب أي منهج رائد من عيوب ومحاسن، فإني أعتقد أن الأفكار التي أتيتُ بها في كتابي والأفعال والوقائع التي ذكرتها يمكنها أن تصلح قاعدة للأعمال التي تأتي فيما بعد. ورغم أن «منهج المعجمية» يعتبر كتابا بنيويا في جوهره، لأنه يعتبر أن الكلمة لا يمكن عزلها عن سياقها الاجتماعي، فإنه لا يمكن أن يخضع لبعض المفاهيم الأساسية في «محاضرات» سوسير، بل لقد سمح لنفسه بأن ينهض ضد بعض الثوابت الآتية في هذا الكتاب :

• لقد ظهر أكثر فأكثر أن اللسانيات، التي لها حتما مناهجها ووجهة نظرها الخاصة، ليست معزولة عن بقية العلوم الإنسانية الأخرى بالشكل الذي يدعيه سوسير، لدرجة أننا نستطيع اعتبار المعجمية مادة مجاورة لعلم الاجتماع.

• أثبت كل من المعجمية وعلم الدلالة، اللذين تجاهلهما كتاب «محاضرات في علم اللغة العام»، حقهما في الوجود بما أثاراه وأوجداه من أعمال.

• ازدراء الدراسة التعاقبية (الديكارونية)، الذي نعلمه منذ ورتبورغ وبالدينجر، ليس له ما يبرره.

• التمييز الذي أقامه سوسير بين اللسان والكلام يتطلب المراجعة.

جورج ماطوري